علي مولا

كلود ليڤي شتراوس

من قريب ومن بعيد

(الدوائر الباردة)

حوارات مع: ديدييه إريبون



ترجمة: مازن م. حمدان

حوارات حوارات حوارات حوارات حوارات حوارات حوارات حوارات حوارات حوارات حوارات حوارات حوارات حوارات



من قريب ومن بعيد

الدوائر الباردة

العنوان الأصلي للكتاب:

Claude LÉVI-STRAUSS

DE PRÈS ET DE LOIN

Entretiens
avec

Didier Eribon

صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
وزارة الخارجية الفرنسية وقسم الخدمات الثقافية
في السفارة الفرنسية في سورية

Livre publié
En collaboration avec
Le Ministère français des Affaires Etrangères
Et les Services Culturels
de l'Ambassade de France en Syrie

كلود ليفي شتراوس

من قريب ومن بعيد

الدوائر الباردة

حوار أجراه ديدييه إريبون

ترجمة : مازن م . حمدان

من قريب ومن بعيد
الدوائر الباردة

حوار مع كلود ليفي - شتراوس

اجراه ديدييه إريبون

ترجمة : مازن م . حمدان

الناشر: دار كنعان
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق – ص.ب 443 هاتف 2134433

الطبعة الأولى: 2000 / **3000**

التنفيذ : دار كنعان (دمشق)

إخراج: لبنى حمد

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح

الإهداء :

إلى محمد حمدان
رغم أنك أبي ...

م. م. حمدان



تمهيد

د. إ: هل احتفظت بيوميات، بمفكرات، بـ«أوراق طريق» كالتي نجدها في «المدارات الحزينة»[1]؟

ك. ل. ش: في البعثة، بالتأكيد. كنت أسجل ملاحظات كثيرة. ويوجد في «المدارات الحزينة» عدة مقاطع منسوخة عنها بدقة شديدة.

د. إ: لكنك لم تكتب مذكرات بالمعنى الدقيق للكلمة على طريقة مالينوفسكي(*) في «يوميات إثنوغرافي»[2]؟

ك. ل. ش: لم أكن أعلق أهمية كبيرة على حالاتي النفسية!

د. إ: أطرح عليك هذا السؤال، لأنك تؤكد في «المدارات الحزينة» أنك لا تملك أية ذاكرة ...

ك. ل. ش: أملك ذاكرة مخرِّبة، تدمر ذاتها. إنني أحذف تدريجياً عناصر حياتي الشخصية والمهنية. ولا أتوصل فيما بعد إلى إعادة بناء الأحداث.

(*) مالينوفسكي: إنثربولوجي بريطاني من أصل يوناني، هو الممثل الرئيس للإنثروبولوجيا الوظيفية، وهي اتجاه تقف على طرفه المقابل الانثروبولوجيا البنيوية التي تزعمها ليفي - شتراوس. توفي عام 1942 وأشهر مؤلفاته «مغامرو الباسيفيك الغربي» الصادر عام 1922. - المترجم -

(1) تجد الهوامش الأصلية (للمؤلف) في آخر الكتاب.

د. إ: ولاستدراك هذا النقص (إن كنت تعتبر ذلك نقصاً) ...

ك. ل. ش: ...هذا مزعج جداً في الحياة، على أية حال.

د. إ: ... ألم تحاول أبداً أن تسجل أفعالك وتحركاتك في حينها؟

ك. ل. ش: أبداً. وقد يكون ذلك ناتجاً عن نوع من الارتياب الغريزي حيال ما أفعل وما أكون.

د. إ: ارتياب؟

ك. ل. ش: لقد قلت في «المدارات الحزينة» إن إدراكي نيوليتيكي(*)، فأنا لا أُراكمُ ولا أستثمر ربحي، لكني أنتقل على حدود متحركة دائماً. المهم فقط هو عمل اللحظة. وهو يخبو سريعاً. إنني لا أمتلك رغبة، كما لا أشعر بالحاجة لحفظ أثر منه.

د. إ: قولك إن اللحظة والحدث هما فقط ما يهمك يكاد ينطوي على مفارقة.

ك. ل. ش: بالنسبة لي، نعم هذا هو المهم. لكني أستغرق في الشغل بتكديس بطاقات Fiches: القليل من كل شيء، أفكار سريعة، ملخصات، قراءات، مراجع، استشهادات... وعندما أريد الشروع بعمل ما، أقتطف من خزائني رزمة بطاقات، ثم أعيد توزيعها وكأنني أقوم بكشف الطالع. إن هذا النوع من اللعب، الذي تمارس فيه المصادفة دورها، يساعدني على إعادة بناء ذاكرة متعبة.

(*) نيوليتيكي: نسبة إلى العصر الحجري الحديث. - المترجم -

الجزء الأول

عندما يعود دون كيشوت



الفصل الأول

من أوفنباخ إلى ماركس

د. إ: ولدت في بروكسيل عام 1908.

ك. ل. ش: بالمصادفة. كان أبي رساماً، وكان له أصدقاء في بلجيكا، دبروا له بعض الأعمال هناك. فذهب ليستقر مع زوجته الشابة في بروكسيل، وقد ولدت أثناء ذلك. وبعد شهرين من ولادتي عادا إلى باريس.

د. إ: كانا يسكنان في باريس؟

ك. ل. ش: أبي باريسي. أما أمي، المولودة في فيردان فقد ترعرعت في بايون.

د. إ: إذاً، قضيت طفولتك في باريس، في الدائرة السادسة عشرة على ما أعتقد.

ك. ل. ش: في بناء ما يزال قائماً إلى اليوم، 26 شارع بوسان، قرب باب أوتوي. وعندما أمرُّ به، أعاود رؤية شرفة الشقة التي عشت فيها سنواتي العشرين الأولى.

د. إ: واليوم، أنت تسكن أيضاً في الدائرة السادسة عشرة. هل تحب هذا الحي؟

ك. ل. ش: لقد أحببت هذا الحي في طفولتي لأنه كان يحتفظ بكثير من الإبهار. أذكر أن في نهاية شارع بوسان، عند زاوية شارع لافونتين، كان هناك ما يشبه المزرعة. وكان شارع رينوار نصف ريفي. بالإضافة لذلك كان ثمة مشاغل حرفية، ومتاجر صغيرة للعاديّات... أما اليوم، فهو حي يضجرني.

د. إ: كانت عائلتك ميالة جداً إلى الفنون!

ك. ل. ش: فيها تأسّل حقيقي! أبو جدتي (أم أبي) يدعى إسحاق شتراوس(*). ولد عام 1808 في ستراسبورغ. ثم صعد، كما يقال، إلى باريس أول شبابه. كان عازف كمان، وقد أسس أوركسترا صغيرة. ولعب دوراً في التعريف بموسيقا بتهوفن ومانلسون وبضعة آخرين. تعاون مع بيرليوز الذي كتب عنه في مذكراته، وأيضاً مع أوفنباخ، الذي كتب له بعضاً من أشهر رباعياته. وكنا -في العائلة- نحفظ أوفنباخ عن ظهر قلب، لقد هدهد كل طفولتي. غدا شتراوس قائد أوركسترا حفلات البلاط في نهاية حكم لويس فيليب. ثم غدا، في عهد نابليون الثالث، منظماً لكازينو فيشي لمدة طويلة. وفيما بعد، خَلَف موزار Mosard على رأس حفلات الأوبرا. وكان في الوقت نفسه شبيهاً بـ Cousin Pons(**)، شغوفاً بالعاديّات ويتاجر بها.

(*) وهو غير الموسيقي الشهير صاحب الدانوب الأزرق. فهذا الأخير يدعى يوهان شتراوس الثاني. (شتراوس بالألمانية. ستروس بالفرنسية). – المترجم –

(**) القريب بون: رواية شهيرة لبلزاك (من فصول الحياة الباريسية، صدرت عام 1846). وبون موسيقي لامع يصرف عوائده القليلة في جمع اللوحات والخزفيات ومناشق التبغ ←

د. إ: هل احتفظت عائلتك ببعض منها؟

ك. ل. ش: كان يمتلك مجموعة مهمة من العاديات اليهودية موجودة حالياً في متحف كلوني. وكثير من التحف التي مرت بين يديه اقتناها مجموعة من رعاة الفنون ووهبوها لمتحف اللوفر. وعند وفاته بيع ما تبقى منها، أو توزع بين بناته. وسلب الألمان الباقي أثناء الاحتلال. إنني أحتفظ ببعض البقايا، كالسوار الذي أهداه نابليون الثالث لأم جدي ليشكرها على ضيافته في فيلا شتراوس في فيشي. وهذه «الفيلا شتراوس»، حيث أقام الامبراطور، ماتزال موجودة. وقد تحولت إلى حانة أو مطعم لكنها احتفظت باسمها.

د. إ: هل كانت ذاكرة هذا الماضي تنتقل في التقليد العائلي؟

ك. ل. ش: بالتأكيد، فهو يمثل الفترة المجيدة من تاريخ العائلة: لقد كانت قريبة من العرش! كان أبو جدتي يتردد على الأميرة ماثيلد. وقد عاشت عائلة أبي في ذكرى الإمبراطورية الثانية. إضافة إلى أن هذه الذكرى بقيت قريبة جداً: فأنا نفسي، عندما كنت طفلاً، رأيت بأم عيني الإمبراطورة أوجيني.

د. إ: قلت لي إن أباك كان رساماً.

ك. ل. ش: نعم، واثنان من أعمامي أيضاً، إن جدي، الذي كان في البدء ميسوراً، توفي مفلساً لدرجة أن أحد أبنائه -كان لديه أربعة صبية وفتاة واحدة- اضطر للعمل صغيراً لإعالتهم. وضع أبي في مدرسة الدراسات العليا التجارية. وبدأ، في بداية حياته العملية، يشتغل في البورصة في وظائف متواضعة. وهناك تعرّف على كانويلر

وجميع أنواع التحف. ولم يكن أيّ ممن حوله يتوقع قيمة متحفه هذا. فعاملوه كقريب فقير. لكن ما إن عرفوا قيمة مجموعاته حتى بدؤوا يتآمرون للاستيلاء عليها، مستعجلين موته. - المترجم -

وأصبحا صديقين. حالما استطاع، اتجه نحو الرسم الذي شغف به منذ طفولته.

من ناحية ثانية كان أبي وأمي أبناء عمومة. في بايون، تزوجت إحدى خالاتي من رسام كان له حظ من الشهرة، هو هنري كارو - دولفاني، وتزوجت خالة أخرى من رسام أيضاً، هو غابرييل روبي، وهو باسكي عاش بصحة سيئة ومات شاباً وفقيراً.

لا أعرف، هل تعارف أبي وأمي بسبب القرابة أم بسبب العلاقات بين الرسامين. فقد عاشت أمي، قبل زواجها، عند آل كارو - دولفاني، في باريس وكانت تتعلم الاختزال على الآلة الكاتبة كي تصبح سكرتيرة.

د. إ: لم يكسب والدك الكثير من المال من مهنته كرسام.

ك. ل. ش: من القليل إلى الأقل، حسب تغير ذوق الجمهور.

د. إ: إذا، لم تكن طفولتك طفولة ابن البرجوازية الباريسية؟

ك. ل. ش: كانت كذلك ثقافياً عبر الحياة في وسط فني، وقد كانت غنية جداً فكرياً، لكننا كنا نتخبط في مصاعب مادية.

د. إ: هل لديك ذكريات محددة عن هذه المصاعب؟

ك. ل. ش: أذكر القلق عندما ينعدم الطلب على اللوحات. وفي هذه الحالة، كان أبي يبتدع أنواعاً شتى من المهن الصغيرة (فهو «محرتق»(*) جيد). لقد انهمكنا، في فترة من الفترات، في طباعة

(*) الحرتقة: bricolage: كلمة عامية في اللهجات المشرقية تدل على القيام بعمل ما بواسطة أدوات غير مخصصة أصلاً لهذا العمل. أي ابتداع وظائف جديدة بطريقة غير مألوفة أو غير متوقعة. ←

الأقمشة في المنزل، حيث كنا نحفر لوحات من المشمع، ونغرّيها بواسطة لاصق نضغطه على مخمل كي نثبّت عليه نثرات معدنية متعددة الألوان نبعثرها فوقه.

د. إ: وهل كنت تشترك في هذه النشاطات؟

ك. ل. ش: نعم. حتى أنني أبدعت عدة طرازات! في فترات أخرى، كان أبي يصنع طاولات صغيرة على النمط الصيني، ومصابيح كان يلصق على زجاجها طبعات يابانية رخيصة الثمن. لقد كان كل هذا ضرورياً لتدبير نهايات الأشهر.

د. إ: هل احتفظت بلوحات من رسمه؟

ك. ل. ش: قليلاً، فبسبب النهب لم يبق لوالدي في نهاية الحرب أي شيء، ولا حتى سرير...

د. إ: تحدثت عن مجموعة العاديّات اليهودية التي جمعها أبو جدتك. هل حافظ والداك على ارتباط ديني؟

ك. ل. ش: لم يكن والداي مؤمنين إطلاقاً. لكن أمي، كونها ابنة حاخام ترعرعت في جو مختلف.

د. إ: هل عرفت جدك الحاخام؟

ك. ل. ش: جيداً جداً. لقد عشت معه خلال الحرب العالمية

ولهذا المفهوم أهمية خاصة في فكر ليفي - شتراوس كما سنرى فيما بعد في الفصل الحادي عشر تحديداً عندما يقارن بين الحرتقة وعمل الفكر الأسطوري ليدلل على أن الفكر الأسطوري لم يختف أبداً إنما هو موجود في مجتمعاتنا المعاصرة بأشكال أخرى (الأعراف، العقائد، الموسيقا..) - المترجم -

الأولى، عندما استقرت أمي وخالاتي عنده مع أبنائهن بعد أن جُنّد أزواجهن.

د. إ: خارج هذه الفترة التي عشت فيها عند جدك نشأت في مناخ غير مؤمن، لكن ربما كان التقليد اليهودي حاضرا رغم كل شيء؟

ك. ل. ش: من جهة عائلة أبي، بقيت جدتي متعبدة، بيد أن في علاقة هذه العائلة بالدين يهجع مسّ من الجنون تجلّى بطرق مأساوية حيناً، وهزلية حيناً آخر. فأحد أعمامي لم يكن يملك رأساً صلباً فانتحر موسوساً بتأويل التوراة، وكان عمري آنذاك ثلاث سنوات. وكان عم آخر قد أصبح كاهناً -قبل ولادتي- لينتقم من أبويه إثر مشاجرة معهما. ولوقت ما، ضمت العائلة إليها رئيس دير... وقد تذكرته فيما بعد، عاملاً صغيراً في شركة الغاز متأنقاً دائماً، مع شارب أشقر معقوف، مغتبطاً بشخصيته وبموقعه.

أما من جهة عائلة أمي، فجدي الحاخام كان ورعاً وسمحاً، يمارس الطقوس بخشوع، لقد حضرت جميع الأعياد الدينية لثلاثة أو أربعة أعوام متتالية. أما جدتي _زوجته- فكان إيمانها مشكوكًا فيه حتى من قبل بناتها. ففي بايون أدخلتهن إلى مدرسة الراهبات لأنها كانت أفضل مؤسسة تعليمية. وكانت كبرى خالاتي تستعد للالتحاق بسيفر(*) وربما فعلت (لم أعد أذكر) وذلك في وقت كان فيه سكان الإقليم يرون في السيفريات شياطين صغيرة. كم كانت زوجة الحاخام واسعة الأفق!

أما والداي، فرغم عدم إيمانهما، كانا قريبين -بتأثير

(*) سيفر: منطقة صناعية فرنسية تقع جنوب غرب باريس. توجد فيها المدرسة العليا لإعداد المعلمين، فكان يطلق على طلابها اسم السيفريين. — المترجم -

طفولتهما- من التقليد اليهودي. لم يكونا يقيمان الأعياد، لكنهما كان يتحدثان عنها. وفي فرسـأي، احتفلا ببارمتشفاي(*)، دون أن يضطرا - كـي يجعـلاني أسـتعد لـه - لذكر أسباب أخرى غير عـدم إزعـاج جدي.

د. إ: ألم يقلقك الشعور الديني أبداً؟

ك. ل. ش: إذا كنت تقصد بـالدين علاقـة مـع إلـه شـخصي. أبداً.

د. إ: هل لعب هذا «اللاإيمان» دوراً في تطورك الفكري؟

ك. ل. ش: لا أعرف. كنت في مراهقتي متشدداً جداً في ذلك، أما اليوم، وبعد أن درست ودرّست تاريخ الأديان -كل الأديان- فقد أصبحت أكثر احتراماً لها مما كنت عليه في الثامنة عشرة والعشرين من عمري. إضافة لذلك، ورغم إعطائي أذنا صماء للإجابات الدينية يتملكنـي إحسـاس مـتزايد بـأن الكـون وموقـع الإنسـان فـي العـالم يتجاوزان فهمنا وسيظلان كذلك دائماً. وأشعر أحياناً أنني أقرب إلى المؤمنين من العقلانيين الصارمين، لأن لديهم على الأقل حسّ الغامض الذي يبدو لي الفكر عاجزاً تكوينياً عن إجلائه. ويجب أن نقنع بالاستنزاف المستمر للمعرفة العلمية على حدوده. لكن بالنسبة لي، ليس ثمة ما هو أكثر إثارة وأكثر غنى للفكر من محاولة متابعة هذه المعرفة دنيوياً مع بقائنا واعين تماماً أن كل تقدم يثير مشاكل جديدة، وأن المهمة لا تنتهي أبداً.

(*) بارميتشفا: عيد يهودي يقام للصبي عند بلوغه. - المترجم -

د. إ: هل قضيت كل فترة الحرب العالمية الأولى عند جدك، في فرساي؟

ك. ل. ش: نعم، من 1914 إلى 1918 وهناك بدأت دراستي: في المدرسة البلدية، في ثانوية هوش. وعندما عدنا إلى باريس، درست السنة السادسة في جانسون - دو - سايي.

د. إ: هل عانيتم كثيراً أثناء الحرب؟

ك. ل. ش: لا، فقد تم فرز أبي، لأسباب صحية، إلى الخدمات المساعدة، كممرض في المستشفى العسكري في فرساي. ولم يمت من عائلتنا في الحرب إلا شخص واحد، كان خريجاً لامعاً من المدرسة العليا. وقد ذكر موريس باريه رسائله في الحرب وعلق عليها في «عائلات فرنسا الروحية المتعددة».

د. إ: إذاً، بعد الحرب، التحقت بجانسون - دو - سايي.

ك. ل. ش: تابعت دراستي فيها حتى البكالوريا.

د. إ: هل أثر فيك أحد أساتذتك؟

ك. ل. ش: لا أعتقد ذلك، كانوا يبدون تجاهي وداً متفاوتاً، لكن لم يلعب أي منهم دور المعلم الروحي.

د. إ: إذاً، تعرفت على فكر ماركس عبر قنوات أخرى؟

ك. ل. ش: سبق أن أشرت إلى علاقة أبي مع عائلة بلجيكية. في الواقع كنا نقضي كل الإجازات معاً. وذات صيف، التقيت عندهم بأحد أصدقائهم المقربين، وهو شاب بلجيكي اشتراكي وحزبي معروف

في بلده. فطرحت عليه أسئلة حول كتّاب لا نسمع شيئاً عنهم في دراستنا الثانوية: ماركس، برودون.. وقد أتاح لي قراءتهم.

د. إ: كم كان عمرك آنذاك؟

ك. ل. ش: 16 سنة، وقد سحرني ماركس مباشرة.

د. إ: بأي كتاب بدأت؟

ك. ل. ش: لا أعرف. لكنني سرعان ما انكببت على قراءة «رأس المال».

د. إ: ألم تتراجع أمام صعوبته؟

ك. ل. ش: لم أكن أفهم كل شيء. في الواقع، اكتشفت بقراءتي لماركس أنماطاً أخرى من الفكر كانت جديدة بالنسبة لي: كهيجل وكانط..

د. إ: وربما هذا ما وجّهك نحو دراسة الفلسفة

ك. ل. ش: لا أعرف، على أية حال، بدأت دراستي للفلسفة بشكل سيء جداً. ولم أرتبط بها فعلاً إلا في منتصف السنة.

د. إ: ما الاتجاهات الفلسفية لأستاذك آنذاك؟

ك. ل. ش: كان برغسونياً. اشتراكياً وبرغسونياً.

د. إ: ألم تستهوك البرغسونية أبداً؟

ك. ل. ش: لا. بل إنني كنت أشعر بالعداء لها، حيث كان يبدو

لي أنها تترك المكان الأجمل للظواهر وللوعي المباشر.. لقد فهمتها فيما بعد بشكل أفضل، وامتدحتها في «الطوطمية اليوم»[3].

د. إ: أصبحت ماركسياً بواسطة ذلك الصديق البلجيكي، لكنك أصبحت أيضاً حزبياً.

ك. ل. ش: لا أستطيع الجزم فيما إذا كان قد نظّمني أم أنني اتجهت عفوياً باتجاه ذلك. لكنه على كل حال جعل حزب العمال البلجيكي يتبناني. وقد صدر أول نص مطبوع لي عن دار النشر التابعة للحزب: نص بعنوان «النسرين»، وهو كتيب حول غراتشوس بابوف أفضّل أن أنسى وجوده. ثم أصبحت نشطاً داخل الحزب الاشتراكي الفرنسي الذي كان يدعى آنذاك SFIO[*].

د. إ: ما الاتجاهات السياسية لعائلتك في ذلك الوقت؟

ك. ل. ش: لم يكن لديها التزام سياسي. فمن جهة أمي كان الجميع، عند حاخام فرساي الأكبر، بعيدين جداً عن كل انشغال من هذا النوع. ومن جهة أبي: عائلة برجوازية طيبة كانت قد عرفت أياماً أفضل وتزودت بطبع واقٍ من السياسة. باستثناء أن أبي، وأعمامي شاركوا في شبابهم -كما كانوا يرددون- في مظاهرة مؤيدة لقضية دريفوس[**] خطب فيها جوريس. وعندما اقتربوا في النهاية

---

[*] SFIO: القطاع الفرنسي من الحركة العمالية العالمية. - المترجم -

[**] قضية دريفوس: قضية حقوقية وسياسية شغلت الرأي العام الفرنسي وقسمته بين عامي 1894 و1906 ودفعت بتحالف اليسار إلى السلطة. وخلاصتها أن ألفريد دريفوس وهو ضابط فرنسي «يهودي». اتُهم بالتجسس لصالح ألمانيا، فقاد اليسار الفرنسي حملة كبيرة أقنع فيها الرأي العام أن دريفوس بريء وأنه حوكم خطأً، وأفضى ذلك إلى العفو عنه وردّ الاعتبار له. وجوريس الذي أتى ذكره هنا سياسي فرنسي يساري شهير كان من أقطاب هذه الحملة. -المترجم-

ليشكروه، أجابهم إجابة ملتبسة «آمل أنكم سوف تتذكرون ذلك» الأمر الذي كان يعني «لقد جئتم إلينا لكنكم سوف تبتعدون بسرعة». وهذا ما جرى في الواقع تماماً.

د. إ: ثم تطور التزامك الحزبي نحو الأمام!

ك. ل. ش: كنت أمين «مجموعة الدراسات الاجتماعية لدور المعلمين العليا الخمس» رغم أنني لم أكن طالباً فيها. وكنت أميناً عاماً لفدرالية الطلاب الاشتراكيين.

د. إ: هل عرفت في تلك الحقبة أشخاصاً ما تزال تراهم إلى اليوم؟

ك. ل. ش: لقد مات من كانت تربطني بهم أفضل العلاقات: بيير بوافان، ثم جورج لوفرانك. وقد عرفت جيداً مارسيل ديا أيضاً.

د. إ: هل ربطتك به علاقة وطيدة؟

ك. ل. ش: ليس تماماً. لقد عرفته عندما كنت -لكسب شيء من المال- سكرتيراً لنائب اشتراكي اسمه جورج مونيه، وذلك في السنوات السابقة للأستاذية(*). وهكذا كنت أتردد إلى غرفة النواب عندما كان مارسيل ديا أمين المجموعة الاشتراكية.

د. إ: متى كان ذلك؟

ك. ل. ش: من 1928 إلى 1930 وهي سنة الأستاذية. وعندها تركت هذا العمل لضيق الوقت.

(*) الأستاذية: مسابقة لاختيار أساتذة للتعليم الثانوي ولبعض المواد الجامعية (حقوق، اقتصاد..). - المترجم -

د . إ: فلنرجع إلى دراستك. تركت جانسون وشرعت في دراسة الفلسفة.

ك. ل. ش: لأنني لم أكن أعرف ماذا أفعل غير ذلك.

د . إ: إذاً، هو خيار سلبي تماماً.

ك. ل. ش: نعم. بعد جانسون انتسبت بداية إلى الهيبوكان(*) في كوندروسيه. لكني صدمت بسبب صعوبة اللغة اليونانية والرياضيات، وهكذا تورطت في دراسة الحقوق.

د . إ: من كان أستاذك في كوندروسيه، في الهيبوكان؟

ك. ل. ش: أندريه كريسون. وقد قال لي عندما قررت ترك الهيبوكان: «إنك لم تخلق للفلسفة، ولكن لشيء ما قريب منها» واقترح علي دراسة الحقوق. في الواقع كانت رؤيته صحيحة تماماً. لكن ذلك «الشيء» كان الإثنولوجيا.

د . إ: أين درست الحقوق؟

ك. ل. ش: في كلية الحقوق في باريس، التي كانت في ساحة البانتيون، وأصبحت اليوم جزءاً من السوربون باريس I، على ما أعتقد.

د . إ: كم بقيت فيها؟

ك. ل. ش: حتى حصلت على الإجازة. وحصلت في الوقت نفسه على إجازة في الفلسفة.

(*) الهيبوكان: صف تحضيري للمدرسة العليا لإعداد المعلمين. -المترجم-

د. إ: من أين؟

ك. ل. ش: من السوربون.

د. إ: حصلت على الإجازتين في آن معاً؟

ك. ل. ش: في تلك الفترة، كان طلاب الحقوق يستغنون غالباً عن حضور الدروس ويحفظون الملخصات عن ظهر قلب. لكن دراسة الحقوق أضجرتني، فانعطفت إلى الفلسفة. ها أنت ترى أنها دائماً أسباب سلبية.

د. إ: وهنا، هل طبعك الأساتذة بطابعهم او اثروا فيك؟

ك. ل. ش: أخشى أن أقول لك «لا» مرة أخرى. وهذا ليس انتقاداً لهم، لكنه انتقاد لنفسي، فقد كنت أتابع دروس برونشفيتش دون أن أفهم شيئاً.

د. إ: كم سنة تابعت هذه الدروس؟

ك. ل. ش: عدة سنوات، حتى الأستاذية.

د. إ: ودائماً دون أن تفهم شيئاً؟

ك. ل. ش: دائماً دون انطباع بأنني أفهم حقاً! كان من أساتذتي أيضاً ألبير ريفو، جان لابورت، لويس برييه، ليون روبان في الفلسفة اليونانية؛ فوكونيه وبوغليه في علم الاجتماع؛ آبيل ري في تاريخ العلوم.. وفي العمق، مررت عبر كل هذا كالشبح تقريباً، مع إحساسي بأنني كنت أبقى خارجاً.

سأبرهن لك إلى أية درجة كنت أشعر بقلة الالتزام: ففي يوم

إعلان نتائج الأستاذية، ذهبت إلى مكتبة متخصصة لأقتني بحثاً في علم الفلك. ليس لأنني أؤمن به لكن بدافع الثأر ولكي أؤكد لنفسي أنني لم أفقد استقلالي الفكري.

د. إ: ألم تكن شغفاً بدراستك؟

ك. ل. ش: أبداً. فقد كانت السياسة تستهويني. أما كيف اجتزت الأستاذية؟ فهو أمر عجيب. لكنني في نهاية المطاف اجتزتها دون مشاكل، وحللت ثالثاً في الامتحان الأول. وهذه معجزة لا أجد لها إلا تفسيرين: الأول هو أنني لقيت عناية كبيرة من رفيق لامع جداً وكاثوليكي ورعٍ ربما كانت تداعبه فكرة تحويلي عن ديني. لقد كان بارعاً في اللغة اليونانية فحضر لي النصوص. لا أعرف اليوم ماذا حل به لكني أدين له بالكثير. أما التفسير الثاني فهو مضحك. أعطاني طبيب صديق للعائلة حبابة -مورفين؟ كوكائين؟- ادّعى أنها ستنشط ذهني إذا شربتها قبل الدرس. كان يتم احتجاز الطلاب سبع ساعات في مكتبة السوربون لكي يحضروا هذا الامتحان النهائي. سارعت لشرب محتوى الحبابة فوجدت نفسي في حالة سيئة جداً، لدرجة أنني اضطررت لقضاء ساعات التحضير ممدداً على كرسيين. سبع ساعات من دوار البحر! أضف إلى ذلك أنني كنت قد اخترت بالقرعة موضوعاً هو الأكثر كارثية مما يمكن تصوره: «هل يوجد علم نفس تطبيقي؟» وكان هنري والون عضواً في لجنة التحكيم، وهو الذي طالبنا بهذا النوع من المواضيع. مثُلت أمام اللجنة خائفاً دون أن أستطيع تحضير أي شيء، فارتجلت نصاً مُنح درجة ممتازة أعتقد أنني لم أتحدث فيه سوى عن سبينوزا. على كل حال، ربما أدى العقار مهمته!..

د. إ: من تقدم لهذا الامتحان، ذلك العام؟

ك. ل. ش: فردينـاند ألكييه الذي حصل على المرتبة الأولـى. وسيمون ويل أيضاً.

د. إ: هل عرفتها جيداً؟

ك. ل. ش: قد يكون من المبالغة قول ذلك. كنا نثرثر في أروقة السوربون. وكانت أحكامـها البـاترة تبلبلنـي فمعـها دائمـاً الكـل أو لا شيء.

لقد رأيتها فيما بعد في الولايات المتحدة حين جاءت لقضاء فترة قصيرة قبل ذهابها إلى إنكلترا وموتـها هنـاك، تواعدنـا تحـت أعمدة واجهة بناء كبير (ربما مكتبة كولومبيا أو المكتبة العامة) وقد تحادثنا جالسين على الدرجات. كانت نساء جيلنا المثقفات متطرفات غالباً. لكن سيمون ويل دفعت هذا التصلب إلى أقصاه حتى تركت نفسها تتدمر.

د. إ: قمت بدورة الأستاذية مع سيمون دو بوفوار وموريس ميرلو - بونتي.

ك. ل. ش: في ذلك الوقت، كان يتم القيام بهذه الدورة قبل المسابقة. وهي دورة تربوية مدتها ثلاثة' أسابيع. وقد وجدت نفسي بالمصادفة في جانسون - دو سايي عند أستاذي السابق برفقة سيمون دو بوفوار وموريس ميرلو- بونتي. وكنا ندرّس بالتناوب.

د. إ: هل كان ذلك أول لقاء لك بهما؟

ك. ل. ش: نعم. ولم نر بعضنا بعد ذلك، لعدة سنوات.

د. إ: لقد ذكرتْ سيمون دو بوفوار هذه الفترة في مذكراتها. وكتبت عنك: «كانت رباطة جأشه مهيبة، لكنه يستخدمها ببراعة، وقد وجدته مضحكاً عندما شرح لمستمعيه بصوت حيادي، وبوجه ميت جنون الشهوات[4]..».

ك. ل. ش: لا أذكر شيئاً من هذا.

د. إ: هل كانت علاقتكما جيدة؟

ك. ل. ش: يبدو لي ذلك. وما أزال أحفظ في ذاكرتي صورة سيمون دو بوفوار في تلك الفترة: طافحة بالحيوية، بالسحنة النضرة لريفية صغيرة.

د. إ: وميرلو - بونتي؟

ك. ل. ش: لقد عرفته جيداً فيما بعد، لذلك امّحت الذكريات الأقدم.

د. إ: بالعودة إلى الخلف، هل يبدو لك هذا اللقاء خلال الأسابيع الثلاثة غريباً ومنذراً؟

ك. ل. ش: يبدو لي ذلك بشكل خاص بعيداً، وأقرب إلى الخيال.

د. إ: ألم تصبح أبداً صديقاً لسيمون دو بوفوار؟

ك. ل. ش: أبداً. لكن ليس بدافع عدائي.

د. إ: لم تتفاهما؟

ك. ل. ش: ليس هذا أيضاً. فهي وسارتر أصبحا شهيرين

سريعاً. كانا يحتلان مكانة أعلى مني في الحياة الثقافية. كانا مُجلّيين، ولم يكونا بحاجة إلي.. وعندما قَدِمتْ مارغريت ميد إلى باريس عام 1949 كما أعتقد، جازفت بجمع «السيدة الأولى» للحياة الثقافية الأمريكية مع «السيدة الأولى» للحياة الثقافية الفرنسية. فقد أقمت استقبالاً صغيراً على شرفها. لكنهما لم تتبادلا الكلام!

د. إ: ربما بسبب حاجز اللغة؟

ك. ل. ش: ربما. لقد بقيت كل منهما في ركن من الغرفة محاطة بحاشيتها.

د. إ: لقد قمتما بدورة الأستاذية في الوقت نفسه. لكنها اجتازت المسابقة عام 1929 كما تقول في مذكراتها. أما أنت فاجتزتها عام 1931.

ك. ل. ش: إن إجازة الحقوق تتطلب سنة إضافية. كما أنني كنت أعمل لدعم ميزانية العائلة. ومع ذلك اجتزتها قبل الثالثة والعشرين من عمري.

عندما عرفت نتيجتي، سارعت في سيارة أجرة لأزف لوالدي هذا الخبر الكبير. لكني صدمت بجوّ من الحزن يخيم على المنزل، كان في المنزل العم الوحيد الباقي على قيد الحياة من أعمامي. إن اليسر الكبير الذي تمتع به من خلال عمله في البورصة أتاح له، منذ زمن طويل، إعالة أمه وسند والدي في الأوقات العصيبة. وكان بصدد إخبارهما إن الأزمة أفلسته تماماً. وهكذا عرفت، في وقت واحد تقريباً، أن لديّ «وظيفة» وأن المصير المادي لوالدي سيكون من الآن فصاعداً همّاً دائماً.

د. إ: بعد الأستاذية، تم تعيينك في مون - دو - مارسان.

ك. ل. ش: ليس مباشرة. في البدء أديت الخدمة العسكرية. في ستراسبوغ لمدة 4 أشهر، ثم (بفضل صداقات سياسية) في وزارة الحربية، مع بضعة مجندين من بينهم بول غادين.

د. إ: هل اقمتما علاقة جيدة؟

ك. ل. ش: لا، كان صبياً دمثاً جداً لكنه متحفظ وقليل الميل لإنشاء علاقات مع الناس.

د. إ: ما مهمتكم في وزارة الحربية؟

ك. ل. ش: الخدمة الصحفية للوزير: نقرأ الجرائد ونقص منها ما يمكن أن يهمه. بالإضافة لذلك، كان الديوان يلقي على عاتقنا البريد الذي يعتبره قليل الأهمية.

د. إ: في ذلك الوقت تخليت عن اي نشاط سياسي.

ك. ل. ش: بالتأكيد. لم يكن ذلك محبّذاً. كنا إذا صادف أحدنا الجنرال ويغان في أحد الممرات دون أن يقف باستعداد يتم إرساله إلى موقع عسكري..

د. إ: ما الصورة التي احتفظت بها من تلك الفترة؟

ك. ل. ش: لم تترك ستراسبورغ ذكرى سيئة. كنت صف ضابط، لكني عرفت هناك أشخاصا ظرفاء للغاية كما تعرفت إلى أقرباء كانوا يحشون جيوبي بالمأكولات. أما في باريس فلم يكن ثمة الكثير من العمل، ووجود شخص واحد منا يكفي للقيام به.

د. إ: تم تعيينك بعد الخدمة العسكرية أستاذاً في ثانوية مون – دو – مارسان.

ك. ل. ش: لقد خُيّرت بين أوبيسون ومون - دو - مارسان، فاخترت هذه الأخيرة. وقد تزوجت عشية الرحيل إليها. وهكذا كان شهر العسل ووظيفتي الأولى في الوقت نفسه.

د. إ: واستقررتما هناك؟

ك. ل. ش: تسلمت وظيفتي في الأول من تشرين الأول / أكتوبر عام 1932. وتورطت بسرعة في السياسية المحلية. حيث ترشحت للانتخابات البلدية. وانتهت المسألة بسرعة بسبب تعرضي لحادث سير. فقد كنت أقود دون رخصة سيارة مستعملة اشتراها بيير دريفوس (وهو صديق طفولة ورفيق في الحزب الاشتراكي أصبح فيما بعد مديراً عاماً لمؤسسة رينو ثم وزيراً للصناعة في عهد فرانسوا ميتران) وجاء فيها إلى مون- دو- مارسان، ثم انطلقنا معاً للقيام بالحملة. وبعد ساعة رميت السيارة في الوادي. كان هذا اليوم هو الأول في الحملة، والأخير أيضاً بالطبع.

د. إ: كيف كانت سنة التدريس تلك؟

ك. ل. ش: جيدة جداً. هي السنة الأولى وقد استمتعت بالتدريس.

د. إ: هل كان التزامك السياسي يتدخل في اختيار المواضيع التي تدرّسها؟

ك. ل. ش: آه، لا! أبداً! كنت حيادياً في تدريسي، فالأمران

عندي مفصولان تماماً. لم يكن هدفي أبداً تغيير أفكار طلابي. وقد درّست المقرر فقط.

د. إ: هل احتفظت ببعض ذكريات هذه الإقامة اللاندية؟

ك. ل. ش: لقد احتفظت بذكريات الأوساط الاشتراكية أكثر من ذكريات الثانوية فالتجمعات السياسية تترافق غالباً باحتفالات تزخر بالأكلات اللذيذة. إنها الذكريات الأكثر دقة مما احتفظت به. وقد عادت إليّ ذكريات أخرى عندما انتخبت في الأكاديمية. فقد بحثت الصحيفة اللاندية الصغيرة عن تلاميذي القدامى ونشرت شهاداتهم، وقد كاتبني بعضهم.

د. إ: لم تبق إلا سنة في مون - دو - مارسان؟

ك. ل. ش: تم تعييني في لاون، وتم تعيين زوجتي (الحاصلة أيضاً على الأستاذية) في أميان. سكنّا عند أهلي في شارع بوسان، وكنا نجهد لحصر دروسنا في الجزء نفسه من الأسبوع.

د. إ: وبدأت تجد التدريس أقل إمتاعاً؟

ك. ل. ش: في السنة الثانية بدأت أضجر فعلاً. لقد تملكتني رغبة عارمة في التنقل ورؤية العالم.

د. إ: هل تابعت نشاطك السياسي، في لاون؟

ك. ل. ش: أقل من نشاطي في باريس، ذلك أني لم أُطل المقام فيها، رغم أنها مع قساوتها الشديدة لم تكن خالية من الجاذبية. فلكاتدرائيتها الضخمة مظهر أخّاذ.

د. إ: كما في مون - دو - مارسان، لم تبقَ في لاون إلا عاماً واحداً؟

ك. ل. ش: عاما وبضعة أشهر. فقد رحلت إلى البرازيل في بداية عام 1935.

د. إ: رويت في «المدارات الحزينة» رحيلك إلى البرازيل...

ك. ل. ش: نعم، أرسلني سيليستان بوغليه إلى جورج دوما، الذي كنت أعرفه لأنني تابعت دروسه في سانت - آن. وقد قبل أن يضمني إلى البعثة الجامعية التي يشكلها.

د. إ: هل كنت ما تزال على علاقة مع بوغليه؟

ك. ل. ش: إنه المشرف على بحثي في الدراسات العليا..

د. إ: ما موضوع هذا البحث؟

ك. ل. ش: عنوانه، حسب اعتقادي «المسلمات الفلسفية للمادية التاريخية»، وقد تناول ماركس من زاوية فلسفية.

د. إ: هل اخترت هذا الموضوع بنفسك؟

ك. ل. ش: بالتأكيد.

د. إ: هل كان شائعاً، في تلك المرحلة، اختيار رسائل دبلوم حول ماركس؟

ك. ل. ش: كان ذلك نادراً، لكنني مع ماركس اكتشفت عالماً، وكنت تحت تأثير هذا الكشف.

د. إ: ومن هنا أتت رغبتك باختياره موضوعاً للبحث؟

ك. ل. ش: سأعترف أنني كنت آنذاك أحلم بأن أصبح فيلسوف الحزب الاشتراكي.

د. إ: إذا أعدتَ التفكير بذلك اليوم، هل تجد ذلك مسلّياً؟

ك. ل. ش: لا، لا أستطيع القول إني أشعر بالسخرية تجاه ذلك. لقد كان الحزب الاشتراكي وسطاً حياً يمكن للمرء فيه أن يحسّ أنه داخل جلده. إن فكرة إقامة جسر بين التقليد الفلسفي العظيم أي ديكارت، ليبنيز، كانط، وفكر سياسي كالذي جسّده ماركس، هي فكرة مثيرة حقاً. وحتى اليوم أتفهّم أن حلمي كان مشروعاً.

د. إ: هل وافق بوغليه على بحثك دون تحفظ؟

ك. ل. ش: نعم، لكن كان ثمة اختبار شفهي حول موضوع محدد بالإضافة إلى البحث. وقد اختار بوغليه، كي يحقق نوعاً من التوازن، سؤالاً حول السان - سيمونية، الأمر الذي لم يكن بعيداً عن اهتماماتي، لكنه يوجهها باتجاه أكثر توافقاً مع توجهه الخاص.

د. إ: لماذا اخترت بوغليه للإشراف على عملك؟

ك. ل. ش: إنه - عملياً - الوحيد آنذاك الذي يقبل الإشراف على هذا النوع من المواضيع. لقد كان بمقدوري اختيار فوكونيه، لكنني كنت متمرداً على تبعيته الدوركهايمية. كان بوغليه مدير المدرسة العليا لإعداد المعلمين ولا ينظر بتعالٍ إلى من ليس من خريجيها، فقبل فوراً. وهذا يفسر لك لماذا أعلمته بعد الأستاذية برغبتي الكبيرة بالسفر إلى الخارج.

د. إ: الأنه يشغل مناصب رسمية في وزارة الخارجية؟

ك. ل. ش: كلا، بل لأنه إلى حدٍّ ما حامٍ لكل السوسيولوجيين الشباب.

د. إ: وهل أردت أن تصبح سوسيولوجياً؟

ك. ل. ش: أردت أن أصبح إثنولوجيا، ولم تكن الحدود بين السوسيولوجيا والإثنولوجيا صارمة بعد.

د. إ: هل أصبح شائعاً، في ذلك الوقت، أن يتجه الحاصلون على استاذية الفلسفة باتجاه فروع أخرى، باتجاه ما ندعوه اليوم «العلوم الإنسانية» كما سيتم غالباً بعد الحرب الثانية؟.

ك. ل. ش: بدأت هذه الظاهرة بالبروز على نطاق ضيق.

د. إ: لماذا قررت أن تصبح إثنولوجياً؟

ك. ل. ش: لنقل إنه اتفاق الظروف. فقد شغفت منذ طفولتي بالتحف الغريبة، وكنت أصرف ادخاراتي الصغيرة عند السقّاطين.

أضف إلى هذه الميول أننا -نحن الفلاسفة الشباب- بدأنا نعرف وجود فرع يسمى الإثنولوجيا، وأنه يطمح إلى الحصول على وضع قانوني رسمي. لم يكن ثمة كرسي للإثنولوجيا في الجامعات الفرنسية، لكن معهد الإثنولوجيا كان قد تأسس، وتحوّل المتحف القديم للإثنوغرافيا في تروكاديرو إلى متحف الإنسان. ومن هنا، بدأ التحرك باتجاه الإثنولوجيا. إن أول شخص حاصل على أستاذية الفلسفة يتحول إلى الإثنولوجيا هو جاك سوستيل.

وبناء على ذلك، قرأت كتاباً أو اثنين لإثنولوجيين

أنغلوساكسونيين، وبشكل خاص بحث السوسيولوجيا البدائية لروبرت لوي، الذي أسرني بامتزاج النظري فيه بالعمل الميداني. وهكذا لمحت وسيلة للتوفيق بين تأهيلي المهني وتوقي للمغامرة، فكم من «بعثة» قمت بها، في طفولتي ومراهقتي، إلى الريف الفرنسي، بل حتى إلى ضواحي باريس!

وأخيراً، فإن بول نيزان الذي التقيت به مرتين أو ثلاثاً في اجتماعات العائلة (كان متزوجاً من إحدى قريباتي) أخبرني عن شغفه بالإثنولوجيا وهذا ما شجعني.

د. إ: كيف كانت شخصية بول نيزان؟

ك. ل. ش: كان، حسب ذاكرتي، بارداً ومحترساً في الوسط البرجوازي الذي يغرقه زواجه فيه من وقت لآخر. لقد قرأت له «عدن - العربية» وأعجبني كثيراً.

د. إ: هل قرأت كتبه الأخرى؟

ك. ل. ش: نعم، فيما بعد، قرأت «أنطوان بلويه» و«كلاب الحراسة».

د. إ: من المفترض أن يؤثر كتاب مثل كلاب الحراسة تأثيراً كبيراً على فيلسوف شاب. هل تأثرت به؟

ك. ل. ش: نعم، من حيث أنه يدخل في إطار نقد ماركسي لفلسفة المؤسسة. لكني أحترم الأساتذة الذين هاجمهم بضراوة شديدة. فكلانا تتلمذ على يد الأساتذة عينهم، مع فارق عدة سنوات بطبيعة الحال. إني أحترم برونشفيتش ولابورت، وروبان..

د. إ: لماذا لم تحاول معرفة نيزان بشكل أفضل؟ يبدو أن كثيراً من الأشياء تقربكما.

ك. ل. ش: هو الأكبر سناً، ولم يفعل شيئا لتشجيع علاقتنا. بالإضافة إلى أنني (معه كما مع غيره) كنت أشعر أنني لست في المستوى. فمثلاً، لم أكن أجرؤ على الدخول إلى الكوليج دو فرانس لمتابعة أي درس فيه. كنت أراه مكاناً جليلاً مخصصاً لمن هم أطول باعاً مني.



الفصل الثاني

الإثنولوجي في الميدان

د. إ: في شباط (فبراير) عام 1935، أقلك مركب من مارسيليا باتجاه ساوباولو. فقد حصلت على مركز في جامعة المدينة بفضل جورج دوما. ما هي روابط عالم النفس الكبير مع البرازيل؟

ك. ل. ش: كان تأثير فرنسا قوياً جداً في البرازيل منذ الكونتية. وكانت الفرنسية اللغة الثانية للمثقفين البرازيليين. لقد أقام جورج دوما عدة مرات هناك، وأنشأ علاقات مع الأرستقراطية المحلية خاصة في ساوباولو. وعندما أراد البرازيليون إنشاء جامعة في هذه المدينة، اتجهوا بشكل طبيعي إليه ليشكل بعثة فرنسية.

د. إ: متى أُنشئت هذه الجامعة؟

ك. ل. ش: قبل عام من مجيئي إليها. كنت من الدفعة الثانية.

د. إ: هل كان ثمة بعثات أخرى غير البعثة الفرنسية؟

ك. ل. ش: بعثة ايطالية، ضمت بشكل خاص إينغاريتي. ويجب

القول إن عدد الإيطاليين في ساوباولو كان ضخماً يقارب نصف عدد سكانها. هناك أيضاً بعض الأساتذة الألمان، إنما بصفة فردية، فهتلر كان في الحكم.

د. إ: كيف كان مناخ الجامعة عندما وصلت إليها؟

ك. ل. ش: أنشئت الجامعة من قبل كبار البرجوازيين في وقت كان فيه التوتر ما يزال محتدماً بين السلطة الباولية، والحكومة الفدرالية، إلى حد أنه أوشك أن يفتح الطريق أمام الانفصال. فأهالي ساوباولو يعتبرون أنفسهم الجزء الفعال من أمة تغط في سبات استعماري. ولقد قرر هؤلاء الأرستقراطيون البرجوازيون إنشاء هذه الجامعة لكي يرقوا بالشباب الباولي إلى مستوى الثقافة الأوروبية.

لكن طلاب هذه الجامعة كانوا -بشيء من المفارقة- ينتمون إلى الطبقات الدنيا لأن ثمة تفاوتاً واضح المعالم بين النخبة وكتلة المجتمع التي بقيت فقيرة وبفكر ريفي. كان هؤلاء الطلاب -وأغلبهم أشخاص انخرطوا من قبل في حياة مهنية- يخامرهم الشك في البرجوازيين مؤسسي الجامعة. وهكذا وجدنا أنفسنا بين معسكرين. فالطلاب يرون فينا أحيانا خدّاماً للطبقة المسيطرة على الرغم من اعتبارهم لنا أشخاصاً قيّمين.

د. إ: ألم تكونوا مع ذلك «كلاب حراسة للبرجوازية»؟

ك. ل. ش: لا، لكن كان ينبغي الانتباه لئلا نبدو كذلك.

د. إ: كيف كان سير الدروس؟

ك. ل. ش: كان الطلاب يمتلكون شهية جبارة للمعرفة. إضافة

إلى أنهم بمعنى ما يعرفون أكثر منا، لأنهم -كعصاميين- قرؤوا كل شيء بنهم كبير، إنما من أعمال متناقَلة بتوسطات عديدة. لم تكن مهمتنا تعليم أشياء يجهلونها، بقدر ما كانت تزويدهم بنظام فكري.

د. إ: اين كان موقع الجامعة؟

ك. ل. ش: في مركز المدينة، في أبنية قديمة ما زالت تنم عن المناخ الاستعماري. في حين أنها اليوم -وقد أصيبت كغيرها بالعملقة- توجد في صروح من نمط جامعتي جوسيو أو نانتير، وسط حرم واسع أجرد.

د. إ: كم كان عدد طلابها؟

ك. ل. ش: عدة دستات.

د. إ: هذا كثير.

ك. ل. ش: آه، نعم! إنهم كل الشباب الباولي أو على الأقل الذين يمتلكون منهم الحد الأدنى من الإمكانيات. وكان زملائي مدرسو الأدب الفرنسي يستقبلون حضوراً آخرين، لأن نخبة المجتمع تأتي لسماعهم.

د. إ: أنت نفسك، هل قمت بتدريس السوسيولوجيا؟

ك. ل. ش: هكذا سمّي الكرسي.

د. إ: لكنّ السوسيولوجيا والإثنولوجيا لم تكونا مفصولتين تماماً، لذلك ربما امكنك تدريس الإثنولوجيا؟

ك. ل. ش: لا تنسَ أن البرجوازية البرازيلية تمتلك تقليداً

فكرياً عميقاً يمتد حتى أوغست كونت. الذي أثّر تأثيراً ضخماً على برازيل القرن التاسع عشر، لدرجة أن عَلم البرازيل يحمل عبارته «Ordem.e Progresso»

د. إ: هل كان تأثير أوغست كونت ما يزال ملحوظاً؟

ك. ل. ش: في تلك الحقبة، استمر وجود تيارات وضعية شديدة الحيوية. لكن البرازيليين المثقفين انتقلوا من كونت إلى دوركهايم، الذي مثّل لهم وضعية محدثة. وبالتالي فالسوسيولوجيا هي ما أرادوه.

د. إ: الأمر الذي ربما أزعجك قليلاً.

ك. ل. ش: لقد رحلت إلى البرازيل لأني أردت أن أصبح إثنولوجيا. فقد أسرتني إثنولوجيا متمردة على دوركهايم الذي لم يكن ميدانياً، واكتشفت الإثنولوجيا الميدانية عبر الإنكليز والأمريكيين.

لم أكن إذاً في المكان الصحيح. فقد تم استدعائي كي أعمق التأثير الفرنسي من جهة، والتقليد الكونت - دوركهايمي من جهة ثانية. ووصلت مأسوراً في ذلك الوقت بإثنولوجيا ذات روح أنغلوساكسونية. وهذا ما خلق لي مصاعب جدية.

د. إ: مصاعب من أي نوع؟

ك. ل. ش: وضع جورج دوما في الجامعة -منذ السنة الأولى- قريباً شاباً، وهو سوسيولوجي. وعندما وصلت بدوري سوسيولوجياً ثانياً، إذا أمكن القول، أراد أن أصبح تابعاً له. وقد قاومت ذلك فجهد لطردي باسم التقليد الكونتي الذي كان مختصاً به والذي انتهكته. وقد أعاره أرباب الجامعة (وهم أنفسهم أصحاب الصحيفة الكبرى

O Estado de Sao Paulo) آذاناً صاغية. وأنا أدين ببقائي آنذاك لتضامن مجموعة من الزملاء الميتين حالياً: بيير مونبيغ وفرناند بروديل الذي دعمني بما يتمتع به من نفوذ. وقد ذكرت ذلك عام 1985 في خطابي أثناء حفل تسليمه سيف الأكاديمية[5].

د. إ: بقيت في البرازيل، لكنك لم تبدأ على الفور ببعثة إلى الهنود؟

ك. ل. ش: منذ نهاية السنة الأولى، وعوضاً عن العودة إلى فرنسا، ذهبنا -أنا وزوجتي- إلى الكاديفيو والبورورو[6]. وقبل ذلك، بدأت مع طلابي بإجراء دراسات إثنولوجية حول مدينة ساوباولو نفسها وحول فولكلور الضواحي. الذي اهتمت به زوجتي بشكل خاص.

د. إ: هل بقي شيء من هذه الأعمال؟

ك. ل. ش: ربما بقيت تحقيقات كلّفت بها طلابي. ومنذ عدة أيام شاهدت، مدهوشاً، بداية فيلم وثائقي صورناه في احتفال ريفي. وقد عرضه البرازيليون في بوبورغ مع ما تبقى من وثائقي المصورة للكاديفيو والبورورو.

د. إ: ما انطباعك وأنت تقوم بتجربتك الميدانية الأولى؟

ك. ل. ش: كنت في حالة إثارة فكرية شديدة. وشعرت بأنني أعيش من جديد مغامرات أوائل مسافري القرن السادس عشر. كنت أكتشف العالم الجديد. وبدا لي شيئاً خارقاً: المناظر، الحيوانات، النباتات...

د. إ: إذاً، قضيت عدة أشهر ميدانية ثم سنة تدريس..

ك. ل. ش: ثم عدنا إلى فرنسا لقضاء العطلة التالية. في صيف 1936 - 1937 الذي يوافق الشتاء عندنا.

د. إ: وحينئذ نظمتما معرضكما الأول، في متحف الإنسان؟

ك. ل. ش: ليس في متحف الإنسان بالتحديد، لأن التروكاديرو القديم كان يرمم استعداداً لمعرض 1937، ولم تكن الأعمال فيه قد انتهت بعد. لكنّ جورج - هنري ريفيير (وكان هذا لقائي الأول به) حصل على موافقة معرض مفروشات فيلدنشتاين (على تقاطع شارعي فوبورغ - سان - هونوريه ولابويتي). لإعارتنا مقرّه.

د. إ: ما الذي احتوته المجموعة التي جلبتماها؟

ك. ل. ش: إنها مجموعة إثنولوجية جيدة وأستطيع أن أقول ذلك الآن بعد أن توفرت لي معايير للمقارنة. جلبنا من الكاديفيو خزفيات ملونة وجلوداً رسمت عليها عناصر تزيينية Motifs فريدة لا توجد إلا هناك في أمريكا. أما تحف البورورو فقد ضمت تزيينات بريش وأسنان وأظافر الحيوانات، فالبورورو يزينون بغنى حتى أسلحة صيدهم وأدواتهم المنزلية. لقد احتوت على قطع مميزة جداً.

د. إ: كيف استُقبل المعرض؟

ك. ل. ش: لم ينل النجاح المؤمل. لكني أعتقد أنه لفت النظر مع ذلك.

د. إ: وأصبحت صديقاً لجورج - هنري ريفيير.

ك. ل. ش: ليس في تلك الفترة، فقد عدت إلى البرازيل حالما انتهت العطلة. وعندما رجعت إلى فرنسا ثانية وجدت بانتظاري

التجنيد والحرب... وبعد ذلك رحلت إلى الولايات المتحدة. ولم أقم روابط مع ريفيير إلا في 1949 – 1950.

د. إ: هل عاودت التدريس عندما عدت إلى البرازيل بعد عطلة شتاء 1936 – 1937؟

ك. ل. ش: كان يجب أن أثبت جدارتي كإثنولوجي، لأنني لم أتلق أي تأهيل من قبل. وقد حصلت بفضل معرض عام 1936 على قروض من متحف الإنسان والبحث العلمي مكنتني من القيام ببعثة إلى النامبيكوارا.

د. إ: إنها بعثة استمرت أكثر من عام.

ك. ل. ش: لم أعد إلى فرنسا إلا بداية عام 1939.

د. إ: يلزم الكثير من الشجاعة والصحة الجسدية للصمود أثناء البعثات. وقد رويت في «المدارات الحزينة» نزهات في أماكن مستحيلة وعبور أنهار ورحلات بالنقيرة(*).

ك. ل. ش: كل إنسان يمتلك هذه القدرة على التحمل عندما يكون شاباً.

د. إ: لكن عند قراءة أعمالك تكوّن لدي مباشرة انطباع بأنك تمتلك مقاومة خاصة.

ك. ل. ش: لا أعتقد ذلك. لكنني كنت في البعثات محمياً -كما هو الحال غالباً في كل حياتي- نتيجة نقص في المخيلة.

(*) النقيرة: قارب صغير مصنوع من جذوع الأشجار. –المترجم–

د. إ: تقصد عدم وعي الخطر؟

ك. ل. ش: بالضبط.

د. إ: مع ذلك، يبدو لي أنك في بعض اللحظات شعرت بالخوف.

ك. ل. ش: إنني أخاف عندما أعود بذاكرتي إلى الوراء، أما في اللحظة نفسها فلا أعير الأمر اهتماماً. على أية حال يجب ألا نبالغ: فأنا لا أعتقد أنني جازفت كثيراً بحياتي.



د. إ: تعرفتَ، في البرازيل، كما قلت قبل قليل، على فرناند بروديل.

ك. ل. ش: نعم، لقد أتى بعد سنة من مجيئي.

د. إ: هل التقيت به منذ وصوله؟

ك. ل. ش: بالطبع، فالأساتذة الفرنسيون يشكلون رابطة صغيرة.

د. إ: كيف تم هذا اللقاء؟

ك. ل. ش: كان بروديل واثقاً من نفسه ومن فرق العمر ومن وضعه الأعلى ضمن التراتبية الجامعية.

د. إ: لكنه لم يكن مشهوراً في ذلك الوقت؟

ك. ل. ش: كان سيصبح كذلك! كنا نعرف مسبقاً أن مستقبلاً

زاهراً ينتظره في التعليم العالي. فهو أكبر سناً وأكثر تقدماً منا في حياته المهنية وفي أطروحته. لم يكن قد كتبها بعد، لكنه عندما نقل موادها احتاج إلى غرفة إضافية في الفندق لترتيبها، قبل أن يستأجر منزلاً.

د. إ: لماذا قدم إلى البرازيل؟

ك. ل. ش: بالنسبة لشخص يهتم بالبحر الأبيض المتوسط وبالعالم الإيبيري، أتصور أن معرفة أمريكا اللاتينية التي تشكل إقليماً تابعاً لهما ليست دون فائدة.

د. إ: يبدو ان علاقتكما كانت محدودة!

ك. ل. ش: كان يعاملنا بشيء من التعالي. ولم يتوقف عن ذلك إلا عندما تعرضت للمشاكل التي ذكرتها منذ قليل، حيث وضع كل ثقله في الميزان من أجلي.

د. إ: هل كنت تتحدث عن أعمالك الخاصة؟

ك. ل. ش: لقد قلت لك إن المدرسين شكلوا مجموعة صغيرة. لكن يجب أن أضيف أنها كانت مجموعة متنابذة. فقد تولّد لدى كل منا شعور بأن حياته المهنية متوقفة على نجاحه أو فشله في البرازيل. ولذلك كان يحاول أن يحيط نفسه بحاشية تابعة له حصراً وأكثر أهمية من حاشية جاره. إن هذا العرف «فرنسي» جداً وجامعي «جداً»، لكنه -بنقله إلى جنوب المدارين- مخجل إلى حد ما، وغير صحي على الإطلاق.

د. إ: وإنغاريتي، هل تعرّفت عليه؟

ك. ل. ش: قليلاً. فما كان يجري داخل كل بعثة جامعية ينطبق أيضاً وعلى نطاق أوسع على العلاقة بين البعثات. فهي تشعر بالتنافس وتتعامل مع بعضها بريبة.

د. إ: تركت البرازيل عام 1939؟

ك. ل. ش: في بداية السنة. فقد أردت العودة إلى فرنسا مع مواد البعثة بغية استعادة الحياة الجامعية وتحضير أطروحة...

د. إ: ولم تعد إلى البرازيل أبداً؟

ك. ل. ش: حتى عام 1985 ...

د. إ: قبل أن تعاود زيارة البرازيل، ألم تشعر ببعض الحنين لهذا البلد الذي أحببته حباً جمّاً؟

ك. ل. ش: بالتأكيد. لكني كنت أعرف أن كل شيء هناك يتغير بسرعة هائلة لدرجة أنني إذا ذهبت إليه، فلن أفعل سوى البكاء على ماضيّ. وبالفعل، هذا ما حدث عندما رأيت البرازيل مرة أخرى بعد نصف قرن.

د. إ: هل كتبت مقالات خلال إقامتك في البرازيل بين عامي 1935 و 1939؟

ك. ل. ش: كتبت مقالاً طويلاً حول البورورو نشر في جريدة مجتمع الأمريكيون(*). كما كتبت مقالات عديدة أخرى لا أهمية لها نشرت في مجلات مختلفة.

(*) أمريكوي: المختص بالدراسات المتعلقة بالأمريكتين (على نمط مستشرق). وقد ابتعدت عن مصطلح (متأمرك) لارتباطه بمعان أخرى. –المترجم–

د. إ: ألم تمتلك توقاً لتأليف كتاب انطلاقاً من تجاريك الميدانية؟

ك. ل. ش: في ذلك الوقت تملكني شعور بأنني غير قادر على تأليف كتاب.

د. إ: على أية حال، عندما عدت إلى فرنسا كنت قد نشرت عدة مقالات.

ك. ل. ش: لكنها ضئيلة الأهمية باستثناء المقالة حول البورورو. إنها مقالات صحفية أكثر مما هي إثنولوجية.

د. إ: هل لفتت هذه المقالات الأنظار؟

ك. ل. ش: لقد استطعت الذهاب إلى الولايات المتحدة بفضل مقالتي حول البورورو. فقد استرعت انتباه ألفريد ميترو وروبرت لوي اللذين لعبا دوراً حاسماً في ذلك.

د. إ: في الواقع، لقد لاقيتَ صدى طيباً منذ عملك الأول.

ك. ل. ش: نعم، لكن الفضل في ذلك يعود إلى توافق الظروف أكثر مما يعود لفضلي المتواضع: فقد بدأ الإثنولوجيون الأمريكيون يفكرون بالالتفات إلى نصف الكرة الجنوبي، بعد أن أكملوا طوافهم مع هنود أمريكا الشمالية. وجاء عملي في الوقت المناسب تماماً.

د. إ: ألم يكن لديك موطئ قدم جامعي عندما عدت إلى فرنسا؟

ك. ل. ش: كنت ما أزال منتدباً، وقد طلبت مركزاً من أجل بداية العام الدراسي.

د. إ: ألم ترغب في الحصول على مركز في الحال؟

ك. ل. ش: كان عليّ أن أرتب مجموعاتي في متحف الإنسان، وأن أكتب بطاقة لكل تحفة منها، وهذا عمل طويل ودقيق.

د. إ: كيف كانت هذه المجموعات؟

ك. ل. ش: كثيرة، لكنها أقل تميزاً من سابقتها، كما أن المعرض لم يقم. فبينما كنت أصنفها وأحللها اندلعت الحرب. وفي هذا الوقت أيضاً انفصلنا أنا وزوجتي الأولى دينا.

الفصل الثالث

البوهيمية في نيويورك

د. إ: تم تجنيدك أثناء التعبئة للحرب.

ك. ل. ش: أجل. ولقد أنهيت خدمتي العسكرية في قطار لشحن المعدات! تم فرزي بداية إلى وزارة البريد، مصلحة رقابة البرقيات. حيث قضيت فيها عدة أشهر، لكني ضجرت فطلبت أن أصبح عامل ارتباط مع الحملة البريطانية. تم إرسالي في البداية إلى مدرسة عناصر الارتباط في مكان ما من السوم. خضعت لعدة امتحانات. ورغم أن لغتي الإنكليزية ضعيفة، فقد تدبرت أمري، وهكذا أُرسلت إلى الجبهة اللوكسومبورغية خلف خط ماجينو، في منطقة ليس فيها إنكليز، لكن مجيئهم محتمل. كنا هناك أنا وثلاثة أو أربعة عناصر آخرين لاستقبالهم إذا أتوا. لم يكن لدينا أي عمل، فكنت أتنزه في الريف طوال الوقت. أخيراً، عندما بدأ الهجوم الألماني، وصل فوج اسكتلندي لديه عناصر ارتباط تابعين له. وعندما تلقوا أوامر بالمسير طردونا بتهذيب لأن وجود عدد مضاعف منا قد يعيقهم. الأمر الذي ربما أنقذ حياتنا، فقد أبيد ذلك الفوج بعد عدة أيام.

بقينا وحدنا، فذهبنا للبحث عن قطعتنا العسكرية، ووجدناها أخيراً في إحدى قرى السارث. كان الألمان يتقدمون، لذلك حُمّلنا جميعنا في قطار باتجاه بوردو. وسار هذا القطار عبر فرنسا. بخط متعرج، بسبب صراع عرفته فيما بعد: يبدو أن قائد القطعة أراد الانصياع للأوامر ولو سلّم قطعته للألمان الذين وصلوا إلى بوردو. لكن ضباطه عارضوه في ذلك. ولهذا كان هذا المسار العمائي للقطار. وفي النهاية توقفنا في بيزيه.

د. إ: إذاً، لم تشترك في أية معركة؟

ك. ل. ش: كلا، باستثناء تحطم القرميد فوق رأسي بقذائف رشاشة من طائرة، أما أنا فلم أصب بأذى.

د. إ: ماذا فعلتم عند وصولكم إلى بيزيه؟

ك. ل. ش: عسكرنا على هضبة لارزاك. وهناك كنت كما لو أنني في بيتي. فأهلي يملكون منزلاً صغيراً في السيقين منذ عشر سنوات. فيما بعد، نزلنا في مونبوليه، ثم انهزمنا.

د. إ: وهناك، ماذا حدث؟

ك. ل. ش: قفزت عن حاجز الثكنة، وذهبت إلى الإدارة التربوية عارضا خدماتي في حال احتاجوا إليّ في مادة الفلسفة، فامتحانات البكالوريا ابتدأت ... وهكذا وصلت في الوقت المناسب، فقد سرّحت موفراً عناء أيام أخرى من الخدمة.

د. إ: وبقيت في مونبوليه؟

ك. ل. ش: كلا، انضممت إلى والديّ اللاجئين إلى منزلهما في

السيقين. وهناك، تلقيت رسائل من الولايات المتحدة تدعوني للاستفادة من مخطط إنقاذ العلماء الأوروبيين الذي نظمته مؤسسة روكفلر. قبل ذلك، في أيلول 1940، ذهبت بسذاجة كلية إلى فيشي كي أطلب استلام وظيفتي في ثانوية هنري الرابع حيث تم تعييني. كانت وزارة التعليم العامة تشغل إحدى المدارس. استقبلني مدير التعليم الثانوي في قاعة صف اتخذها مكتباً له. وقال لي إنه -بالاسم الذي أحمله- لا يمكن أن يرسلني إلى باريس.

د. إ: عندما ننظر إلى الوراء، تبدو سيرتك مدهشة. هل تكون الحالة اقل وضوحاً عندما يعيشها المرء؟

ك. ل. ش: سبق أن قلت لك إن المخيلة تنقصني دائماً، وهذا ما ساعدني خلال بعثاتي: فلم أكن أقيم اعتباراً للخطر. وهنا الأمر مماثل. لربما كان قدري قد تحدد في ذلك الوقت.

د. إ: إذاً، لم تكن خطورة وضع اليهود معروفة بعد؟

ك. ل. ش: إلا من البعض، وعلى الأقل من الموظف الكبير الذي استقبلني. لقد أردت العودة إلى باريس كي أقوم -ببساطة- بواجباتي الوظيفية.

د. إ: وبماذا نصحك ذلك الموظف الذي منعك من الذهاب إلى باريس؟

ك. ل. ش: أن أعود إلى السيقين ريثما أتلقى تعييناً آخر. وبالفعل، بعد بضعة أيام، تمّ تعييني أستاذاً في إعدادية بيربينيان (هي اليوم ثانوية).

د. إ: وذهبت إليها؟

ك. ل. ش: بالتأكيد. ثم بدأت أفهم أن الأمور ليست على ما يرام فقد بدأ الحديث عن القوانين العرقية. وشكل موقف زملائي الجدد إشارة منذرة. فقد كانوا يتهربون من مناقشة هذا الموضوع معي. باستثناء أستاذ التربية البدنية، الذي حرص على أن يظهر لي ودّه: إنه مقاوم مقبل، دون شك. بعد حوالي خمسة عشر يوماً، تلقيت تعييناً جديداً في مونبولييه.. تسلمت صف فلسفة وصفاً مهنياً تشبه جلبته ضوضاء حفارة أنفاق، فالطلاب المرشحون لدخول البوليتكنيك، لم يبالوا إطلاقاً بساعَتَي الفلسفة المفروضتين عليهم أسبوعياً. ولم يكونوا يعيرونني أي انتباه. فرضخت للواقع وبدأت أشرح الدروس في اللغط...

د. إ: ... وكأنهم ليسوا موجودين؟

ك. ل. ش: ... بالضبط، لكن هذه اللعبة الصغيرة لم تدم سوى ثلاثة أسابيع، فقد أصابتني القوانين العرقية وعُزلت فرجعت إلى السيقين.

د. إ: كيف تم العزل؟

ك. ل. ش:عبر رسالة. وكان يحق لنا قبض راتب لمدة تتناسب مع سنوات الخدمة. وهذا ما أعال -والديّ بعد رحيلي إلى الولايات المتحدة-.

قصارى القول، هاأنذا في السيقين حيث تمت المراسلة مع الولايات المتحدة.

د. إ: هل قمت باتصالات مع الإثنولوجيين الأمريكيين قبل ذلك؟

ك. ل. ش: نعم، مع ألفريد ميترو وهو سويسري استقر في الولايات المتحدة، ومع روبرت لوي الذي اهتم بعملي حول البورورو. من ناحية أخرى، كانت إحدى خالاتي (وهي أرملة هنري كارو - دولفاي) في الولايات المتحدة وبذلت أقصى طاقتها. وهكذا، وبفضل جهود كل هؤلاء تلقيت دعوة من «المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي».

د. إ: ما هي هذه المؤسسة؟

ك. ل. ش: إنها مؤسسة يسارية -إذا كان لهذا التصنيف من معنى في الولايات المتحدة آنذاك- أصبحت بشكل ما جامعة للراشدين يؤمها الناس مساءً لإكمال تأهيلهم. فمنذ وصول الفاشيين إلى السلطة في إيطاليا، ثم النازيين في ألمانيا، وضعت مؤسسة روكفلر مخططاً لإنقاذ رجال الفكر المهددين. وقد وسعته في ذلك الوقت باتجاه فرنسا. وكانت «المدرسة الجديدة» تخدم كمركز استقبال ومحطة فرز لمنح القادمين الجدد الوقت الكافي للانخراط في مؤسسات أخرى. لكن البعض كان يفضل البقاء فيها.

د. إ: هل قررت الذهاب فور تلقيك الدعوة؟

ك. ل. ش: قررت ذلك بعد إخفاقي في العودة إلى البرازيل. وقد رويت في «المدارات الحزينة» كيف أن أحد مستشاري السفير منعه من منحي تأشيرة بعد أن كان راغباً بذلك.

د. إ: لماذا كنت تفضل البرازيل؟

ك. ل. ش: لم أكن أفضل ذلك! كان هذا قبل تلقّي الدعوة من الولايات المتحدة.

د. إ: هل حصلت بسهولة على تأشيرة الدخول؟

ك. ل. ش: ليس ثمة ما هو أعقد من الهجرة إلى الولايات المتحدة. حيث يجب إنجاز كمّ كبير من المعاملات: يجب أن تثبت أنك صاحب مهنة، وأن تقدّم مؤسسة ما دليلاً على أنك ستذهب فعلاً للعمل فيها ويجب أيضاً إيجاد شخص مستعد لدفع كفالة كبيرة جداً.

د. إ: ومن دفع لك هذه الكفالة؟

ك. ل. ش: إحدى الثريات الأمريكيات، وهي صديقة خالتي.

د. إ: وقبل هذه المعاملات؟

ك. ل. ش: يجب الحصول على تأشيرة خروج من السلطات الفرنسية. لكن، على هذا الصعيد، ما من مشكلة: فقد كانوا -على العكس- سعيدين بالتخلص من أشخاص يعتبرون في وضع شائك، أما الأهم فهو إيجاد مركب.

د. إ: ...وعلى هذا المركب...

ك. ل. ش: اسمه الكابيتين بول - لوميرل. وكان على متنه: آنّا سيغير وأندريه بروتون وفيكتور سيرج...

د. إ: هل تعرفت عليهم خلال السفر؟

ك. ل. ش: تدريجياً. كنت أجهل وجود أندريه بروتون على متن المركب، وعرفت ذلك مصادفةً. فأثناء رسوّه في المغرب، لم يسمح إلا

للفرنسيين بالنزول إلى البر، وبينما كنت في الطابور لإبراز جواز سفري سمعته أمامي بالضبط يقول اسمه.

د. إ: كان مشهوراً جداً آنذاك.

ك. ل. ش: نعم، تخيل إذاً الصدمة التي شعرت بها. قدمت نفسي إليه وتعاطفنا.

د. إ: هل كان ودوداً؟

ك. ل. ش: لا. ليس هذا بالضبط. إنه بالتأكيد دمث للغاية لكنه بمنتهى التكلف.

د. إ: حتى وهو في تلك الحالة؟

ك. ل. ش: نعم، كان دائماً ذا مظهر رزين.

د. إ: وفيكتور سيرج؟

ك. ل. ش: لقد ثرثرنا قليلاً، لكن لا أستطيع القول إننا أصبحنا أصدقاء. منذ عدة سنوات، رأيت في المكسيك ابنه الذي كان على المركب طفلاً.

د. إ: كان مركبا ذا مكانة!

ك. ل. ش: كان على متنه أيضاً أشخاص آخرون أصبحوا شهيرين فيما بعد. لقد رويت في «المدارات الحزينة» كيف تمّ حشر المسافرين في العنابر. أما أنا فقد كرموني بمنحي سريراً في إحدى القمرتين اليتيمتين باعتباري زبوناً قديماً للشركة خلال رحلاتي إلى البرازيل. شغل السرير الآخر شخص غريب قال إنه تونسي، وقد

أظهر لي ذات يوم لوحة لديغا يحملها في حقيبته. كان يتمتع بتسهيلات مميزة، فهو يروح ويجيء كما يشاء، ولم يكن يشكل له النزول من السفينة أثناء رسوها أية مشكلة. تذكرت اسمه: صماجه. لقد حيّرني. وفيما بعد، عندما مات مؤسس جريدة «كومبا»(*) ونشرت الصحف صوره عرفته. ربما كان آنذاك بمهمة سرية أجهل لصالح من.

د. إ: في ذلك الوقت أيضاً تعرفت على سوستيل.

ك. ل. ش: إنني أعرفه منذ عام 1936 عندما جلبت أول مجموعات من البرازيل. فبعد مغادرة المارتينيك ووصولي إلى بورتوريكو على متن قارب سويدي، افترضَت السلطات الأمريكية أن أوراقي ليست نظامية. وتم وضعي تحت المراقبة في نزل قذر على نفقة الشركة الملاحية. وأثناء ذلك. وفي هذه الحالة المثيرة للحنق، وصل سوستيل إلى بورتوريكو كمبعوث للجنرال دوغول لاستمالة المستعمرة الفرنسية. حصلت على موافقة حراسي فقادوني إليه. وقد شرح للأمريكيين بتهذيب بالغ أنني لست جاسوساً. ثم انتظرت بسلام إرسال وثائقي المطلوبة وذهبت إلى نيويورك على متن مركب نظامي.

د. إ: ذكرتَ إقامتك في نيويورك، في نص أُعيد نشره في «النظرة البعيدة»[7].

ك. ل. ش: في شقة صغيرة في غرينويتش فيلاج، في الزقاق الحادي عشر عند ركن الشارع السادس تقريبا. وقد عرفت فيما بعد

(*) كومبا: المعركة: جريدة يومية فرنسية تأسست سراً في باريس عام 1944. من بين المشاركين فيها: بيا، كامو، آرون، أوليفييه، بورديه (الذي تركها عام 1950 ليؤسس الأوبسيرفاتوار) وأدارها منذ عام 1953 «صماجه».

أن كلود شانون مؤسس السيبرنيتيك كان يسكن آنذاك في المبنى نفسه.

د. إ: ولم تلتق به أبداً؟

ك. ل. ش: أبداً. ذات يوم، قالت لي لاجئة بلجيكية مستأجرة أيضاً في المبنى نفسه -وكانت ما تزال موجودة فيه حتى عام 1972 حين ذهبت لرؤيتها ثانية- قالت لي إن أحد جيراننا يقوم «بصناعة عقل صناعي» وقد عرفت بعد عدة سنوات أنها كانت تقصد شانون.

د. إ: إنه من المؤسف حقاً أنك لم تتعرف عليه.

ك. ل. ش: إنه أمر مؤسف فعلاً. لكن، في ذلك الوقت، لم أكن سأفهم...

د. إ: هل تحسنت لغتك الإنكليزية؟ لإعطاء دروس...

ك. ل. ش: ... كلا، بقيت ضعيفة، لكني وصلت في الربيع بعد انتهاء العام الدراسي. ذهبت لتقديم نفسي في «المدرسة الجديدة»، فقيل لي مباشرة «ليس من الوارد أن يبقى اسمك ليڤي - شتراوس. هنا سيصبح اسمك كلود ل. شتراوس» سألت عن السبب فأجابوا: «سيجد الطلاب ذلك مضحكاً» بسبب الـ blue-jeans(*) وهكذا عشت في الولايات المتحدة عدة سنوات بكنية مشوهة.

منذ ذلك الوقت، لم يتوقف هذا التشابه التعيس في الأسماء عن إخجالي، وكان كالشبح! فلم تمضِ سنة دون أن أتلقى (من إفريقيا بشكل عام) طلباً على سراويل جينز. حوالي عام 1950. جاءني شخص

(*) شركة ضخمة لإنتاج الجينز.

قدّم نفسه تاجر أقمشة، اكتشف اسمي في دليل الهاتف السنوي، وعرض عليّ أن أجعل منه علامة تجارية لمعمل سراويل قيد الإنشاء. فرفضت محتجاً بوضعي غير المناسب لهذا النوع من المنشآت وأنا الجامعي والباحث فقال لي: لا داعي للقلق لأن المشروع لن يرى النور أبداً، ويكفي الحديث عنه فقط «فبدل أن تفقد الشركة الأصلية حصرية اسمها ستغمرنا بالذهب كي لا نقيمه، ولن يكون علينا سوى قسمة المال» وقد رفضت بتهذيب.

منذ عدة سنوات كنت في بركلي بدعوة من الجامعة. وذات مساء، رغبنا أنا وزوجتي بالعشاء في مطعم لم نكن قد حجزنا فيه مسبقاً. وكان ثمة طابور من المنتظرين، استعلم نادل عن اسمنا كي ينادينا عندما يحين دورنا. وما كاد يسمعه حتى قذف بهذا السؤال[*]«the pants or the books?» إنها جملة ممتعة جداً بإيجازها، لذلك لا أترجمها.

يجب الثناء على ثقافة النوادل الكاليفورنيين، ففي باريس، عندما تشتري زوجتي من إحدى المحال تُسأل عن كنيتنا الشهيرة بسبب السراويل لا بسبب الكتب أبداً...

د. إ: وبعد هذا التغيير في الهوية؟

ك. ل. ش: تم إرسالي إلى المنزل مع إعانة شهرية. وقضيت ذلك الصيف في كتابة «الحياة العائلية والاجتماعية» للنامبيكوارا باللغة الإنكليزية كي أتعلمها...

د. إ: لم ينشر هذا النص فوراً.

(*) «السراويل أم الكتب؟» بالإنكليزية في النص الأصلي.

ك. ل. ش: لا، لقد نشر في فرنسا عام 1948. وشكّل أطروحتي التكميلية[8].

د. إ: منذ وصولك إلى نيويورك ترددت على الأوساط السريالية في المنفى.

ك. ل. ش: لقد بقيت صديقا لبروتون. وقد أدخلني في حلقة السرياليين التي عثر عليها لتوِّه.

د. إ: كنت جامعياً شاباً غير معروف. وكنت تتواصل مع مجموعة فنانين شهيرين. منهم بعض النجوم: بروتون، تانغي، دوشامب...

ك. ل. ش: وليونورا كارينغتون وماكس إرنست ودوروتيا تانينغ، ماتا، ويلفريدولام... كان ماسون وغالدير يسكنان في الريف. وقد ذهبت لزيارتهم في عطلة نهاية الأسبوع.

د. إ: هل تبادلت الود مع أفراد المجموعة؟

ك. ل. ش: بشكل متفاوت. لقد تبادلت الود سريعاً مع ماكس إرنست الذي بقيت الأقرب إليه. أما تانغي فيعجبني رسمه كثيراً، لكنه ليس شخصاً مريحاً. دوشامب لطيف جداً، ولفترة من الوقت أصبحنا -ماسون وأنا- صديقين حميمين. كما أقمت علاقة صداقة مع باتريك فالدبيرغ استمرت بعد الحرب.

د. إ: كانت بيغي غوغنهايم تعيل هذه المجموعة؟

ك. ل. ش: كانت تساعد هذا أو ذاك مادياً، لكن ماكس ارنست -زوجها- كان ميسوراً أكثر من الآخرين، وظل يعيش حياة بوهيمية في

غرونويتش فيلاج حتى افترقا. ذات يوم، هتف لي بروتون ليطلب مني مبلغاً صغيراً كي يعيد شراء إحدى تحفه الهندية من ماكس إرنست الذي أصبح مفلساً. وهذه التحفة التاريخية موجودة اليوم في متحف الإنسان.

د. إ: هل كان كل هذا العالم الصغير يعمل كـ«فريق»؟

ك. ل. ش: كنا نلتقي ونلعب كثيراً «لعبة الصراحة». ونكتشف معاً مطاعم نيويورك الغريبة.

د. إ: ليس من السهل لعب «لعبة الصراحة» مع أشخاص مثل بروتون!

ك. ل. ش: كان ثمة حذر من الدخلاء: أنا وبيير لازاريف الذي يأتي أحياناً ودونيس دو روجمون أيضاً.

د. إ: ما الذي ربطك بلازاريف؟

ك. ل. ش: كنا -بروتون ودوتوي وأنا -نعمل في الإذاعة لرفد مواردنا في قسم يديره لازاريف في دائرة المعلومات الحربية وهي برامج موجهة إلى فرنسا. لقد وجدنا أنفسنا بين أناس من أوساط مختلفة لا تلتقي في الخارج إلا عرضاً. وهنا ربطتني صداقة مع دولوري فانيتي التي أُغرم بها سارتر بعد عدة سنوات.

د. إ: ما الذي تضمنه عملك الإذاعي؟

ك. ل. ش: إن لدي خبرة قديمة في الإذاعة. فقد كانت إحدى نشاطاتي خلال سنوات دراستي، قراءة بيان المكتب الدولي للعمل، يومياً من إذاعة برج إيفل في أقبية القصر الكبير. ولهذا «رسمني»

أبي «مذيعا» في التزيينات الضخمة (30م على 5م) التي نفذها لجناح مدغشقر (البلد الذي لم يطأه أبداً) خلال معرض المستعمرات.

في نيويورك: كنا -بروتون ودوتوي ولوبيل وأنا- نتحاور بأربعة أصوات لقراءة النصوص الإخبارية والدعائية التي تخرج من مكتب لازاريف. وكانوا يعهدون إلي بخطابات روزفلت، لأن صوتي -كما يبدو- يمرر التشويشات بشكل أفضل.

د. إ: كيف حصلت على هذا العمل في الإذاعة؟

ك. ل. ش: بواسطة باتريك فالدبيرغ الذي سبق لي التحدث عنه. كان يعمل في الإذاعة أيضاً، وهو إضافة لذلك شاعر وناقد فني.. كتب عن ماكس إرنست ونشر كتباً جميلة حول حقبة 1900. أما في ذلك الوقت، فلم يكن أحد يتخيل أنه سيصبح -فيما بعد، في باريس- منسقاً في المعهد(*)! كان يشرب ويعيش منفلتاً دون قواعد ويتردد على الحانات الصغيرة في هارلم حيث كان يصحبني أحياناً.

د. إ: حسب نصك عن نيويورك، كانت إحدى نشاطاتك الرئيسية اقتناء التحف الفنية.

ك. ل. ش: لقد نبهنا ماكس إرنست، الشغف بالفن البدائي، إلى بائع عاديات ألماني اكتشفه في الشارع الثالث -الذي يختلف تماماً عما هو عليه الآن- وابتاع منه تحفة هندية، حيث لم يكن تداول هذه التحف شائعاً تجارياً آنذاك.لم نكن نملك الكثير من المال، فكنا إذا توفر مع أحدنا بضعة دولارات سارع لشراء التحفة المطلوبة... أو

(*) المعهد: معهد فرنسا، وهو مجموع خمس أكاديميات: الأكاديمية الفرنسية، وأكاديمية الآداب، وأكاديمية العلوم، وأكاديمية الفنون الجميلة وأكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية. -المترجم-

أخطر الآخرين إذا كان مفلساً. وعندما لمس التاجر طلباً على هذه التحف بدأ يجلب المزيد منها فازدادت عنده شيئاً فشيئاً. كانت هذه التحف تأتي في الواقع من متحف كبير يتخلص مما يفترض أنه يمتلك عدداً مضاعفاً منه، وأنا أستطيع اليوم قول ذلك لان هذه القصة نشرت سابقاً. وحالما عرف هذا التاجر أن هذه التحف رائجة تجارياً، قام بدور الوسيط بيننا وبين المتحف، وكم كان من الممكن إيجاد قطع مضاعفة!

د. إ: هل عرفتم ذلك آنذاك؟

ك. ل. ش: لقد عرفنا ذلك بسرعة. حتى أن التاجر قادنا - بالتواطؤ مع الحارس- إلى مخازن المتحف التي تشغل بناء معزولاً في ضاحية من ضواحي نيويورك. أصبحنا نختار ما نريد من التحف فتتبع في متجره بعد عدة أيام.

د. إ: ماذا حل بالتحف التي اشتريتها؟

ك. ل. ش: جلبتها إلى فرنسا. لكني وقعت في مشاكل شخصية، واضطررت لبيعها إلى دروو Dr00at عام 1950. وقد اشترى متحف الإنسان ومتحف «ليد» الكثير منها، كما اشترى بعضها أشخاص مميزون منهم لاكان ومالرو على ما أعتقد. ولم يبق لي منها سوى اثنتين أو ثلاث.

د. إ: هل استمرت علاقتك مع السرياليين بعد الحرب؟

ك. ل. ش: لا، باستثناء إرنست وبروتون وفالدبيرغ.

عاد بروتون إلى فرنسا قبلي، فقد تم إرسالي إلى نيويورك

كمستشار ثقافي عام 1945. وهكذا لم نلتق من جديد إلا بعد ثلاث سنوات. حيث كنا نذهب، بشكل طقسي، كل سبت إلى سوق الأشياء المستعملة مع العصابة الصغيرة من المخلصين له. كانت مرافقة بروتون في هذه المناسبة تمثل شرفاً عظيماً.

د. إ: ألم تعانِ علاقتكما شرخاً أبداً؟

ك. ل. ش: ثمة حادثة أتحمَّل مسؤوليتها البريئة. طُلب من بروتون كتابة عمل تحت عنوان: الفن السحري. ونقصه الإلهام، فطرح (كما يتم غالباً في مثل هذه الظروف) استمارة تلقيتها مع الآخرين. إنني من المعجبين ببروتون وبعينه المعصومة عن الخطأ أثناء ارتياد محال السقاطين: فهو لا يفلت أية تحفة أو يتردد في تقييمها. لكن كلمة «السحري» بالنسبة لي تمتلك تعريفاً محدداً مأخوذاً من المعجم الإثنوغرافي وأنا لا أحب «رشها على كل الصلصات». وبدلاً من معارضة بروتون حول المبادئ فضلت عدم الرد. لكنه عاد إلى طرح ذلك من جديد. كنت آنذاك في السيقين أقضي إجازتي مع ابني (من زواجي الثاني) وعمره حينذاك سبع سنوات. كانت الاستمارة مرفقة بمجموعة نسخ عن تحف فنية ينبغي تصنيفها في «أكثر أو أقل سحراً». وبالرغم من معارضتي لهذا المشروع بدا لي من المثير معرفة رد فعل طفل حيال ذلك، واعتقدت أن بروتون سيهتم بذلك أيضاً.

قام ابني بالتصنيف دون تردد وبعثت ذلك إلى بروتون فأجابني برسالة جريحة. وقد نشر الكتاب محتوياً على إجابات ابني، لكن النسخة التي بعثها لي كانت مهداة إليه بجفاء.

د. إ: ولم تلتقيا بعد ذلك؟

ك. ل. ش: توافقنا من جديد بعد فترة قصيرة. لكن علاقتنا لم تعد كما في السابق.

د. إ: وماكس إرنست؟

ك. ل. ش: استمرت صداقتنا بعد نيويورك. ولم تحدث بيننا أية مشكلة أبداً. عندما دعاني الكوليج دوفرانس لإلقاء محاضرات مؤسسة لوبا -لم أكن في الكوليج دوفرانس بعد بل إنها الفترة التي رُفضتُ فيها -جاء ماكس إرنست للاستماع إلي. كنت أصف آلهة الهوبي معبراً عن أسفي لعدم تمكني من عرض صور على جهاز الإسقاط لإيضاح الموضوع. بعد أسبوع أحضر لي ماكس إرنست لوحة كبيرة لعرضها على اللوح ما أزال أحتفظ بها إلى اليوم. إن موقف إرنست من الإثنولوجيا مناقض لموقف بروتون. فهذا الأخير يرتاب فيها، ولم يكن يحب أن تتوضع اعتبارات معرفية بينه وبين التحفة. أما ماكس إرنست فيجمع التحف لكنه يريد أيضاً معرفة كل شيء عنها.

د. إ: هل طبعك التردد على السرياليين بطابعهم؟ أقصد في عملك؟ ففي مقالة نشرت عام 1984 في ملحق التايمز الأدبي، يقرب رودني نيدهام عملك من الأبحاث السريالية.

ك. ل. ش: بمعنى ما، أوافق على ذلك. فأنا والسرياليون نرتبط بالتقليد الفكري نفسه الممتد حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كان بروتون شغفاً بغوستاف مورو وبكل تلك المرحلة الرمزية والرمزية الجديدة. لقد أولى السرياليون اهتماماً باللاعقلي وسعوا لاستثماره من وجهة نظر جمالية. إنني تقريباً أستخدم المادة نفسها، لكن بهدف محاولة إخضاعها للتحليل ولفهمها مع الاحتفاظ كلياً بالحساسية إزاء جمالها.

إضافة إلى أن مناخ الحماس الفكري الذي سيطر على هذه المجموعة أفادني غالباً. فباحتكاكي مع السرياليين أصبح حسي الجمالي أكثر غنى ورهافة. وجلّ التحف التي ربما كان لديّ ميل لرفضها فيما سبق على اعتبارها غير مهمة، ظهرت لي تحت ضوء جديد بفضل بروتون وأصدقائه.

د. إ: قلت في نص من «النظرة البعيدة» إن كتابك «أسطوريات» تم بناؤه على شكل كولاجات[*] ماكس إرنست.

ك. ل. ش: إنّ السرياليين هم الذين علموني ألا أخاف من المقاربات الفظة وغير المتوقعة كالتي التذّ بها ماكس إرنست في كولاجاته. وهذا التأثير ملموس في «الفكر البري». لقد بنى إرنست أساطير شخصية بواسطة صور مقتبسة عن ثقافة أخرى: ثقافة الكتب القديمة للقرن التاسع عشر. كما جعل هذه الصور تقول أكثر مما تعنيه لو تمت رؤيتها بعين ساذجة. وقد قمت -أنا أيضاً- في أسطوريات بتقطيع المادة الأسطورية وأعدت تركيب هذه القطع كي أجعلها تفجر المزيد من المعاني.



د. إ: جاء أيلول / سبتمبر وبدأت دروسك في «المدرسة الجديدة».

ك. ل. ش: خلال الصيف أقمت علاقات مع زملائي الأمريكيين: ميترو -بالتأكيد- منذ وصولي ولوي الذي أدين له بجزء

[*] كولاجات: collages: أسلوب في التاليف (التشكيلي أو الموسيقي أو الأدبي) يقوم على إقحام العمل بعناصر متنافرة معه، مما يخلق تضادات غير متوقعة.

كبير من دعوتي. كان يعيش في بيركلي، لكنه يأتي إلى نيويورك من وقت لآخر. كما ذهبت لتقديم نفسي إلى بواس في مكتبه في كولومبيا، فالعرف في أمريكا أن يحتفظ الأساتذة المتقاعدون بمكاتبهم، وكانت هذه حال بواس منذ حوالي ثلاثين عاماً.

د. إ: هل تبادلت الود مع ميترو؟

ك. ل. ش: نعم، وأصبح صديقاً عزيزاً.

د. إ: متى تعرفت عليه؟

ك. ل. ش: بعد عودتي من البعثة لدى النامبيكوارا وكنت على وشك العودة إلى فرنسا، أعلمني ميترو الذي كان يراسلني بشكل متقطع، أنه سينزل عند عودته من الأرجنتين لعد ساعات في سانتوس -ميناء ساوباولو- وأننا نستطيع أخيراً أن نتقابل. وقد تنزهنا خلال نصف نهار على طول شواطئ مقفرة تخيم فوقها ذكرى مسافري القرن السادس عشر.

د. إ: كان يعيش في نيويورك؟

ك. ل. ش: في واشنطن. لكنه كان يأتي كثيراً إلى نيويورك. وعندها يقضي ليلته في منزلي. حيث نقتسم أدوات الفرش.

د. إ: كان شخصاً حميماً؟

ك. ل. ش: حميماً جداً، وفي الوقت نفسه عصابياً بعمق، ينتقل من حالات الشمق(*) إلى الاكتئاب الأكثر سواداً، كان مسرفاً في العمل: فهو يشعر بالتعاسة إن لم يكتب طوال الوقت.

(*) الشمق: فرح مرضي.

د. إ: ووظيفته؟

ك. ل. ش: عمل في مكتب الإثنولوجيا الأمريكية حيث تم إنجاز «دليل هنود أمريكا الجنوبية» الذي دُعيتُ على الفور للمشاركة فيه.

د. إ: هل كان ذا أثر في تأهيلك؟

ك. ل. ش: في تأهيلي، لا. لم يكن ألفريد ميترو نظرياً، بل علاّمة وميدانياً ممتازاً. وهذا لا ينفي امتلاكه لفضول فكري كبير في ميادين أخرى. وأنا أدين له بمعلومات كثيرة جداً. لقد أقام هو أيضاً علاقة مع السرياليين في فترة سابقة، فقد كان قريباً من باتاي وليريس. فيما بعد كنا نلتقي كثيراً في باريس، حتى موته. هذا الموت الذي هزني كما هز أصدقاءه، وعندما أفكر فيه اليوم، تبدو لي حياته الخاصة تأقلماً تدريجياً باتجاه الانتحار.

د. إ: قلت إنك ذهبت لمقابلة فرانتزبواس؟

ك. ل. ش: طلبت مقابلته منذ وصولي إلى نيويورك. كان معلم الإثنولوجيا الأمريكية. ويتمتع بسحر كبير. إنه عملاق لا نظير له من عمالقة القرن التاسع عشر، راكم عملاً مهماً ليس بحجمه فحسب بل بتنوعه أيضاً: أنثروبولوجيا فيزيائية، ألسنية، إثنوغرافيا، أركيولوجيا، ميتولوجيا وفولكلور. لم يكن شيء غريباً عنه... لقد غطى عمله كامل المجال الإثنولوجي. ومنه نشأت كل الإنثروبولوجيا الأمريكية.

د. إ: شارك أيضاً في إنقاذ العلماء والفنانين الأوروبيين، فجيمي ارنست، ابن ماكس إرنست، يروي في مذكراته أنه استطاع الدخول إلى الولايات المتحدة[9] بفضله.

ك. ل. ش: لم تكن حياة بواس خالية من المشاكل. فأثناء الحرب العالمية الأولى بقي ألمانياً من أعماق قلبه وناضل ضد اشتراك أمريكا في الحرب. وقد كلفته هذه المواقف عداوة العديد من زملائه بعيد الحرب. أما أثناء الحرب العالمية الثانية فكان عجوزاً ومتقاعداً منذ فترة طويلة لذلك لم يتعدّ تأثيره التأثير الأخلاقي. وقد عمل بصفة شخصية لصالح مواطنيه الألمان. وكان بكل تأكيد -كواحد من أوائل أعداء الأفكار العرقوية raciste وأكثرهم إقناعاً- يشعر بألم من كل ما يحدث في بلده الأصلي.

د. إ: عندما قدمت إلى الولايات المتحدة، هل كنت قد قرأت كل أعماله؟

ك. ل. ش: لا، لكني عرفت بعضها. لقد استقبلني بواس بكل لطف دون أي زيادة. فقد كنت بالتأكيد مجهولاً تماماً بالنسبة إليه.

لكني رأيته ثانية فيما بعد. في البدء مع جاكوبسون، فلديهما اهتمامات ألسنية مشتركة يتناقشان فيها غالباً. ذات مرة، دعانا بواس -جاكوبسون وأنا- إلى العشاء في منزله في غرانتوود على الضفة الأخرى من الهودسون. كان في قاعة الطعام صندوق رائع منحوت ومزين بالرسوم جلبه من الهنود الكواكيوتل، الذين خصص لهم جزءاً كبيراً من عمله. لقد أعجبني هذا الأثاث فقلت بتسرع: «إن العيش مع هنود قادرين على صنع مثل هذه التحف يشكل تجربه فريدة». فأجابني بجفاء: «إنهم هنود كالآخرين» إن نسبويته الثقافية لا تسمح له بإقامة تراتبية قيمية hierarchie de valeurs بين الشعوب. كما أن تزمته الفكري صارم جداً. بعد عدة أسابيع مرّ الدكتور ريفيه -اللاجئ إلى كولومبيا- بنيويورك في طريقه إلى المكسيك فأقام بواس غذاء على شرفه.

د. إ: كان ريفيه مديراً لمتحف الإنسان آنذاك؟

ك. ل. ش: نعم، كان أستاذاً في المتحف الطبيعي منذ 1928، وقد حوّل متحف الإثنوغرافيا في تروكاديرو إلى متحف الإنسان (في قصر شايو) الذي تأسس بمناسبة المعرض العالمي عام 1937. لقد اضطر للهرب بعد أن قضى الألمان على شبكة المقاومة في متحف الإنسان، حيث تم إعدام واعتقال العديد من مساعديه، ولم يفلت هو نفسه إلا بصعوبة.

التقينا في نادي جامعة كولومبيا. وكان البرد قارساً. جاء بواس معتمراً قبعة قديمة من الفرو تعود على الأرجح إلى بعثاته عند الأسكيمو قبل ستين عاماً. وأذكر من المدعوين ابنته وعدة زملاء من الجامعة هم جميعاً من طلابه القدامى: روث بينيديكت، ورالف لينتون وآخرون. كان بواس فرحاً جداً، وخلال أحد الحوارات دفع الطاولة بعنف وسقط إلى الخلف. كنت جالساً قربه فسارعت لإنهاضه. واندفع ريفيه -الذي بدأ حياته طبيباً عسكرياً- لإنعاشه لكن دون جدوى: كان بواس ميتاً.

د. إ: هل لعمله أهمية كبرى لديك؟

ك. ل. ش: بالتأكيد، فأنا أهتم بهنود الجانب الشمالي الشرقي الذين كتب عنهم الكثير. اليوم، أصبح شائعاً انتقاد بواس. حيث يعاب عليه افتقاره لفكر منظم، ونفوره من النظرية والطابع الفوضوي لعمله. لكن بواس كان يتصدى لكمية هائلة من المواد التي يجمعها بنفسه أو يجعل السكان الأصليين المتعلمين يجمعونها، فكان يتلقى نصوصاً مكتوبة بالعديد من لغات السكان الأصليين ويترجم كل ذلك بنفسه!

يعاب عليه أيضاً تبنيه لمواقف متناقضة، حسب الميدان الذي يعمل عليه.

بالنسبة لي، يبدو -على العكس تماماً- أن لهذا التنوع في الاهتمامات عند بواس الفضل الأكبر في غنى الإثنولوجيا الأمريكية خلال عصرها الذهبي: أي من التجريبية النقدية عند لوي إلى التشكلات الثقافية عند بينيديكت أو الاهتمام الذي أعارته مارغريت ميد للسيكولوجيا الفردية في علاقاتها بالثقافة... كل هذا كان موجوداً عند بواس. وأمكن لكل واحد من الأجيال التي أهّلها استخلاص وجه من وجوه عمله وتطويره باستثناء كروبر الذي حاول الحفاظ على وحدة كل هذه الوجوه.

د. إ: لابد أن اللقاء مع رجل كبواس أخاذ. فقد كنتَ آنذاك في طور التكوين.

ك. ل. ش: إننا ندين لبواس ببعض الأفكار الأساسية. فمثلاً كان الإنتروبولوجيون يعتبرون المنسب الدماغي(*) سمة ثابتة تفيد في تمييز الأعراق. إن بواس هو من أثبت في أعماله الإنثروبولوجية الفيزيائية أن المنسب الدماغي متعلق بتأثير الوسط. كما أثبت عبر دراسته لأجيال متتابعة من المهاجرين في الولايات المتحدة أن الفروق التشريحية التي تكون صريحة في البداية بين المجموعات العرقية تمحّي تدريجياً. وينطبق الأمر نفسه على النظم الاختلافي لنمو الأطفال. وهكذا فإن نقد العرقوية Raciome نشأ منه.

(*) المنسب الدماغي: منسب انثربولوجي إحصائي يقوم على قياس أبعاد القحف في الأعراق المختلفة. وأول منسب دماغي وضعه السويدي أندريه ريتزيوس، ويعبّر عن العلاقة بين أكبر قطر عرضي للقحف وأكبر قطر طولي له. -المترجم-

كما أن عمل بواس الألسني ضخم أيضاً. وربما كتب بواس من قواعد اللغات الأصلية -وهي تعد بالعشرات- ما لم يكتبه أي ألسني آخر. وتم بفضله فهم أن من غير المجدي الرغبة في إرجاع قواعد اللغات الغريبة إلى نماذج هند - أوروبية.

وهو أيضاً من أوائل من أكّد على مسألة أساسية بالنسبة لعلوم الإنسان وهي أن قواعد اللغة تعمل في مستوى لا واعٍ خارج كل مراقبة من المتكلمين بها، وبالتالي نستطيع دراستها كظواهر موضوعية ممثلة بهذا المعنى لأفعال اجتماعية أخرى. وقد طرح هذا المبدأ الأساسي عام 1911 في مقدمته الشهيرة لـ «دليل لغات الهنود الأمريكيين». لقد كتبتُ في بعض الأحيان أن سوسور هو أول من أكد على هذا المبدأ، لكن سوسور، في الواقع، لم يعبر عنه صراحة بل كان ينساب بشكل غير مباشر خلال أعماله.

وأخيراً، في مجال الفولكلور والميثولوجيا، راكم بواس كمية رائعة من المواد تعرضت للسخرية بشكل مخجل. لقد حث بواس أحد مخبريه على حصر طرق تحضير الطعام في قبيلته ثم ترجمها ونشرها كلها على أساس أن من السابق لأوانه الحكم على ما هو مهم منها. فلدراسة ثقافة غير معروفة أو معروفة قليلاً، قد تكون التفاصيل غير المهمة ظاهرياً هي الأكثر كشفاً لها.

لقد تعرضت هذه التفاصيل للاستهزاء، مع ذلك، أعطتني طرق تحضير طعام الكواكيوتل مفتاحاً لحل العديد من المسائل الميثولوجية بكشفها النقاب عن علاقات الانسجام أو التنافر بين المواد الغذائية، وهي علاقات ليست متعلقة بالذوق فقط.

ويبقى أن عمل بواس ليس سهل الاستخدام. بل ينبغي بذل جهد كبير لذلك لكنه ذو غنى لا مثيل له.

د. إ: أقمتَ بين 1941 و1945 علاقات مع كل الحلقة الإثنولوجية الأمريكية.

ك. ل. ش: نعم. لقد عرفت جيداً رالف لينتون وروث بينيديكت. كان كل منهما يدعوني إلى الغذاء ليحكي لي كل سيئات الآخر. كانا يكرهان بعضهما، وتلك فصول قصص كولومبيا.

د. إ: وكروبر؟

ك. ل. ش: كان -مثل لوي- يعيش في كاليفورنيا ويأتي من وقت لآخر إلى نيويورك. إنه أمر غريب أن أشهد موت بواس، وأن أشهد تقريباً موت كروبر. فقد كان في باريس مع زوجته، دعوتهما للعشاء في منزلي. وصباح يوم الدعوة بالذات هتفت لي السيدة كروبر لتخبرني أن زوجها مات ليلاً. لم تكن تعرف أحداً في باريس فسارعتُ إلى فندقها.

د. إ: كانت المدرسة الإنثروبولوجية الأمريكية نشطة بشكل مميز.

ك. ل. ش: مثل المدرسة الإنكليزية. لكن الولايات المتحدة بلد كبير، ولذلك كان لديه الكثير من الإثنولوجيين مثلما لديه الكثير من كل شيء.

د. إ: عودة إلى خريف 1941: بدأتَ دروسك في «المدرسة الجديدة».

ك. ل. ش: تم تكليفي بإعطاء دروس حول السوسيولوجيا المعاصرة لأمريكا اللاتينية (ففي تلك الفترة، بدأت سياسة حسن الجوار) ولم يكن لدي أدنى فكرة عن هذا الموضوع، باستثناء البرازيل.

لذلك بدأت أذهب يومياً إلى مكتبة نيويورك العامة لأتعلم الوقائع الاجتماعية والحياة السياسية للأرجنتين والبيرو وبلدان أخرى..

د. إ: ومستمعوك؟

ك. ل. ش: كما عند بقية زملائي أغلبهم لاجئون ليست لغتهم الإنكليزية أفضل حالاً منّا، ونيويوركيون يأتون كي يتثقفوا. وكان هذا أشبه بجامعة شعبية. لقد درّست عدة سنوات، حول أمريكا اللاتينية المعاصرة. خلال شتاء 1941 - 1942 تأسست «المدرسة الحرة للدراسات العليا» في نيويورك. وبدأت بالتدريس فيها باللغة الفرنسية لمواضيع إثنولوجية أختارها بحرية.

د. إ: قمت إذاً بالتدريس في المكانين في الوقت نفسه؟

ك. ل. ش: نعم.

د. إ: كيف تأسست هذه المدرسة؟

ك. ل. ش: أعتقد أنها فكرة بوريس ميركين - غويتزيفيتش. وهو حقوقي من أصل روسي يبدو أنه لعب دوراً في بداية الثورة الروسية ضمن معسكر الليبراليين. ثم ترك روسيا ليلجأ إلى فرنسا وحصل على الجنسية الفرنسية.كنت -في نيويورك- صديقاً حميماً لابنته فيتيا هيسيل التي ماتت منذ فترة قريبة. كانت تكتب، وقد أتت «الأزمنة الحديثة» على نشر قصة قصيرة لها.

عودة إلى ميركين - غوتيزيفيتش. كان يمتلك فكراً خصباً. ويحب تأسيس كل أشكال المنظمات تحت حماية بعض الشهرة مكتفياً بمنصب نائب الرئيس، لكنه يبقى المدير الفعلي. وهو يعرف أكثر من

أي شخص آخر كيف يحصل على التأييد. يوجد في اللغة الإنكليزية كلمة تصف بدقة هذا النوع من البشر، إنها كلمة go - between وهي صعبة الترجمة لأنها تحمل وجهين: فهي تفيد المدح، لكنها لا تخلو من التهكم. لقد جمع غويتزيفيتش حول مشروعه مجموعة من الشخصيات الشهيرة: جاك ماريتان، هنري فوسيون، جان بيرّان، والبيزانطوي البلجيكي هنري غريغوار، وآخرون..

د. إ: من كان يموله؟

ك. ل. ش: بعض مشجعي الفنون، وفرنسا الحرة. وساعده الامريكيون في حل بعض المشاكل الإدارية والعملية.

د. إ: أين كان مقر المدرسة؟

ك. ل. ش: ملاصقاً للمدرسة الجديدة. في الشارع الخامس، عند زاوية الجادة الحادية عشرة تقريباً.

د. إ: وتم استدعاؤك إليها فوراً؟

ك. ل. ش: نعم، عبر ميركين - غويتزيفيتش الذي أراد أن يجعلني الأمين العام لها. لكن الكسندر كويريه رغب بهذا المنصب. كانت علاقتنا جيدة فانسحبت.

د. إ: وكويريه هو من قدمك إلى جاكوبسون الذي تم استدعاؤه أيضاً لإعطاء دروس فيها.

ك. ل. ش: لقد تكهن بوجود نوع من وحدة الفكر بيني وبين جاكوبسون.

د. إ: هل كان ذلك اللقاء بالنسبة لك حاسماً؟

ك. ل. ش: وكيف! كنت آنذاك بنيوياً سليم الطوية، أمارس البنيوية دون أن أعرف ذلك. وقد كشف لي جاكوبسون عن وجود مذهب سبق أن تأسس، ولم أمارسه من قبل: إنه الألسنية. وكان ذلك بالنسبة لي إبهاراً.

د. إ: ... وبداية صداقة عظيمة؟

ك. ل. ش: الأمران معاً. شعرنا مباشرة أننا قريبين فكرياً، وقدّر لنا أن نصبح صديقين. هل حدث سوء فهم في البداية؟ لقد روى جاكوبسون أنه قال لنفسه عندما رآني «أخيراً ها شخص يمكنني أن أشرب معه طوال الليل». فيما بعد اتضح له أنني لا أحب الكحول ولا السهر. ورغم ذلك بدأت بيننا صداقة أخوية مع أنه يكبرني باثنتي عشرة سنة.

د. إ: صداقة لم تتوقف أبداً.

ك. ل. ش: صداقة دون تصدّع استمرت أربعين عاماً. إنه رباط لم ينقطع، وبالنسبة لي إعجاب لم يتوقف مطلقاً.

قبل أيام من موته، تلقيت منه نسخة خاصة لأحد مقالاته مع هذا الإهداء: «إلى أخي كلود».

د. إ: كيف كان جاكوبسون؟

ك. ل. ش: كان ذا قوة فكرية تسيطر على كل من حوله، يتقن عشرات اللغات، وهو علاّمة مذهل يمتد علمه من اللغات الهندية القديمة إلى هسرل... يهتم بكل شيء: بالرسم والشعر الطليعي والإثنولوجيا والمعلوماتية والبيولوجيا...

د. إ: هل كان إثنولوجياً في شبابه؟

ك. ل. ش: لقد بدأ حياته المهنية، وهو مراهق تقريباً، بأبحاث حول الفولكلور في منطقة موسكو مع بوغاتيريف الإثنولوجي الروسي الكبير. وانتسب أيضاً إلى الحركة الحداثوية للرسامين والشعراء الروس.

د. إ: فيما بعد، اصبحت تراه كثيراً في باريس.

ك. ل. ش: بشكل منتظم كلما جاء إلى فرنسا، وهو يحب السفر حباً جماً! في الخمسينات، كنا نسكن -أنا وزوجتي الثالثة مونيك- في شقة صغيرة في بداية جادة سان - لازار، قرب كنيسة نوتردام دولوريت. لم نكن نستطيع إيواءه فكنا نستأجر له غرفة في فندق مجاور. كانت إقامته بيننا تمنحنا سعادة كبيرة وقليلاً من الخوف أيضاً، فنحن لا نمتلك مثل مقاومته الجسدية أو حيويته الفكرية: يدق الباب الساعة الثامنة صباحاً من أجل الإفطار، يقضي النهار معنا، ويبقى أحيانا حتى منتصف الليل وهو يناقش.

فيما بعد تمت تسوية ذلك. فقد عرّفته على لاكان -صديقي الحميم آنذاك- وكما توقعنا فقد سحره وسيلفيا زوجته. كان لدى آل لاكان شقق مشتركة في شارع «ليل» وقبلا اقتراحي بإيواء جاكوبسون عندما يأتي إلى باريس. وهكذا -لعدة سنوات- أصبح لجاكوبسون «غرفته» عند سيلفيا لاكان.

د. إ: في نيويورك، كان يعطي دروساً في المدرسة الحرة.

ك. ل. ش: كانت دروسه إبهاراً. فهو يحاضر باللغة الفرنسية بطلاقة، ودون مدونات تقريباً. حيث يكتفي برزمة صغيرة من

البطاقات ينظر إليها من وقت لآخر. كما أن إلقاءه مؤثر بشكل لا مثيل له، وهو يثير مستمعيه، يمنحهم شعوراً مقنعاً بأنهم يعيشون لحظة حاسمة في تاريخ الفكر.

د. إ: حول ماذا كانت تدور دروسه؟

ك. ل. ش: تم نشر دروسه منذ عدة سنوات بعنوان «ستة دروس حول الصوت والمعنى»[10]. وبما أنني كنت قد استمعت إليها سابقاً، فقد كتبت تقديماً لها بناء على طلبه.

د. إ: هل كان يحضر دروسك؟

ك. ل. ش: كنت أعطي دروساً حول مسائل القرابة فيأتي للاستماع إلي، وقد قال لي ذات يوم: يجب كتابة كل هذا. لم أفكر بذلك من قبل. وهكذا بدأت -بتشجيع منه- كتابة «البنى الأولية للقرابة» [11] عام 1943 وأنهيته عام1947 .



د. إ: كنتَ تعطي دروساً، وتكتب... كيف نظمت وقتك؟

ك. ل. ش: صباحاً، أذهب إلى مكتبة نيويورك العامة (فما أعرفه عن الإثنولوجيا اكتسبته خلال تلك السنوات) وأبقى فيها منذ افتتاحها حتى الثانية عشرة أو الواحدة ظهراً. ثم أتناول طعامي في إحدى الحانات وأعود إلى البيت كي أكتب.

د. إ: لابد أن المكتبة العامة في نيويورك مكان مدهش؟

ك. ل. ش: كان يؤمّها كثير من الناس وقلة من الجامعيين: فهؤلاء يفضلون مكتبة كولومبيا، أما أنا فآثرت المكتبة العامة لأنها

أقرب إلى منزلي. كما أن للمكان هيبة كبيرة، وهو بالٍ قليلاً كمعظم المنشآت النيويوركية القديمة، لكنه مليء بالسحر.

د. إ: غير أن فيها ذخيرة إثنولوجية كبيرة؟

ك. ل. ش: نعم. فحتى هذه المكتبة غير المتخصصة تمتلك ذخيرة غنية جداً في متناول الجميع. وفيها وجدت الجزء الأكبر من المصادر التي استخدمتها في البنى.

د. إ: هذا انتقاد يوجه إليك عامة : قرأت الكثير من الكتب لكن عملك الميداني قليل.

ك. ل. ش: إن الظروف هي من قرر ذلك. فلو حصلت على تأشيرة إلى البرازيل عام 1940، لعدت إلى أماكن بعثاتي ما قبل الحرب ومارست فيها عملاً ميدانياً. ولولا الحرب، لتم -ربما- إيفادي من جديد. لقد قادني القدر إلى الولايات المتحدة حيث لم يتح لي الوضع القيام بعمل ميداني بسبب نقص الإمكانيات وبسبب الظروف الدولية. لكنه أتاح لي -بالمقابل- حرية كاملة للقيام بعمل نظري، فإمكانيات ذلك غير محدودة.

كنت أعلم أيضاً أن المواد الإثنولوجية تراكمت بكميات كبيرة في السنوات العشرين أو الثلاثين الأخيرة. لكن ضمن فوضى هائلة. بحيث أصبح من غير الممكن معرفة من أين نبدأ وكيف نستفيد منها. وقد بدا لي ملحّاً بيان ما تحمله هذه الكمية الكبيرة من الوثائق. وأخيراً، لماذا لا أعترف؟ لقد شعرت بسرعة كبيرة أنني رجل مكتب أكثر مما أنا رجل ميدان. وسأقول دون قصد التحقير -بل العكس تماماً- إن العمل الميداني هو إلى حد ما «عمل النساء» (وهذا سبب محتمل لكونهن ناجحات فيه) أما أنا فينقصني الصبر والأناة.

د. إ: على الرغم من الأخطار التي ذكرناها، يبدو أنك استمتعت كثيراً بالعمل الميداني؟

ك. ل. ش: بالتأكيد. كانت تلك أولى بعثاتي. ولست متأكداً من عدم الشعور بسخط متزايد -لو كان ثمة بعثات لاحقة- من اللاتناسب بين الوقت المستثمر فعلاً والوقت الضائع، ولقد ازداد ذلك سوءاً مع الوقت. فمنذ عدة أيام وصلتني من كندا أسئلة واستمارات وأشياء أخرى. يجب تعبئتها -حالياً- على عدة نسخ قبل أن تسمح لك «عصابة» (هذا هو الاسم الرسمي) من هنود كولومبيا البريطانية بالذهاب للعمل بينها. ولن يروي لك المخبر أسطورة إلا بعد أن يحصل على ضمان مكتوب بأنه سيحصل على حقوقه الأدبية مع كل النتائج القانونية المترتبة عن ذلك. لنعترف بأن هذه البيروقراطية الدقيقة وهذا الميل للورقية -كاريكاتير أعرافنا الخاصة- قد جردا العمل الميداني كثيراً من إغراءاته القديمة!

د. إ: هل شعرت أيضاً بالانطباعات التي وضعها مالينوفسكي في يومياته؟ تلك المشاعر من السخط بل القرف؟

ك. ل. ش: تماماً. ولقد تظاهر الإثنولوجيون بالاستياء عندما نُشرت، مدعين أنها تناقض العمل. لكن من منّا لم يعش لحظات من الاكتئاب؟ لقد كان ميترو (الذي قام بأعمال ميدانية واسعة) يذكر ذلك بعفوية وطيب خاطر. فإذا أضاع المرء خمسة عشر يوماً بين مجموعة من السكان الأصليين دون أن ينجح في معرفة أي شيء منهم لأنهم -ببساطة- انزعجوا منه، فإنه عندئذ سيبدأ بكرههم.

د. إ: هل حدث هذا معك؟

ك. ل. ش: كم مرة، في السهوب القاحلة وسط البرازيل، تكوّن

لدي انطباع بأنني أبدد حياتي! عودة إلى ما كنت تقوله منذ قليل. لقد قمت -دون مقارنة بمالينوفسكي بالطبع- بأعمال ميدانية أكثر مما يؤكد منتقديّ، وهي كافية لكي أتعلم وأفهم ما هو العمل الميداني، وهذا شرط ضروري لتقييم أعمال الآخرين واستخدامها بشكل صحيح. لنقل إن تجاربي الميدانية مثّلت ما يسميه التحليل النفسي «تعليما» didactique. وأعتقد أنني في الوقت نفسه قمت ببضعة اكتشافات وأتيت بأشياء جديدة.



د. إ: هل قمت، في نيويورك، بنشاط سياسي؟ هل خالطت مثلاً الأوساط الديغولية؟

ك. ل. ش: لقد تطوعت في القوات الفرنسية الحرة. وتم الاحتفاظ بي فيما سُميّ «البعثة العلمية الفرنسية» في الولايات المتحدة. عندما مرّ سوستيل بنيويورك أصر - بشكل ودي- أن أتبعه إلى لندن، وحالت دون ذلك رغبتي بالدراسة. وبالكتابة أيضاً. لقد حضرت عدة اجتماعات ديغولية، لكني لم أكن من الفاعلين.

د. إ: هل توقف هنا نشاطك السياسي؟

ك. ل. ش: لقد انسلّ بالأحرى.

د. إ: ثم، في يوم جميل، سمعت بإنزال الحلفاء في النورماندي.

ك. ل. ش: أذكر ذلك اليوم. كنت في شقتي في غرينويتش فيلاج، عند استيقاظي أدرت مذياعي الصغير فسمعت الأخبار. كان ما سمعته غريباً إلى حد أنه بدا للوهلة الأولى غير معقول. وشيئاً فشيئاً فهمت فانفجرت بالبكاء.

د. إ: هل طالبت بعودتك إلى فرنسا بعد التحرير؟

ك. ل. ش: لم تجرِ الأمور على هذا النحو تماماً. لقد استقال كويريه من منصبه كأمين عام للمدرسة الحرة، بعد نشوب صراعات فيها. فالأساتذة الذين ازداد عددهم كثيراً انقسموا إلى فريقين. الأول يتألف من الذين اعتبروا أنفسهم فرنسيين بشكل كامل، ولم يكن لديهم إلا فكرة واحدة في رؤوسهم: العودة إلى فرنسا واستعادة مهنهم. وقد رأوا أن المدرسة لم يعد لها مبرر للوجود بعد الحرب، وبالتالي يجب حلّها. أما الفريق الثاني فيتألف إما من متجنسين حديثاً أو أجانب لجؤوا إلى فرنسا قبل الحرب، وكانوا غير مطمئنين لمصيرهم ويتساءلون ماذا سيحدث لهم في حال عودتهم إلى فرنسا؟ لذلك كانوا يفضلون الانتظار وبقاء المدرسة التي تحافظ على روابطهم بفرنسا وتتيح لهم في الوقت نفسه البقاء بأمان في الولايات المتحدة. كان كويريه يشعر بفرنسيته بحرارة لكنه لم يودّ أن يتحيز لأحد الفريقين. ولقد خلفته ممثلاً للمعسكر الأول.

كانت هذه المشكلة معروفة جيداً في فرنسا، فهنري لوجييه الذي تم تعيينه مديراً للعلاقات الثقافية كان هو نفسه لاجئاً في كندا. وقد استدعاني لمحاولة إيجاد حل. فعدت إلى باريس بعد سفر قاسٍ في قافلة للبحرية الأمريكية (لم تكن الحرب قد انتهت تماماً بعد). وتم إنزالنا في ميناء إنكليزي لا أعرفه، ثم وصلت إلى لندن حيث كانت تسقط بعض صواريخ الـV2 الألمانية، ثم إلى دييب، ومن هناك إلى باريس في شاحنة أمريكية. كان ذلك في بداية كانون الثاني / يناير عام 1945. وبوصولي إلى باريس، شغلت مكتباً صغيراً في إدارة العلاقات الثقافية التي اتخذت من فندقٍ مقراً لها (ليس فندقاً مميزاً بل فندقاً قديماً مفروشاً) في جادة لورد - بيرون قرب الشانزيليزيه.

د. إ: ما المنصب الذي شغلته؟

ك. ل. ش: لم يكن لي أي منصب سوى الأمين العام للمدرسة الحرة للدراسات العليا في نيويورك.

د. إ: ومهمتك؟

ك. ل. ش: استقبال الأشخاص الراغبين بزيارة الولايات المتحدة. ولم أحتفظ من تلك الفترة إلا باثنتين من الذكريات المميزة. فهنا، جددت معرفتي بميرلو - بونتي.

د. إ: ألم تره منذ دورة الأستاذية؟

ك. ل. ش: أبداً.

د. إ: كيف كانت هذه اللقاءات مع ميرلو - بونتي؟

ك. ل. ش: جيدة جداً. وبما أنني كنت أجهل كل شيء تقريباً عمّا يجري في فرنسا، فقد سألته: ما هي الوجودية؟ فأجابني: إنها محاولة لإحياء الفلسفة العظيمة ضمن تقليد ديكارت وكانط.

د. إ: وهل تناقشت معه حول ذلك؟

ك. ل. ش: لم أكن متابعاً لهذا الجو. بل إنني لم أكن قد قرأت «الوجود والعدم».

د. إ: والذكرى الثانية؟

ك. ل. ش: استقبلت أيضاً جانين ميشو المغنية الشهيرة آنذاك. لقد قدمت إلى مكتبي غارقة في العطر جارّة معها اثنين من الكلاب الضخمة.

الفصل الرابع

العودة إلى العالم القديم

د. إ: لم تبق في باريس إلا عدة أشهر، ثم عدت من جديد إلى نيويورك...

ك. ل. ش: ...كمستشار ثقافي. أراد لوجييه تعييني في المكسيك. لكني كنت بصدد كتابة «البنى الأولية للقرابة» وبحاجة ماسة إلى المكتبات الأمريكية. لذلك أصررت على أن يجعلني أخلف هنري سيريج في نيويورك. كان هنري سيريج صديقاً حميماً وأراد أيضاً أن أخلفه.

د. إ: هل هو والد الفنانة؟

ك. ل. ش: نعم، هو والد دلفين، التي كنت أراها صغيرة عند والديها. إنه أركيولوجي ذائع الصيت، أصبح فيما بعد مديراً لمتاحف فرنسا. لقد أفلحت جهودنا -هو وأنا- في إقناع لوجييه بتعييني في نيويورك.

د. إ: متى عدت إليها؟

ك. ل. ش: في ربيع 1945.

د. إ: ماذا تضمنت نشاطاتك؟

ك. ل. ش: بشكل رئيسي تهيئة المبنى!

د. إ: الحالي؟

ك. ل. ش: لا، بل المبنى الحالي للقنصلية العامة. كانت فرنسا تمتلك قبيل الحرب -في الشارع الخامس- فندقاً رائعاً مميزاً بناه مصرفي أمريكي على شكل قصر روماني. وقد منع عمدة نيويورك - وهو مناهض قوي لحكومة فيشي- ممثلي فرنسا من دخوله، إلى أن تسلم دوغول السلطة. لم يكن المبنى يتناسب مع احتياجات الخدمات الثقافية، فأُسند اليّ مع مهمة تهيئته. وقد رغب جاك كارلو (مصمم قصر شايّو) اللاجئ إلى الولايات المتحدة في مساعدتي. وهكذا قمنا بترميم كل الداخل.

د. إ: كان ذلك عملاً ضخماً؟

ك. ل. ش: نعم، لكنه ممتع أكثر بكثير من عملي كمستشار ثقافي. فالبحث عن أفكار والقيام بتصاميم والمشاركة في حياة الورشة ووضع اليد أحياناً في الطين، كل هذا يسحرني.

د. إ: وكان عليك القيام بمهامك كمستشار ثقافي أيضاً!

ك. ل. ش: بالتأكيد! لكني استفدت من بعض التساهل نظراً لظروف العمل.

د. إ: وفي نيويورك، هل عاودت رؤية أصدقائك؟

ك. ل. ش: كانت أوساط المهاجرين قد بدأت بالتبعثر، لقد أقمت -فيما مضى- علاقات طيبة مع مجموعات منهم، لا تتقاطع إلا جزئياً: السرياليين والجامعيين، إضافة إلى المحللين النفسيين حيث كنت ألتقي غالباً بلوفنشتاين وكريس ونانبيرغ عند ريمون دو سوسور (ابن الألسني الكبير) بل إنني التقيت مرة بماري بونابرت. أما عملي كمستشار ثقافي فكان يوجهني باتجاه وسط آخر هو وسط الأثرياء الأمريكيين أصدقاء فرنسا. فانكشف أمامي مجتمع نيويوركي مختلف.

د. إ: بقيت ثلاث سنوات؟

ك. ل. ش: عدت إلى باريس في نهاية عام 1947.

د. إ: خلال تلك الفترة زار سارتر الولايات المتحدة.

ك. ل. ش: نعم، لكنه لم يكن بحاجة إليّ لتنظيم إقامته. ولقد تناولنا الطعام وحدنا مرة واحدة فقط.

د. إ: ألم تكن تعرفه؟

ك. ل. ش: إطلاقاً. لمحته مرة عندما كنت أحضّر الأستاذية، فقد كنت أتابع دروساً في المدرسة العليا لإعداد المعلمين وأشار أحدهم إليه صارخاً «هذا سارتر». منذ ذلك الوقت أصبح شيئاً مهماً معرفة من هو سارتر!

د. إ: في نيويورك، رأيتَ أيضاً سيمون دو بوفوار.

ك. ل. ش: جاءت بعد فترة قصيرة. ولم تكن -هي أيضاً-

بحاجة للخدمات الثقافية للسفارة. لكننا التقينا نظراً لمعرفتي القديمة بها. فقد دعوتها للغداء في منزلي، وأذكر جيداً الامتعاض الذي نظرت فيه إلى مهد ابني الوليد حديثاً: في الواقع، إن طفلاً رضيعاً لم يكن الشيء الذي يجب إظهاره لها!

د. إ: أعتقد أنك استقبلت كامو أيضاً؟

ك. ل. ش: كان بحاجة كبيرة للخدمات الثقافية. أخذته في نزهة داخل المدينة، ثم اصطحبته للعشاء في شيناتاون... وقضينا سهرة في ملهى لوير برودواي الذي كان يقدم -بشكل ساخر- عروضاً لمغنيات مسنات. إن المهرجة هي ظاهرة أمريكية نموذجية يجب التعرف عليها، لكنها تثير اشمئزازي.

د. إ: هل استقبلت شخصيات أخرى؟

ك. ل. ش: جول رومان. لكن في تلك المرحلة، كنت ما أزال مبدئياً. لقد نشر قبيل الحرب كتاباً مريباً بعيداً جداً عن «ذوو الإرادة الصلبة» الذي قرأته بحماس شديد. كما أن استقباله لم يتم عبر الخدمات الثقافية للسفارة بل عبر منظمات فرانكو - أمريكية، لم تكن مواقفها خلال الحرب نظيفة تماماً. ولقد دعيت إلى إلقاء خطاب فوجهت له فيه أشياء مزعجة. حيث امتدحت «ذوو الإرادة الصلبة» وذكّرت بأن بطليه -جالي وجيرفانيون- اللذين كان جيلي ما يزال قريباً منهما، تعاهدا على عدم الدخول أبداً إلى الأكاديمية الفرنسية (كانت الأكاديمية قد انتخبت جول رومان منذ فترة قصيرة). لقد أورد أندريه موروا الذي حضر هذا التجمع ذلك الخطاب اللاذع في مذكراته.

كما استقبلت أيضاً بعثة الأطباء الشباب وفي عدادهم السيد إيف لابورت المدير الحالي للكوليج دو فرانس. واستقبلت أيضاً جان دولاي الذي سأصبح زميله في الأكاديمية. وغاستون بيرجيه الذي سيصبح فيما بعد مدير التعليم العالي.

د. إ: والد موريس بيجار؟

ك. ل. ش: بالضبط... كان غاستون في ذلك الوقت، حسب اعتقادي، أستاذاً في ايكس. عندما وصل كنت أحزم حقائبي. فاعتذرت عن سوء استقبالي وشرحت له أنني على أهبة الرحيل. فأجابني: «أعرف، أنت ذاهب إلى الكوليج». وكما سبق أن قلت لك، كنت أجهل تقريباً ما هو الكوليج دو فرانس: فهو مكان مرعب، محظور، لم أسمح لنفسي عندما كنت طالباً بالدخول إليه. ولذلك لم أعر أي اهتمام لعبارة غاستون بيرجيه تلك. لكن، منذ وصولي إلى باريس، أعلمني لوجييه الذي كان يحبني جداً أن هنري بييرون يريد رؤيتي. أنت تعرف من هو بييرون: عالم نفس شهير، شيوعي، وأستاذ في الكوليج. اتفقنا على موعد للقاء. وقد قال لي: «في نيتنا أن ندخلك إلى الكوليج» لم أكن أعرف من هم هؤلاء الـ«نحن» لكنه بدا واثقاً من نفسه. ففكرت أن كل شيء ترتبه لي قوى خفية، وما عليّ سوى أن أسلم لها قيادي.

لقد عشت ثلاثة عشر عاماً خارج فرنسا ولم أكن أعرف أنني سأغدو رهاناً في معركة عصبوية داخل الكوليج بين المحافظين والليبراليين. أخفقتُ، وهذا أمر غير مفهوم لكل من يعرف تقاليد الكوليج. وبعد عدة أشهر، عندما شغر كرسي آخر تم تشجيعي على التقدم من جديد وأخفقتُ أيضاً.

د. إ: متى حدث هذان الحدثان المؤسفان؟

ك. ل. ش: 1949 ثم 1950.

د. إ: في تلك الفترة تم انتخاب دوميزيل رغم كراهية إدمون فارال -مدير الكوليج- له.

ك. ل. ش: لقد أخبرني فارال ببرود أنني لن أدخل إلى الكوليج أبداً! ولم تفلح الجهود المشتركة لدوميزيل وباتايّون وبنفينيست في جعله يعيد عقد اجتماع الانتخاب. لقد حدثتك عن محاضرات لوبا أثناء كلامنا عن ماكس إرنست: فبمفارقة غريبة، دعيت لإعطاء سلسلة من المحاضرات في الكوليج في الوقت نفسه الذي أخفقتُ فيه. لقد حضر دوميزيل هذه المحاضرات. وهي المناسبة التي تعرفت فيها عليه بشكل حقيقي.

د. إ: ثم بقيتَ عشر سنوات قبل أن تتقدم للكوليج من جديد. وهذه المرة ستكون الصائبة.

ك. ل. ش: لقد كنت الساذج، الذي هرع دون علمه إلى قلب معركة بين القدامى والحديثين: ضمت العصبة السلفية أناساً ينتمون بفكرهم وعجرفتهم إلى عصر آخر. ويجب القول إن هذه الصراعات بدأت بالإمحاء منذ تولي مارسيل باتايّون إدارة الكوليج خلفاً لفارال. وبعدها، وخلال اثنتين وعشرين سنة تحت إدارة باتايون وخلفائه، لم أرها تحدث من جديد نهائياً. بعد هذا الإخفاق المزدوج اقتنعت بأنني لن أنجح في بناء مستقبل مهني. فقطعت صلتي بالماضي وأعدت بناء حياتي الخاصة وكتبت «المدارات الحزينة» الذي لم أكن لأجرؤ أبداً على نشره لو انخرطت في أية منافسة على منصب جامعي.

د. إ: في نيويورك، وضعت اللمسات الأخيرة على «البنى الأولية للقرابة».

ك. ل. ش: قمت بتسوية مع لويس جوكس -مدير العلاقات الثقافية بعد لوجييه- الذي سمح لي بالعمل مستشاراً ثقافياً نصف الوقت: صباحاً في المكتب، وبعد الظهيرة في منزلي كي أكتب. كنت أسكن مع زوجتي الثانية في الطابق الأخير للمبنى وأنزل إذا احتاجوا إلي. وبهذه الطريقة استطعت إنهاء كتابي.

د. إ: قدمته كأطروحة جامعية عندما عدت إلى باريس.

ك. ل. ش: نعم، قدمته كأطروحة رئيسية. وقدمت «الحياة العائلية والاجتماعية للنامبيكوارا» كأطروحة تكميلية.

د. إ: كيف تشكلت لجنة الحكم؟

ك. ل. ش: ذهبت لرؤية دافي -عميد السوربون آنذاك- متأبطاً مخطوطي كي أطلب منه الإشراف على الأطروحة (إذا أمكن قول ذلك فهي جاهزة). وقد قبل بعد أن استقبلني بلطف على غير عادته، كما قبل غريول أطروحتي التكميلية. وهكذا دافعت عنها سنة 1948 في السوربون أمام لجنة مؤلفة من: دافي، غريول، بينفينيست، بايه، وايسكارا، وهو حقوقي مهتم بالصينيات.

د. إ: هل كنت تعرف بينفينيست؟

ك. ل. ش: زرت بينفينيست ودوميزيل منذ عودتي إلى فرنسا، فقد كلفني جاكوبسون بعدة مهمات إليهما. إن «البنى» يتحدث عن كل العالم لذلك تحتّم أن تضم اللجنة عضواً لأجل كل منطقة جغرافية كبرى. ومن أجل الهند، اقترحت على دافي استدعاء بينفينيست.

د. إ: هل أصبحت على صلة به فيما بعد؟

ك. ل. ش: تراسلنا بشكل مطوّل انطلاقاً من دفاعي عن الأطروحة واعتراضاته عليها. لكني تعرفت إليه بشكل أفضل عندما أصبحت في الكوليج. كان بينفينيست محافظاً ولا يقيم علاقات بسهولة. ذات مرة، دعوته إلى العشاء في المنزل وتوجب إنفاق كنوز من الدبلوماسية كي يقرر قبول الدعوة. لقد قال عنه جاكوبسون إنه لم يكن كذلك في شبابه بل كان مرحاً وعفوياً، لكن شيئاً ما غيّره منذ ذلك الوقت.

د. إ: نشرتَ «البنى الأولية للقرابة» عام 1949؟

ك. ل. ش: نعم، في مطبوعات فرنسا الجامعية.

د. إ: قبل ذلك نشرتَ «الحياة العائلية والاجتماعية لهنود النامبيكوارا».

ك. ل. ش: نُشر هذا النص كبحث من مئة صفحة تقريباً في جريدة مجتمع الأمريكويين. وقد سحبتُ نسخة خاصة منه من أجل المناقشة. كما نُشر «البنى» بعده بقليل، واحتفظت بنسخة منه مطبوعة على الآلة الكاتبة للغاية نفسها.

د. إ: كتبت سيمون دو بوفوار تحليلاً له فور نشره.

ك. ل. ش: كانت بصدد كتابة ««الجنس الثاني» الذي حدثني عنه ليريس ذات يوم في متحف الإنسان. فقلت له إنني أنهيت كتابة عمل يعالج المسائل نفسها تقريباً. ونقل ليريس ذلك لسيمون دو بوفوار التي جاءت لقراءة مسودات «البنى» في منزلي، فقد أرادت

معرفة آخر ما توصل إليه البحث الإنثروبولوجي قبل أن تختم كتابها. وعندما نُشر «البنى» كتبت عنه في الأزمنة الحديثة[12].

د. إ: بطريقة مادحة تماماً؟

ك. ل. ش: وحارة أيضاً. لاحظ أن الأزمنة الحديثة أرادت في تلك المرحلة أن، تكون في قلب الحياة الفكرية. لذلك أبدت استعداداً لاستقبالي دون أن تكترث بكوني وجودياً أم لا.

د. إ: كيف كان استقبال «البنى» بشكل أعمّ؟

ك. ل. ش: كان استقباله جيداً في أوساط الإنثروبولوجيين: لكني لا أزعم أنه أثار اهتماماً كبيراً خارج الحلقات المختصة.

د. إ: يجب القول إنه كتاب تقني للغاية.

ك. ل. ش: أعترف بذلك. وقد فكرت أن أكتب مجلداً ثانياً تحت عنوان (البنى المعقدة للقرابة).

د. إ: تركتَه جانباً؟

ك. ل. ش: لقد أدركت بسرعة أن من غير الممكن معالجة مثل هذه الأنظمة المعقدة بالطرق التقليدية: كان عليّ اللجوء إلى المعلوماتية. ولم أكن أمتلك وسائلها العملية ولا الفكرية خاصةً.

د. إ: في «البنى الأولية للقرابة» نجد «ملحقاً رياضياً» كتبه اندريه ويل.

ك. ل. ش: لهذه الصفحات قيمة تاريخية كبيرة. فهي أصل كل رياضيات القرابة التي تطورت كثيراً منذ ذلك الوقت وما تزال.

د. إ: هل تعرفت على أندريه ويل، شقيق سيمون ويل، في الولايات المتحدة؟

ك. ل. ش: هو شقيق سيمون وأحد مؤسسي مجموعة بورباكي(*). كنت أعمل على مسائل قرابة استرالية معقدة لدرجة أنني فكرت بوجوب الاستعانة برياضيين لحلها. ذهبت لرؤية هادامار، اللاجئ إلى الولايات المتحدة أيضاً: كان مسناً ورياضياً لامعاً. عرضت عليه المسألة فأجابني أن الرياضيين لا يعرفون إلا العمليات الأربع، والزواج لا يمكن أن يشبه أياً منها. ونتيجة لذلك، قابلت أندريه ويل وهو لاجئ آخر. وحدثته عن زيارتي لهادامار فكانت ردة فعله مختلفة تماماً. لقد رأى أن من غير الضروري تعريف الزواج من وجهة نظر رياضية فما يهم هو العلاقات بين الزيجات فقط. وقد عرضت عليه معطيات المسألة فكتب ذلك التحليل الذي أتيت على ذكره.

د. إ: هل اعتبرت ذلك طريقة لإظهار علمية عملك؟

ك. ل. ش: لقد ذهبت هذه البرهنة الرياضية أبعد من عملي، لكنها تناغمت مع ما حاولت فعله في الأنظمة الأقل تعقيداً بوسائل أكثر بساطة. وكانت بشكل خاص تنشأ من مبادئ مماثلة للتي طبقها جاكوبسون في الألسنية، ففي الحالتين نستبدل الاهتمام بالحدود termes بالاهتمام بالعلاقات التي تسود بين هذه الحدود. إنه بالضبط ما كنت قد شرعت بعمله لحل الأحجيات التي تطرحها قواعد الزواج أمام الإثنولوجيين.



(*) **نيكولاس بورباكي**: اسم شهرة جماعي استخدمته - منذ عام 1939- مجموعة من الرياضيين الذين عرضوا الرياضيات بأخذها من نقطة انطلاقها المنطقية.

د. إ: تحدثنا عن إخفاقك في الكوليج دوفرانس. فما الوظائف الجامعية التي شغلتها منذ عودتك إلى فرنسا عام 1948؟

ك. ل. ش: كنت لعدة أشهر مسؤول بحث في الـ CNRS(*) بانتظار وظائف أخرى. وأصبحت فيما بعد معاون مدير المتحف الطبيعي ومعاون مدير متحف الإنسان.

د. إ: من الذي جاء بك إلى متحف الإنسان؟

ك. ل. ش: د. ريفيه. فعشية تقاعده استدعاني لأشغل منصب معاون مدير لشؤون الإثنولوجيا. كان أندريه لوروا - غوران (وهو معاون المدير لشؤون ما قبل التاريخ) يدرّس في ليون، ولم يكن موجوداً هنا باستمرار. وهكذا وقع على عاتقي تسيير معظم الأمور لمدة عام كامل، رغم أن المتحف اختار أستاذاً مسؤولاً ريثما يتم اختيار خلف لريفيه.

د. إ: وفي ذلك الوقت، تعرّفت على ليريس الذي كان يعمل أيضاً في متحف الإنسان؟

ك. ل. ش: لم أكن أعرف شيئاً عن عمله. وقد قرأته آنذاك بمتعة. كانت زوجتي مونيك (عشنا معاً ثم تزوجنا عام 1954) تعرف آل ليريس. أما هي، فقد التقيت بها عند لاكان.

د. إ: كيف تعرفت على لاكان؟

ك. ل. ش: عن طريق كويريه. وكذلك تعود صداقتي مع جورج - هنري ريفيير إلى ذلك الوقت أيضاً. كان يسكن قريباً في جادة سان - لازار، ويزورنا عندما تثقل عليه وحدة العزوبية.

(*) CNRS: المركز الوطني للأبحاث العلمية.

د. إ: هل كنت في تلك الفترة قد تركت كلياً نشاطك السياسي؟

ك. ل. ش: آه، كلياً.

د. إ: ألم تغرك التجربة الديغولية؟

ك. ل. ش: لا، كنت مشبعاً بالاشتراكية حتى العظم. وفي الوقت نفسه، بدا لي أن كل موقف سياسي متناقض مع نفسه. لقد تراجعتُ سياسياً خلال سنوات البرازيل، ليس بسببي أنا فقط. ففي السنوات التي سبقت الأستاذية، كنت مساعداً لجورج مونيه النائب الاشتراكي. وقد أصبح عام 1936 وزيراً في حكومة الجبهة الشعبية وكنت آنذاك في البرازيل، وانتظرت منه أن يتذكرني. لقد نسيني رفاقي القدامى تماماً عند انتصارهم. وجاءت الأحداث والمجرى الجديد الذي بدأت تتخذه حياتي لتأتي على الباقي...

د. إ: لكنك لم تنقطع عن الاهتمام بالحياة السياسية!

ك. ل. ش: بالتأكيد، وأنا مهتم بها إلى اليوم.

د. إ: بعد سنواتك في متحف الإنسان، درّست في مدرسة الدراسات العليا؟

ك. ل. ش: منذ عودتي درّست في معهد الإثنولوجيا الذي كان مقره في متحف الإنسان. ثم انتخبتني مدرسة الدراسات العليا من أجل كرسي موريس لينهار الذي تقاعد، دون أن يرغب في أن أخلفه، مفضلاً أحد تلاميذه، ووضعني ذلك في موقف صعب، لأن المدرسة بشكل عام تأخذ بالاعتبار رأي الأستاذ المتقاعد فيمن سيخلفه. ورغم ذلك تم اختياري بفضل دعم دوميزيل. ولقد أدركتُ -في السنوات

الأخيرة فقط– الدور الكبير الذي لعبه دوميزيل، فالمدرسة تطلب من تريد من الأساتذة بشكل مباشر ودون ترشيح.

د. إ: في قسم العلوم الدينية؟ القسم الخامس؟

ك. ل. ش: نعم.

د. إ: كان مقر القسم في السوربون؟

ك. ل. ش: وما يزال. الدرج E.

د. إ: حول ماذا دارت دروسك؟

ك. ل. ش: كان اسم الكرسي «ديانات الشعوب غير المتحضرة» منذ أن شغله موس. وكان عليّ أن أغيّر بسرعة هذا الاسم، وهاك لماذا: ذات يوم، كنت أتحدث عن عادات شعب إفريقي، فقام مستمع أسود وقال لي: «إنني أنتمي لذلك المجتمع ولست موافقاً على تأويلك» وقد دفعتني حادثتان أو ثلاث من هذا النوع إلى تغيير اسم الكرسي إلى «ديانات الشعوب بلا كتابة». فليس من الممكن القول إن الذين يأتون لمناقشتنا في السوربون «غير متحضرين»! أما عدم امتلاكهم كتابة خاصة بهم فهو حقيقي.

د. إ: في «الوعود» Paroles données الذي جمعت فيه دروسك في مدرسة الدراسات العليا والكوليج دوفرانس، نجد حاشية تروي قصة مثيرة عن لقاء في باريس مع تالكوت بارسونز عام 1953. لم يقترح عليك فيه مركزاً في هارفارد فحسب، بل عرض عليك عقداً جاهزاً للتوقيع[13].

ك. ل. ش: عرفت تالكوت بارسونز في هارفارد فقد ألقيت فيها محاضرة عندما كنت مستشاراً ثقافياً...

د. إ: ... وحافظتَ على صلتك به...

ك. ل. ش: ... إطلاقاً. بل أدهشني أن يطلب سوسيولوجي بهذه الشهرة مقابلتي، في الواقع، خطرت هذه الفكرة أولاً لكليد كلاكون وهو إنثروبولوجي في هارفارد علاقتي به جيدة.

وقد وردت هذه الحاشية في «الوعود» لأردّ بها على سيدة أمريكية كتبت بلؤم أنني عدت إلى فرنسا لأنني لم أجد عملاً في الولايات المتحدة. حيث أن المنظور الأمريكي لا يمكنه تفسير العودة إلى أوروبا إلا على هذا النحو! وقد حدث سوء التفاهم نفسه مع روبير ديدفيلد، وهو صديق جيد، سبق لي أن سكنت عنده وألمحت إليه -دون تسميته- في نص «نيويورك قبل التصويرية وبعدها»[14] حين ذكرت المنزل الريادي(*) شديد الروعة الذي يمتلكه سوسيولوجي أمريكي في ضاحية شيكاغو. لقد ضغط عليّ كي أبقى في الولايات المتحدة، ولما لم أعره أذناً صاغية قال لميترو: «a case of Eoropean tiredness»(**) في الحقيقة، كان باستطاعتي الاستقرار في الولايات المتحدة منذ زمن طويل. فمنذ البدء، منحني كورت ليفين مركزاً ثابتاً، وبعد إخفاقي في الكوليج دوفرانس قدم لي كروبر عرضاً. وها هو بارسون يمنحني شروطاً استثنائية. فهذا العقد يجعل مني Full Professor مع التثبيت أي أنني سأصبح أستاذ كرسي ولن يستطيع أحد أن يطردني أبداً. لكن لم تكن لدي رغبة في أن أعيش ثانية كمنفيّ.

(*) المنازل الريادية: المنازل التي شادها أوائل رعاة البقر الأمريكيون في مناطق «غير مأهولة».

(**) حالة «السخافة» الأوروبية.

إن إصراري في عدة مناسبات على خيار العودة إلى فرنسا، لا يؤثر في شيء على مشاعر العرفان العميقة التي أكنها للولايات المتحدة. فمساعدتها لي هي التي -ربما- أنقذت حياتي. كما أنني وجدت فيها خلال عدة سنوات مناخاً فكرياً ووسائل للعمل، يعود إليها الفضل في جانب كبير ممّا أنا عليه الآن. لكني كنت أعرف أنني انتمي بكل حواسي ودون رجعة إلى العالم القديم.

د. إ: مع ذلك، يجب تعريفك من الناحية المهنية كأمريكوي!

ك. ل. ش: لقد أصبحت أمريكوياً بالمصادفة. فأول مركز لي في الخارج كان في البرازيل. وآنذاك لم تكن لدي أية فكرة واضحة عن أمريكا الجنوبية، وكان من الممكن، في الواقع، أن أرحل إلى أي مكان آخر. لذلك حريّ بك أن تسألني: لماذا بقيت أمريكوياً. يبدو لي أن أسباب ذلك هي أولاً الانطباع الذي لا يمحى الناجم عن الاحتكاك بالعالم الجديد حيث كل شيء غير محدود مقارنة بالقديم. وثانياً الانبهار الذي بقيت تحت تأثيره والعائد إلى الالتقاء وجها لوجه مع طبيعة عذراء ومهيبة، في حين أنني لم أعرف في العالم القديم إلا طبيعة ذات أبعاد ضئيلة، تشي حتى المظاهر الأكثر «برية» منها بالعمل الدؤوب للإنسان الممتد على مئات بل آلاف السنين.. وأخيراً -وربما هذا هو السبب الرئيسي- لا يبدو لي أن دراسة أية قارة أخرى تتطلب من المخيلة قدر دراسة القارة الأمريكية. فقد سكنتها بشكل أساسي شعوب قدمت من آسيا عبرت الأراضي التي كانت طافية عند الموقع الحالي لمضيق بيرنغ. ولكن متى؟ إن أفضل التقديرات تختلف عن بعضها بهامش خمسة آلاف سنة. ولم يتبق أي أثر من هذه العبورات

المتكررة في حقب مختلفة. فبسبب تغيرات مستوى البحر، ربما ضاعت آثار تلك الرحلات سواء عالياً في الجبال الساحلية أم تحت المياه. وهذا ليس كل شيء: فقد قدّمت أمريكا مشهداً مذهلاً بتنوعه لتجاور ثقافات عالية جداً، وثقافات أخرى ذات مستوى تقني واقتصادي متدنٍ جداً. كما أن أياً من هذه الثقافات العالية لم يدم أبداً: فقد كانت كلٌ منها تولد، تتطور ثم تبيد خلال عدة قرون، ومن المحتمل أن الحضارات التي اختفت قبل وصول الإسبان كانت أوسع معرفة وأكثر رهافة من تلك التي شهد الإسبان انحطاطها، وبهرتهم مع ذلك.

إننا على الرغم من كل الأعمال المتراكمة لم نعرف ولم نفهم بعد ما هي أمريكا. وهي ما تزال كما كانت بالنسبة للمكتشفين في القرنين 15 ، 16 كوكباً آخر. وفي كل سنة تقريباً، يظهر اكتشاف يعيد إثارة الجدل حول كل ما نعتقد أننا اكتسبناه. ومن هنا، فالأمريكوية تشبه إلى حد ما علوم القرن التاسع عشر الغنية بأمل اكتشافات في متناول اليد، وهذا ما يجعلها مثيرة جداً.

د. إ: لكن، لماذا لم تدفعك دعوة تالكوت بارسونز إلى الرحيل من جديد إليها، خاصة بعد إخفاقك المزدوج في الكوليج دوفرانس؟

ك. ل. ش: إن شغفي بالعالم الجديد ما قبل الـ 1492 أمر، واقتلاعي من أوروبا لأعيش في العالم الجديد أمر آخر. إن دعوة هارفارد استطاعت أن تدفعني إلى أن أطرح على نفسي هذا الخيار للمرة الأخيرة قبل أن أرفض، وقد طلبت نصيحة غاستون بيرجيه - مدير الدروس العليا آنذاك- فقال لي: «اقبل دون تردد». لكني كنت

سعيدا بحياتي البوهيمية الصغيرة، وكان الذهاب إلى سوق الأشياء المستعملة أحبّ إلى نفسي من العيش في كامبردج أو ماساشوسيتش.

وعلى ذكر سوق الأشياء المستعملة سأنهي الحديث بطرفة، فقد رجاني بيير موندس - فرانس (الذي عرفته في الولايات المتحدة) أن أصحبه إليه. كان يمنّي النفس بأن نجد فيه وثائق قديمة متعلقة بعائلته تعود إلى زمن استقرارها في الأنتيل. طبعاً لا داعي للقول إننا رجعنا بخُفّي حُنين...



الفصل الخامس

أسرار الرقم 8

د. إ: نشرت عام 1955 «المدارات الحزينة». ما الذي حرضك على كتابة عمل كهذا؟

ك. ل. ش: أولاً: اقتراح جان مالوري مؤسس سلسلة «الأرض الإنسانية» والذي لم أكن أعرفه -آنذاك-، ففكرة رواية أسفاري لم تخطر على بالي من قبل أبداً.

ثانياً: إن اقتناعي في مرحلة الإخفاقات تلك بأنه لم يعد لي أي مستقبل جامعي، أغراني بأن أكتب لمرة دون حذر، وأن أقول كل ما يجول بخاطري.

أخيراً: كان قد مرّ على هذه الأسفار زمن سمح لي بالنظر إليها من بُعد، لذلك أصبح لزاماً العودة إليها: التفكير بها وفلسفتها ووضع تقويم عام لها لا مجرد تسجيلها كاليوميات.

د. إ: «المدارات الحزينة» كتاب كتبته بسرعة، على ما أعتقد.

ك. ل. ش: خلال أربعة أشهر. وقد عانيت خلال كتابته من

تأنيب الضمير لعدم كتابة الجزء الثاني حول بنى القرابة المعقدة الذي كنت ما أزال أعتقد أنني قادر على كتابته. وهُيّء لي أنني أقطع عملي باستراحة يجب أن تكون قصيرة قدر الإمكان. كما اعتقدت أنني ارتكب خطيئة بحق العلم. وقد تأثر الكتاب بهذا الشعور، على الأقل في طبعته الأولى المليئة بأخطاء جسيمة (حتى أنني لم أكلف نفسي عناء تدقيق إملاء الكلمات البرتغالية: كنت أكتبها كما ترن في أذني). إن هذه الطبعة الأولى مسخ تماماً.

د. إ: إنما تم استقبال هذا المسخ بحرارة. فقد كُتبت حوله مقالات عديدة من قبل ليريس، بلانشو...

ك. ل. ش: وجورج باتاي، وريمون آرون أيضاً. نعم، لقد كان تلقيه جيداً، لكن بيعه كان بطيئاً. هل تعلم أن أكاديمية غونكور -وقد صدر الكتاب قبيل منح الجائزة- أصدرت بياناً عبرت فيه عن أسفها لعدم تمكنها من منح «المدارات الحزينة» الجائزة لأنه ليس رواية.

كما تلقيت عدة رسائل، منها رسالة أثرت فيّ بشكل خاص: إنها من بيير ماك أورلان، وهو كاتب كنت أعبده في مراهقتي، لقد كتبت «المدارات الحزينة» مستلهماً كتاباته. وربما أحبّه لأنه بالتأكيد وجد فيه أشياء أتت منه.

د. إ: استقبال حار في الأوساط الأدبية، لكن ماذا عن الأوساط الإثنولوجية؟

ك. ل. ش: كانت أكثر تحفظاً. فمنذ أن فتح بول ريفيه «المدارات الحزينة» أغلق بابه في وجهي. كان نزقاً، ويبدو أنه قرأ السطر الأول «أكره الأسفار والاكتشافات» فاستنتج أنني كنت أخون.

لم أره بعد ذلك حتى أيامه الأخيرة. كان في المصح واستدعاني كي نتصالح.

د. إ: هل تعتبره، مع ذلك، كتاباً إثنولوجياً؟

ك. ل. ش: لقد نقلت إليه صفحات كاملة من «الحياة العائلية والاجتماعية للنامبيكوارا».

د. إ: هل هو برأيك نوع من التركيب لما كنتَ قد فعلته؟

ك. ل. ش: إنه تركيب لما فعلته في ذلك الوقت، ولكل ما كنت أعتقده أو أحلم به أيضاً.



د. إ: ما المناخ الفكري السائد في فرنسا بين عودتك عام 1948 وصدور «المدارات الحزينة» لقد كان انتصار الوجودية...

ك. ل. ش: نعم، لكني كنت بعيداً جداً عن كل ذلك. كنت أقرا الكتب لكني لم أعرف كتّاباً. ولم ألتق بسارتر إلا مرتين أو ثلاثاً، باستثناء غداء في منزل جان بويون بالمصادفة.

د. إ: لكنك كنت تعرف ميرلو بونتي؟

ك. ل. ش: لقد تلى انتخابه في الكوليج دوفرانس إخفاقاتي، وقد قربتنا هذه المصادفة. كما تعرف، يتم الانتخاب في الكوليج دوفرانس على عدة مراحل: يصوّت الأساتذة لإنشاء كرسي،ثم ينتخبون فيما بعد أستاذ الكرسي، كما يختارون -مراعاة للشكليات- مرشحاً آخر في المرتبة الثانية. بعد ذلك تبدي الأكاديمية المختصة

رأيها. والأكاديمية بشكل عام تصادق بلا أي تدخل على القرار المتخذ في الكوليج. وفي النهاية يرفع كل هذا إلى الوزير الذي يقرر. في حالة ميرلو - بونتي قلبت أكاديمية العلوم الأخلاقية ترتيب الكوليج ووضعت غاستون بيرجيه مرشحاً أول. لم يكن ميرلو - بونتي يعرف هذه التعقيدات التي شرحت لي عندما كنت مرشحاً، فاستطعتُ مساعدته لاتخاذ خط سير. في الواقع، خدمه هذا الانقلاب المفاجئ في موقف الأكاديمية، لأن الوزير وحسب العرف المتّبع في حالة الصراع بين الكوليج والمعهد، أسرع لحسم الموقف لصالح الكوليج. وبالتالي صدر تعيين ميرلو - بونتي بسرعة أكبر من المعتاد.

د. إ: اصبحتما صديقين حميمين.

ك. ل. ش: نعم، كنا نلتقي لقاءات عائلية. كذلك مع آل لاكان وآل ليريس..

د. إ: هل كان يحدثك عن نشاطاته؟

ك. ل. ش: كنا نتحدث قليلاً في الفلسفة. إن ميرلو - بونتي هو الذي اقترح أن أتقدم إلى الكوليج للمرة الثالثة، وذلك منذ 1954.

أذكر ذلك جيداً. وأذكر أنني أجبته: أنا الآن بصدد تأليف كتاب «المدارات الحزينة» وعندما ستقرؤونه، أنت وأساتذة الكوليج، لن تفكروا أبداً في محاولة انتخابي. لقد كنت (أسرّ له ما في قلبي) كما يحب ميترو أن يقول.

د. إ: رغم كل شيء، قدّم ترشيحك عام 1959

ك. ل. ش: ليس هذا فحسب، بل إنه ضحّى بثلاثة أشهر من حياته التي كانت نهايتها تقترب بسرعة كبيرة. كان يعرف جيداً وجود

عوائق. فحلفُ فارال القديم ما يزال يضم أنصاراً. لذلك أرهق نفسه كثيراً، قام بزيارات وكتب رسائل كي يضمن ألا يتعارض أي اقتراح مع اقتراحه.

د. ا: تمّ الانتخاب دون صعوبة؟

ك. ل. ش: كان ثمة أصوات معارضة، بعضها لأنني المرشح الوحيد، فالناخبون يفضلون أن تترك لهم حرية الاختيار.

د. ا: هل غيّر دخولك إلى الكوليج ظروف عملك؟

ك. ل. ش: بالتأكيد. نسيت أن أقول لك إنني خلال الفترة الممتدة بين 1953 وحتى انتخابي، مارست عملاً إضافياً هو الأمين العام للمجلس الدولي للعلوم الاجتماعية وهو منظمة غير حكومية ترعاها اليونيسكو. وذلك يأخذ وقتاً بالتأكيد.

د. ا: وماذا كنت تفعل؟

ك. ل. ش: كنت أجهد لإعطاء انطباع بأن منظمة بلا هدف -معلن- وبلا وظيفة -مقررة- لها مبرر للوجود.

د. ا: بلا هدف وبلا وظيفة ومع قليل من المال؟

ك. ل. ش: نعم، بضع وسائل يجب تبريرها بنشاطات تتناسب معها.

د. ا: كنت تستقبل أساتذة وباحثين...

ك. ل. ش: استقبلت كثيراً من الناس. وبشكل خاص، كان عليّ تنظيم اجتماعات دولية وخلق مواضيع للنقاش.

د. إ: في هذا الإطار، قدمتَ نصّك «العرق والتاريخ»[15] عام 1952؟

ك. ل. ش: «العرق والتاريخ» كتيّب طلبت مني اليونيسكو كتابته قبل أن أدخل إلى مجلس العلوم الاجتماعية. لقد صدر عام 1952، وهذا يعني أنه يجب أن أكون قد استلمت وظيفتي في المجلس. لقد طلبوا مني ذلك عن طريق ميترو الذي كان آنذاك في اليونيسكو.

د. إ: كيف كان درسك الافتتاحي في الكوليج دوفرانس، الذي ألقيته في 5 كانون الثاني / يناير عام 1960؟

ك. ل. ش: أفضل مما توقعت بعد ماضٍ بهذا الثقل. وقد تضمن فقرات لا يستطيع فهمها إلا المطلعون كالخواطر الغريبة حول الرقم 8 التي انهمكت فيها منذ بدايته. لم يكن ميرلو - بونتي يحب أن يذكّره أحد بأننا ولدنا في السنة نفسها 1908 فأنا أبدو أكبر منه سناً، لذلك كان يرى نفسه يهرم فيّ. ومن جهة ثانية (ورغم الشهامة التي عاملني بها) لم يقاوم خوفه من أن يكون قد حضن بيضة بط، لاعتقاده أنني أهل للإبداعات الأكثر تنافياً مع المعقول.

ولقد جعلته -وهو يتكهن بكل العلاقات التي يمكن تخيلها بين الكرسي والرقم 8- يترقب ويتخوف من أن أصل إلى ذكر تاريخ ميلادنا المشترك باعتبار أن الفضل في هذا الكرسي يعود له. لقد كان ذلك مناكدة بريئة له. في نهاية الدرس، أسفت لأن هذا الكرسي، أُنشئ متأخراً جداً (فقد كان بالإمكان منذ القرن السادس عشر إسناده إلى أحد أوائل المسافرين إلى البرازيل). كما ذكّرت بعض زملائي الجدد بأن هذا الدرس الذي يصفقون له الآن كان يجب أن يلقى قبل عشر سنوات.

د. إ: هل هو حقاً أول كرسي للإنثروبولوجيا في الكوليج دوفرانس؟

ك. ل. ش: يصعب القول إنه الأول، فقد كان مارسيل موس أستاذ كرسي السوسيولوجيا، لكنه في الواقع درّس الإنثروبولوجيا.

د. إ: كيف تم استقبال درسك؟

ك. ل. ش: كان ميرلو - بونتي يترقب ردة فعل الأشخاص الأكثر عداء لي. وقد قال لي إننا كسبنا الجولة.

د. إ: في الكوليج التقيت ببروديل ثانية.

ك. ل. ش: لم أره منذ البرازيل.

د. إ: وبينﭬينيست...

ك. ل. ش: عضو لجنة مناقشة أطروحتي. ودوميزيل الذي أدخلني إلى مدرسة الدراسات العليا.

إن الاجتماع الأول للأساتذة الذي يشارك فيه الأستاذ الجديد يطرح دائما مشكلة. يدخل المرء فينهض الجميع، يرحبون به ويدعونه للجلوس، فيبحث بعينين قلقتين عن كرسي خالٍ حول الطاولة التي تتسع لقرابة خمسين شخصاً. لقد نبهني ميرلو - بونتي إلى ذلك، وزودني بمخطط للقاعة بحيث أتقدم دون تردد إلى المكان الذي يجلس فيه، حيث سيكون قد جهد لإبقاء كرسي شاغر بجانبه، بينه وبين بينﭬينيست.

د. إ: هل أصبحت علاقتك ببروديل أضيق مما كانت عليه في البرازيل؟

ك. ل. ش: كان مشغولاً جداً بعمله وبعدة مسؤوليات. لا أستطيع القول إننا كنا نلتقي كثيراً خارج اجتماعات الكوليج، إلا عندما أصبح رئيساً للقسم السادس من مدرسة الدراسات العليا، وهو القسم الذي أنتمي إليه أيضاً.

د. إ: هل كنتما تتوافقان جيداً؟

ك. ل. ش: كان بروديل طيباً بعمق، حساساً وسمحاً. وهو رجل يمكن الاعتماد عليه كلياً في الظروف العصيبة. وهو -في الوقت نفسه- يحب السيطرة ولا يقاوم متعة المناكدة اللطيفة لمن يأتي لزيارته. كما أن نبرته مربكة أحياناً. لكنه يعرف أيضاً كيف يسحر عندما يريد وآنذاك يصبح فاتناً.

د. إ: هل يمكن أن تشرح لي نقطة: كان بروديل رئيسا للقسم السادس في مدرسة الدراسات العليا، وكنت -أنت- في القسم الخامس. فكيف أمكنكما الالتقاء؟

ك. ل. ش: كنت أنتمي إلى القسمين معاً. في الواقع، انتميت إلى السادس قبل الدخول في الخامس. فقد استدعاني لوسيان فيفر لإلقاء حلقات دراسية، منذ عام 1949 فيما أذكر.

د. إ: عندما تم انتخابك في القسم الخامس بقيت في السادس؟

ك. ل. ش: نعم، لأن القوانين الإدارية مرنة جداً، ورئيس القسم السادس يفعل تقريباً ما يريده. كان ثمة مَلَكية واضحة.

د. إ: واستمررت في القسمين بعد انتخابك في الكوليج دوفرانس؟

ك. ل. ش: لقد استمررت بضعة أعوام في الخامس، وأكثر قليلاً في السادس الذي تحول إلى مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية حيث بقيت حتى التقاعد، لكن دون تدريس بل بصفة مدير مختبر الإنثروبولوجيا الاجتماعية المرتبط في آن واحد بالـ CNRS وبالكوليج وبمدرسة الدراسات العليا.

د. إ: منذ دخولك إلى الكوليج أسست هذا المختبر الذي اتسع فيما بعد.

ك. ل. ش: كان مقرّنا في البدء في ملحق لمتحف غيميه في شارع يينا: وهو فندق غيميه القديم المميز. وقد شغلتُ مع ثلاثة أو أربعة مساعدين غرفةً كانت فيما مضى حمّاماً: فجدعات الأنابيب تخرج من الجدران المكسوة بالخزف. وتحت قدمي ما تبقى من بالوعة المغطس. كنا لا نكاد نستطيع التحرك في ذلك المكان المزدحم، أما الزوار فأستقبلهم على سطح الدرج حيث نجحنا في وضع كرسيين عتيقين مخلّعين.

د. إ: لماذا كان مقرك في ملحق متحف غيميه؟

ك. ل. ش: وضع المتحف هذا الفندق تحت تصرف القسم الخامس لإنشاء مركزٍ للدراسات الدينية ما يزال موجوداً، وأراد القسم أن يستوعب مختبري الوليد في حجرتين. الكبرى ملأناها كلياً بملفات مجال العلاقات الإنسانية، وهي أداة وثائقية نسختْ منها جامعة يال خمساً وعشرين نسخة على حساب حكومة الولايات المتحدة. وحصلت اليونيسكو على نسخة منها لإعطائها لفرنسا، بشرط أن تجعلها في متناول كل الباحثين الأوروبيين، وبعد عدة محن عهد لنا بها.

د. إ: اعتباراً من تلك اللحظة، بدأ نشاط جديد بالنسبة لك: إدارة فريق ومختبر..

ك. ل. ش: لقد مارست دائماً عملاً إدارياً إلى جانب عملي العلمي أو الفكري، فخلال سنوات دراستي، كنت -كما ذكرت لك- أمين تجمع سياسي ثم أمين سر أحد النواب وفيما بعد أميناً عاماً للمدرسة الحرة للدراسات العليا في نيويورك، ثم مستشاراً ثقافياً للسفارة. إضافة إلى وظائفي الإدارية في متحف الإنسان وفي المجلس الدولي للعلوم الاجتماعية.

د. إ: أردت إنشاء هذا المختبر لأن العمل الإنثروبولوجي -بنظرك- يتجاوز قدرات إنسان بمفرده؟

ك. ل. ش: كلا، فأنا دائماً أصوغ وأقود عملي الفردي وحيداً. لكنني -بإنشاء هذا المختبر- امتلكت إمكانية منح وسائل عمل لبضعة باحثين شباب بفضل المقر والسلفات التي يمكنني الحصول عليها. وفيما يتعلق بي، فإن إدارة المختبر مهمة اضطلعت بها بمنتهى السرور،إذا استثنينا مساعدة السكرتيرة وشراء الكتب وتدبير الآلة الكاتبة.

د. إ: من كان مساعدوك في هذا المختبر؟

ك. ل. ش: منذ البداية إسحاق شيفا وجان بويّون. وفيما بعد لوسيان سيباغ، بيير كلاستر، روبير جولان، فرانسوا وميشيل ايزار. . وبعضهم عمل معي منذ انتقالي إلى متحف الإنسان كلوسيان بيرنو الذي أصبح أستاذاً في الكوليج.

أناط بي لوسيان فيفر إدارة بحث متخصص أحادي الموضوع

حول قرية فرنسية بتمويل من اليونيسكو -أعتقد أنه أول بحث يتم بقصد إثنولوجي- فاخترت لوسيان بيرنو للقيام به، وقد خرج منه بكتاب: «نوفيل، قرية فرنسية». وصدر ضمن أعمال ومذكرات معهد الإثنولوجيا. وفي ظروف مماثلة، أجرى شيفا بحثاً في كورسيكا. وكان هذا بالنسبة لكلينا بداية تعاون طويل سيستمر حتى تقاعدي. إن المختبر وأنا شخصياً ندين لشيفا بالكثير.

د. إ: بعد تأسيس المختبر بفترة قصيرة شرعت بتأسيس مجلة الإنسان.

ك. ل. ش: لقد صدمني ألا يوجد في فرنسا مكافئ لمجلة «الإنثروبولوجي الأمريكي» الأمريكية، أو مجلة «الإنسان» الإنكليزية. وكان همي أن تصبح الإنسان (في البداية اعترضتْ على هذا الاسم مجلة للموضة الرجالية مطالبة بحقها الحصري فيه وتوجب استشارة محامٍ في هذه المسألة) أقول أن تصبح الإنسان ناطقة باسم الإثنولوجيا الفرنسية لا باسم مجموعة معينة. لذلك وجهت الدعوة على الفور لزملاء ليس لهم ارتباط بالمختبر لتشكيل هيئة التحرير.

د. إ: وجهت الدعوة بشكل خاص لبينڤينيست وبيير غورو.

ك. ل. ش: لقد بدا لي أساسياً إظهار السمات الأصلية للبحث الفرنسي، خاصة العلاقة بين الإثنولوجيا والجغرافية البشرية كما تتضح في تراث فيدال دولا بلاش. إن «فلاحو الدلتا التانكينيون» الذي شَهَر بيير غورو، هو كتاب إثنولوجي بمقدار ما هو جغرافي أو تاريخي، أما بينڤينيست فقد عبّرت دعوتنا له عن تقدير الألسنية، وخاصة الألسنية البنيوية التي يمثلها في فرنسا والتي لا يمكن

للإنثروبولوجيا البنيوية -في رأيي- أن تنفصل عنها. من جهة أخرى، فكّر بينفينيست كثيراً بمسائل القرابة في المدى الهند - أوروبي، وكنت أشعر بقربي منه رغم عدم تأويلي للأحداث بالطريقة نفسها.

لكننا -نحن الثلاثة- كنا في الكوليج دوفرانس، ولأن «الإنسان» أرادت أن تمثل الإثنولوجيا الفرنسية فقد كان عليها أن تتوسع أكثر. ولذلك دعونا أندريه لوروا - غوران وجورج - هنري ريفيير وأندريه - جورج هودريكو.

د. إ: لوروا - غوران لم يكن بعد في الكوليج دوفرانس.

ك. ل. ش: دخل عام 1969 ليخلف دوميزيل بعد تقاعده.

د. إ: لماذا لم توجهوا الدعوة لمؤرخ؟

ك. ل. ش: كان الأمر أكثر حساسية. في عام 1960، كانت الإثنولوجيا والتاريخ المتقاربين جداً في منافسة لأسر انتباه الجمهور. ولم أكن متأكداً أن المؤرخين سيتحمسون للمشاركة في مجلة ليسوا حملة رايتها، لكن ذلك تغيّر كثيراً فيما بعد، منذ أن شاع الحديث عن الإنثروبولوجيا التاريخية.

د. إ: بخصوص أندريه هودريكو، ربما قرأت مذكراته الصغيرة التي صدرت منذ فترة قصيرة. وفيها يتحدث عن لوروا - غوران وعنك، ويذكر «لطفكما» مضيفاً «أما ليفي - شتراوس، فثقافته الفلسفية تجعل فهمه صعب المنال. إنه لم ينقم عليّ من جراء انتقاداتنا له (جورج غراني وأنا) بخصوص الاتصالات بين البنى اللسانية وبقية البنى[16]...».

ك. ل. ش: قمت بالرد على هذه الانتقادات في الانثروبولوجيا

البنيوية، وأنا أقدر هودريكو تقديراً عالياً. إنه مفكر متقد وأصيل استطاع أن يجمع في بحثه بين الألسنية وتاريخ التقنيات وعلم النبات وندين له برؤى ثاقبة.

د. إ: يتحدث أندريه لوروا - غوران عن روابطه معك في أحد الحوارات، فيقول: «وكنا -ليڤي شتراوس وأنا- إلى حد ما نقيضين انتهيا إلى ان يلتقيا. فمنذ عشرين سنة كان لدينا إحساس بأننا مختلفان وننتمي إلى عالمين غير متوافقين. واستمر ذلك عدة سنوات. ثم بدأتُ شيئاً فشيئاً افهم ما يريد بشكل افضل، وكذلك فعل هو من جهته. لقد اصبحنا أصدقاء بعد ان كنّا نصبر على بعضنا بريبة. إنني ربما اقضي وقتي غارقاً في ماضٍ كان من الممكن لدراسة البدائيين الحاليين ان تحل محله. وليس مستبعداً انني اتخذت في الزمان المسار الذي اتخذه ليڤي - شتراوس في المكان(*). لكن، في حالتي لم يكن ذلك ملاذاً، فأنا هكذا منذ سن الثانية عشرة[17]». هل انت متفق مع هذا؟

ك. ل. ش: في الإطار العام، نعم. منذ عدة أشهر، نظّم طلابه حواراً لإحياء ذكراه، وطلبوا مني أن أقول بضع كلمات. وقد أشرت فيها إلى هذه المفارقة: لقد تجاورنا -أنا ولوروا - غوران- لزمن أطول بكثير من زمن معرفتنا الحقيقية ببعضنا رغم أن عدداً كبيراً من النقاط المشتركة يوجد بين طرقنا في الرؤية والتفكير. ولقد عُقدت

(*) لوروا - غوران باحث تاريخي مختص بمجتمعات ما قبل التاريخ، وتلك المجتمعات مشابهة للمجتمعات البدائية الباقية إلى اليوم والتي تدرسها الإثنولوجيا. وهكذا يكون عمل لوروا - غوران مماثل لعمل ليڤي - شتراوس: الأول بغوصه في الزمان (دراسة مجتمعات ما قبل التاريخ في مكان محدد) والثاني بامتداده في المكان (دراسة المجتمعات البدائية في أماكن متعددة).

مقارنة بين بعض من نصوصنا، وكان التشابه لافتاً للنظر. فأبحاث كلينا تمتاز باستخلاص الثوابت.

د. إ: هل تشعر إذاً أنه فعل ضمن الزمان ما فعلته في المكان؟

ك. ل. ش: لقد فعل ذلك في المكان أيضاً، بالنسبة لأزمان سالفة. وحتى ضمن منظورك لهذا الأمر، فإنني أسجل تشابهات: ثمة فكرة تطورت على طول عمله مفادها أن التطور التقني للأدوات ذو طابع لا شخصي عموماً، حيث اخترق جميع أنماط الإنسانية، وكأنه لا يعرفها، وهذه الفكرة -مثلاً- تشبه كثيراً ما كنت أقوله عن الأساطير. لقد ساد في الانثروبولوجيا الفرنسية، لسوء الحظ، مناخ موروث من أسلافنا: وهو مناخ من الشك المتبادل. كان كل واحد منّا يحافظ بحرص شديد على ما يعتبره ميدانه الحصري. وقد كان لوروا - غوران يرتاب فيّ لمدة طويلة...

د. إ: كان مختصاً بما قبل التاريخ لكن جزءاً كبيراً من عمله يتعلق بالإثنولوجيا.

ك. ل. ش: كان دائماً يعتبر أن من غير الممكن فصل هذين الميدانين. لكن لو أن مناخاً من الحرية استطاع أن يسود بيني وبين لوروا - غوران ولويس دومون وبضعة آخرين يقومون بأشياء متقاربة في ميادين مختلفة، لكانت الإثنولوجيا الفرنسية ازدادت قوة وتأثيراً - رغم أننا حققنا الكثير على هذا الصعيد- فليفهم خلفاؤنا هذا الدرس.

د. إ: ما هو رأيك بتلك الجملة التي يبدو أنها تقول إن الإثنولوجيا كانت بالنسبة إليك ملاذاً؟

ك. ل. ش: ربما كانت الدعوة الإثنولوجية عند كثير من الإثنولوجيين (وليس بالنسبة لي فقط) ملاذاً من حضارة ومن قرن لا شعور فيهما بالارتياح. وهذا لا ينطبق على الجميع، فمارغريت ميد -مثلاً- كانت تتضامن مع مجتمعها ومع زمنها وتريد خدمة معاصريها. وإذا كنت أحياناً أعلن -بدافع سياسي- عن موقف مماثل فذلك كان يتم من طرف شفتيّ.

د. إ: بالنسبة لك، لا يمكن للإثنولوجيا أن تفيد؟

ك. ل. ش: لم أقل إنها لا يمكن أن تفيد. لكن ليس هذا ما أطلبه منها، ولا هذا ما يمتعني فيها.

د. إ: هل أنت مستمر بالاهتمام بمجلة «الإنسان» التي أصدرتها عام 1961؟

ك. ل. ش: لم أعد أتدخل في عملها أبداً. لا تنسَ أن جيلاً أو جيلين قد حلاّ محل جيلي. وإذا أرادت «الإنسان» أن تبقى الناطق باسم الإثنولوجيا الفرنسية، فيجب أن يضطلع بمسؤولياتها من هم أكثر شباباً. وبناء على ذلك تخليت عن دوري، لكني ما زلت أنشر فيها من وقت لآخر مقالات أو مراجعات. إن جان بويّون يكفل الاستمرارية بموهبة وتفانٍ.



الفصل السادس

البنيوية في باريس

د. إ: نشرت عام 1958 أي قبل عام واحد من انتخابك في الكوليج دوفرانس «الإنثروبولوجيا البنيوية»[18]، وهو تجمع لمقالاتك المنشورة منذ عام 1945.

ك. ل. ش: لقد فكرت بذلك منذ وقت طويل، فقبل كتابة «المدارات الحزينة» أخذت هذا الكتاب أو بالأحرى مشروع الكتاب إلى غاليمار، واستقبلني بريس باران الذي لم يوافق على نشره قائلاً: إن فكرك ليس ناضجاً. وبعد «المدارات الحزينة» بذل غاستون غاليمار جهداً لاستعادتي! بينما رحّب «بلون» بالمشروع فارتبطت بدار نشره.

د. إ: هل تعلم أن بريس باران رفض -بعد عدة سنوات- «تاريخ الجنون»؟

ك. ل. ش: كنت أجهل ذلك، هذا يشكل عزاء لي.

د. إ: كان عنوان كتابك ضارياً في الآفاق. هل هو بيان لمنهجك؟

ك. ل. ش: يهيأ لي أن هذا العنوان انتشر من تلقاء نفسه فهو

«تحصيل حاصل». لقد عُرفتُ في البنيوية، كما مارسها الألسنيون. لكن لا تنسَ أن البنيوية لم تكن قد أصبحت ما فعلت منها الموضة. لقد أردت من خلال هذا العنوان أن أقول ببساطة إنني واقع في القطاع الفكري لسوسور وتروبتسكوي وجاكوبسون وبينڤينيست، أو على الأقل هذا ما كنت أطمح إليه.

د. إ: على أية حال، هو عنوان كوّن ثروة.

ك. ل. ش: سيئة بقدر ما هي جيدة

د. إ: هل تندم على اختيارك لهذا العنوان؟

ك. ل. ش: إطلاقاً. لكن الرواج الذي عرفته البنيوية. انطوى على كل أشكال النتائج المكدرة، فقد تم إفساد المصطلح، وأقيمت منه تطبيقات غير شرعية بل مزرية أحياناً. وأنا لا أستطيع شيئاً حيال ذلك.

د. إ: كيف اخترت مقالات هذه المجموعة؟ لقد تركت كثيراً من المقالات جانباً، خاصة المقال الذي نشر في «الأزمنة الحديثة» عام 1951 حول «الأب نويل المعذّب».

ك. ل. ش: جمعت المقالات التي توجد في مستوى فكري واحد ويظهر بينها بعض التجانس، وقد بدا لي المقال الذي ذكرته سطحياً قليلاً وصحفياً قليلاً، وكان سيحدث شرخاً في الطابع العام للعمل. لكني مع ذلك لا أتنصل منه.

د. إ: قلت غالباً إنك لا تحب السجال. لكننا نجد في «الإنثروبولوجيا البنيوية» نصاً سجالياً برمته[19]

ك. ل. ش: كنت أكثر شباباً وميلاً للنزال، وتغيظني كثيراً المهاجمات والانتقادات. لكن هذه السَّورة فترت مع العمر. من جهة ثانية، كُتب عني الكثير من المقالات والكتب -وهي غالباً غير ودية- فلو انقدت للسجال لامتصّ ذلك كل وقتي. ولما فعلت شيئاً آخر.

د. إ: هل تقرأ الانتقادات الموجهة لك؟

ك. ل. ش: بالمصادفة. فالذين يكتبون عني بطابع سجالي - خاصة الإنكليز والأمريكيين- يتجنبون بشكل عام إرسال كتبهم إليّ. لذلك لا أعرف بوجودها إلا بعد سنتين أو ثلاث من خلال المجلات المتخصصة التي تكتب عنها أو تحللها. وبالتالي تكون قراءتها أو مناقشتها «بائتة».

د. إ: ما شعورك عندما تقرأ مقالاً عنك؟

ك. ل. ش: إذا كان عدائياً، يثيرني لأني أفكر بوجوب تصحيح الأخطاء الفعلية وتبديد سوء الفهم. مع ذلك، فإنني لا أحمل على المؤلف بسبب ما يطرحه بالذات، بقدر ما أحمل عليه بسبب الرغبة التي يثيرها فيّ لقطع عملي والرد عليه. ثم أهدأ بعد لحظة هياج مدركاً أنني قد لا أقنعه. وما زلت إلى الآن أشعر أحياناً عند وجود مخالفة للحقيقة أو سوء نية واضحتين، أنني ملزم بوضع حدّ لهما. لكن هل يفيد ذلك في شيء؟ إن إيماني بهذا يقل تدريجياً.

د. إ: في الإنثروبولوجيا البنيوية، هل كتبت النص المضاد لغورفيتش ورودنسون وروفيل خصيصاً من أجل هذا المجلد؟

ك. ل. ش: لقد تعرفت على غورفيتش في المدرسة الحرة للدراسات العليا في نيويورك: وهو عضو فيها آنذاك. في البدء، كنا

متوافقين بشكل تام. وقد عهد إلي بفصل حول السوسيولوجيا الفرنسية ضمن عمل جماعي عنوانه السوسيولوجيا في القرن العشرين»[20].

د. إ: هل تحدثت عنه في هذا الفصل؟

ك. ل. ش: بالتأكيد. فقد بذلت جهداً كبيراً لفهمه، وقد قال لي إن هذا أفضل ما كتب عنه على الإطلاق.

د. إ: كان يهيمن على السوسيولوجيا في تلك الحقبة؟

ك. ل. ش: أقل مما كان يتصور.

د. إ: لكنه كان يمتلك الكثير من النفوذ.

ك. ل. ش: لقد غدا أستاذاً في السوربون. وكانت له -بسبب طبعٍ قلقٍ وحساسيةٍ مرضية- ردود أفعال عنيفة أحياناً، يخشاها الآخرون. كما كان بمقدوره أن يضمر أحقاداً شديدة بمقدار اقتناعه العميق بأنه جدّد الفكر السوسيولوجي برمته. إن إسهام غورفيتش لا يمكن إهماله، لكن خياله كان يضخمه.

د. إ: لقد كتب مقالاً ضدك[21] رددتَ عليه في الفصل 16 من الانثروبولوجيا البنيوية.

ك. ل. ش: لم أتوقع منه هذا الهجوم أبداً. فكل شيء كان يدفعني للاعتقاد أن علاقتنا منسجمة بل ودية. لكن كان عليَّ أن أستشعر إشارة خطر، فعندما طلب مني أن أكتب مقدمة لأعمال مختارة لمارسيل موس ضمن سلسلة كان يديرها، حرص على أن يكون رسمياً. وكان واضحاً أن نصي لم يعجبه. فبعد أن قرأه، أضاف إلى

المسودة حاشية صغيرة تنم عن استنكاره. وهنا بدأت الأمور تتكدر[22].

د. إ: ما كانت ردة فعله على ردّك عام 1958؟

ك. ل. ش: لم نلتق بعد ذلك.

د. إ: في النص نفسه، قمت بالرد على كتاب جان - فرانسوا روفيل «لماذا الفلاسفة؟»[23]. إن تخصيصه لفصل كامل تقريباً عنك، عام 1957، يدل على أن شهرتك بدات تطال اوساطاً أوسع من حلقات الاختصاصيين.

ك. ل. ش: لقد حدث هذا بعد «الإنثروبولوجيا البنيوية». ليس لأن هذا الكتاب أثّر في العامة، إنما لأنه أثار اهتمام وتعليق الفلاسفة والسوسيولوجيين والمؤرخين.



د. إ: «الطوطمية اليوم»[24] و«الفكر البدائي»[25] وهما الكتابان التاليان، سجّلا عام 1962 نقطة انطلاق جديدة في بحثك.

ك. ل. ش: أعتقد أن نقطة الانطلاق هذه أبكر من ذلك، وبالتحديد عندما تم انتخابي في القسم الخامس من مدرسة الدراسات العليا، وهو القسم المختص بالعلوم الدينية. فقد كنت، حتى ذلك الوقت، منهمكاً بشكل خاص بقواعد الزواج وأنظمة القرابة، وتحتّم عليّ أن أغيّر موضوعي بين ليلة وضحاها. إنك بهذا المعنى محق تماماً. فهذان الكتابان مهمان بالنسبة لي لأنني شرعت فيهما بمرحلة ثانية هي الأطول على المدى البعيد في حياتي المهنية، وهي

المرحلة المكرسة لدراسة التصورات الدينية. لقد شكّلا إلى حد ما توطئة لـ«أسطوريات».

د. إ: إن نصوصهما سلبية، فهما -إذا جرؤت على القول-: عمل تشذيبي.

ك. ل. ش: كلمة سلبية غير مناسبة، بل حريّ بنا القول إنها نقد بالمعنى الكانطي، كان يجب أن أخلّص الإثنولوجيا من عدد من الأوهام التي تعتّم دراسة الأفعال الدينية في المجتمعات بلا كتابة. كان يجب أيضاً أن أحاول إطلاق الإشكالية التي سأهتم بها في السنوات القادمة.

د. إ: مع «الفكر البدائي» راجت «البنيوية». .

ك. ل. ش: هذه ظاهرة ثانوية بالنسبة لي لم أقيّم حجمها أبداً. ولو أنني عكفت على استغلال هذا الرواج لتبوأت -ربما- مكانة أكثر رفعة في الفكر المعاصر، لكن ثمن ذلك هو المجاملات التي لم أخلق لها.

د. إ: لكنك لعبت اللعبة! وافقت على كثير من المقابلات الصحفية، ولم ترفض الفرص التي مُنحت لك لتعبر عن أفكارك.

ك. ل. ش: هذا صحيح في السنوات الأولى، لكني -فيما بعد- انسحبت إلى داخل قوقعتي.

د. إ: في الستينات والسبعينات، جرى الحديث «عن» البنيوية كظاهرة كلية، وكانت بهذه المناسبة تذكر لائحة من الأسماء: ليفي-شتراوس، فوكو، لاكان، بارت...

ك. ل. ش: هذا يغيظني دائماً لأن هذا الخلط ليس له أي أساس. فأنا لا أرى ما هو مشترك بين الأسماء التي ذكرتها. أو لنقل إني أراه افتراءات وأغاليط. أنا أشعر بالانتماء إلى عائلة فكرية أخرى، تلك التي برز فيها بينفْينيست ودوميزيل. أشعر أحياناً بقربي من جان بيير فيرنان ومن عمل معه. لقد رفض فوكو أيضاً هذا التشابه محقاً.

د. إ: كيف كانت علاقتك بفوكو؟

ك. ل. ش: كنت أراه من بعيد في اجتماعات الكوليج. ومرة دعانا فرانسوا جاكوب إلى عشاء مشترك. هذا كل شيء. غنيٌّ عن القول إنني قرأت أعماله التي كان لطفاً منه إرسالها إليّ. ما يثيرني في أعماله ميزات أسلوبه. أذكر درسه الافتتاحي في الكوليج دوفرانس الأخاذ من الناحية الأدبية، والمثير للانفعال. بالمقابل، إنني متحفّظ إزاء الرأي المسبق الذي يقوم على الترديد وبكل النبرات: انتبهوا، الأشياء ليست كما تعتقدون، إنها مغايرة، أي التأكيد إجمالاً على أن الأسود أبيض والعكس. إن ذلك يطلعني على آراء المؤلف لكنه لا يعطيني أي شيء آخر: فالموجب والسالب للصورة يتضمنان الكمية نفسها من المعلومات.

أيضاً. لا أستطيع أن أقاوم انطباعاً بأن فوكو تصرّف قليلاً بالتأريخ Chronologie -ولن أحاول تبرير هذا الانطباع لتعذر التحقق منه- وكأن فوكو كان يعرف مسبقاً ما يريد إثباته ثم يبحث فيما بعد عمّا يسند طرحه. إن هذا يزعجني من طرف مؤرخ أفكار. لكني ربما أكون مخطئاً، فهذه نقطة لا يستطيع البت فيها إلا المؤرخون المهنيون.

من نافل القول أن فوكو لعب دوراً إيجابياً في إعادة الثقة

بالفلسفة لجيل كامل. لقد أقنع مريديه بأن فلسفة مريضة بالوجودية يمكنها أن تعاود انطلاقتها بشرط أن تعكف منهجياً على دراسة الأشياء العيانية.

د. إ: هل وجدت ما تود فعله بالطريقة نفسها؟

ك. ل. ش: حتماً لا. لم يكن لدي أبداً طموح لإعطاء أسس للفكر الفلسفي. إن ما أبعدني عن الفلسفة باتجاه الإثنولوجيا هو - تحديداً- أنّ من الضروري لفهم الإنسان تجنب الانغلاق داخل الاستبطان، أو الاكتفاء بدراسة مجتمع وحيد -مجتمعنا-، أو التحليق فوق عدة قرون من تاريخ العالم الغربي. لقد أردت أن يتم الاهتمام بالتجارب الثقافية الأكثر اختلافاً عن ثقافتنا والأكثر ابتعاداً عنها. ولم تكن تلك مسيرة فوكو الذي اهتم حصراً بثقافتنا حتى عند تضمينها ماضيها.

د. إ: ما علاقتك برولان بارت؟ لقد أعيد نشر نص صغير وجهته له بخصوص كتابه S/Z.

ك. ل. ش: إنه نص كتبته على سبيل النكتة. لم يعجبني S/Z فتعليقات بارت شبيهة إلى حد بعيد بتعليقات الأستاذ ليبيلّول في سلسلته «على طريقة راسين أو مولر أو روبو». وهكذا أرسلت له هذه الصفحات بدافع الدعابة قليلاً ولكي أتخلّص من ورطة وبدلاً من الإطراءات التي لم أشعر أنني قادر على كتابتها. لقد أخذ بارت هذا المقال على محمل الجد. وفيما بعد، طُلب مني إعادة نشره فوافقت. لمَ لا؟[26].

د. إ: هل قرات كتباً أخرى لبارت؟

ك. ل. ش: بالتأكيد. لكني لم أحسّ أبداً أنني قريب منه. ولقد تيقنت من هذا الشعور من خلال تطوره اللاحق. فبارت اللاحق ناقض تماماً بارت السابق الذي لم يكن -بقناعتي- على سجيته.

د. إ: وعرفت لاكان جيداً.

ك. ل. ش: بقينا صديقين لسنوات عديدة. كنا نذهب مع آل ميرلو - بونتي للغذاء في غيترانكور حيث يوجد منزله. كان قد اشترى سيارة، وكانت لديه رغبة كبيرة في قيادتها. وقد توافق ذلك مع رغبتي أنا وزوجتي بالتجول في الريف. هكذا قمنا برحلة ممتعة جداً معه ومع زوجته... كان يجب رؤية لاكان وهو يرسو عند فندق بائس في محافظة نائية معطياً أوامره الإمبراطورية بأن يُهيأ له الحمام في الحال!

لم نكن نتحدث عن التحليل النفسي أو الفلسفة إنما عن الفن والأدب. فقد كان يمتلك ثقافة واسعة ويشتري لوحات وأعمالاً فنية، وكان هذا يأخذ حيزاً من مناقشاتنا.

د. إ: عندما بدأت دروسك في القسم الخامس من مدرسة الدراسات العليا، ابتدأ لاكان «حلقاته الدراسية» الشهيرة. هل حضرتها؟

ك. ل. ش: حضرتها عندما أقيمت لأول مرة في شارع أولم[*]. وعندما أغلقت المدرسة العليا لإعداد المعلمين بابها في وجه لاكان، تدخلتُ لدى بروديل كي تستقبله مدرسة الدراسات العليا. وذلك رغم قناعتي بأنه مخطئ كلياً.

---

[*] شارع أولم: هو الشارع الذي توجد فيه المدرسة العليا لإعداد المعلمين.

د. إ: ما رأيك بأعماله؟

ك. ل. ش: يجب فهمها. كان لدي انطباع بأن «فهمها» لا يعني لي ما يعنيه لمستمعيه المتحمسين. إذ يلزمني لذلك خمس قراءات أوست. وكنت أتحدث مع ميرلو - بونتي عن ذلك مستنتجين أن الوقت ينقصنا.

د. إ: مع ذلك استشهدت به.

ك. ل. ش: مرة واحدة فقط -على ما أعتقد- بدافع الصداقة بشكل خاص.

د. إ: ورغم صداقتكما، فقد أغاظك أن يقترن اسمه مع اسمك في كوكبة «البنيوية».

ك. ل. ش: أعترف بذلك، لكنه أصبح -آنئذٍ- أشبه بالمرشد وكانت علاقتنا قد تراخت كثيراً.

د. إ: تؤكد ايزابيل رودينسكو في كتابها «تاريخ التحليل النفسي»[27] أن لاكان بقي حزيناً لعدم حصوله على مركز جامعي، وبالأخص لعدم وجوده في الكوليج دوفرانس.

ك. ل. ش: لم يحدثني عن ذلك. لكن هذا ممكن.

د. إ: ألم تفكر أبداً بترشيحه إلى الكوليج دوفرانس؟

ك. ل. ش: لم تخطر هذه الفكرة في بالي. وكما قلت لك، فهو لم يلمّح لي ولا لميرلو - بونتي أمامي إلى ذلك أبداً.

الفصل السابع

في الكوليج دو فرانس

د. إ: الكوليج دوفرانس مؤسسة لامعة. وهي هرم الحياة المهنية الجامعية. مع ذلك، قلت لي ذات يوم إنك مارست عملك بشكل كامل خارج الجامعة التقليدية.

ك. ل. ش: إنها مؤسسة لامعة لكنها منذ أنشأها فرانسوا الأول كانت «خارج الجامعة»، وعزمَتْ على البقاء كذلك. قبل ذلك درّست في البرازيل وفي الولايات المتحدة، ثم في فرنسا في مدرسة الدراسات العليا، ولم أدرّس إطلاقاً في الجامعة.

د. إ: ما الميزات التي وجدتها في العمل خارج الجامعة التقليدية؟

ك. ل. ش: حرية كبيرة جداً، وبمعنى ما، التمتع بفكر خارج عن النظام، إن الالتزامات المحددة والمنتظمة تثبط عزيمتي: اتباع منهج دراسي، امتحان الطلاب، الاشتراك في لجان المناقشة (لم أكن أستطيع تجنبها أحياناً). أما في الكوليج دوفرانس فالأستاذ غير ملزم إلا بمعالجة موضوع جديد كل سنة، وهذا يناسبني تماماً.

د. إ: إنها حرية خصبة، فقد تحوّل معظم دروسك إلى كتب كما ذكرت في مقدمة «الوعود»[28].

ك. ل. ش: منذ دخولي إلى الكوليج اختلط التدريس بالكتب، إنما تحت شكل معدّل. فالدروس تفيد كمسودّات.

د. إ: درّست في الكوليج من 1960 حتى 1982، ما الأحداث التي ميّزت تلك الحقبة الطويلة؟

ك. ل. ش: الحدث الأكبر بلا شك هو تأسيس مختبر الإنثروبولوجيا الاجتماعية في أبنية الكوليج.

أذكر أن أستاذ كرسي الجيولوجيا قد استقبلني منذ زياراتي الأولى كمرشح عام 1959. كان مخبره في الطابق الأخير يشغل جناحاً من المبنى الذي شيّده شالغران في نهاية القرن الثامن عشر. وهو مؤلف، إضافة لمكتب الأستاذ والمخازن، من قاعتين كبيرتين يعمل فيهما عدد قليل من الأشخاص على طاولات كبيرة من البلّوط. وعلى طول الجدران ذات الزوايا المزخرفة أثاث من خشب الأكاجو بارتفاع الدعامة، عارٍ لكنه رائع بتصميمه وتناسبه. ومن الممكن أن يشكل بعد الإصلاح أرفع أثاث لمكتب. وقد علمت أيضاً أنه يحتوي على مجموعات الملك لويس الثامن عشر المعدنية.

كان أستاذ الكرسي كما يبدو ملكياً. وربما لهذا السبب كان يروقه أن يحتفظ مكتبه بأريج الزمن الماضي. فقد وضع تمثالاً من الرخام الأسود لهنري الرابع بالحجم الطبيعي في صدر مكتب فسيح. أما النوافذ فتطل على أوراق أشجار معمرة.

صعقني رونقه فقلت لنفسي لا مكان في العالم أُحب أن أقضي

فيه أيامي أفضل من هذا المكان الواسع والصامت والسرّي، والذي حافظ على طابع مكان للعمل الجماعي كما يمكن تخيّله في منتصف القرن التاسع عشر. إنّ هذا هو الكوليج دوفرانس الذي كنت أطمح بالدخول إليه: منزل كلود بيرنار، ارنست رينان...

وقد شاء القدر فيما بعد أن يشغر كرسي الجيولوجيا المتوسطية فتقرر في اجتماع الأساتذة استبداله بكرسي علم الفلك. ورغم وجود مختبر الجيولوجيا في الطابق الأخير، فإنه كما يبدو لم يكن قريباً من السماء بشكل كاف كي يصبح مقراً مناسباً لكرسي علم الفلك! وقد اقترح مارسيل باتايّون، مدير الكوليج آنذاك، أن يجعله مقراً لنا ووافق اجتماع الأساتذة على ذلك. وهكذا تحققت المعجزة التي لم أكن أجرؤ أبداً على توقعها عندما دخلت إلى هذا المكان أول مرة.

عندما تركنا شارع يينا وفندق اميل غيميه القديم المميز (الذي استقررنا فيه بشكل مؤقت) كي نستلم المقر الجديد، تمّ نقل أثاث الأكاجو والمجموعات المعدنية إلى مودون ضمن الأملاك التي ورثها الكوليج عن مارسلين بيرثلوت. وضعنا مكتبتنا في إحدى القاعتين ووضعنا في القاعة الأخرى المركز الوثائقي للإثنولوجيا المقارنة (وهو الاسم الذي أعطيناه لملايين بطاقات الملفات القادمة من يال). كان يلزمنا للأسف شيء من التقطيع لإنشاء خلايا فردية. ففي القاعة المشتركة غدا العمل مستحيلاً بسبب ضجة الآلات الكاتبة والمناقشات. لكني أردت على الأقل أن يبقى مكتب الأستاذ على حاله بخزائن كتبه السابقة وخشبياته المرسومة كالبلوط. ومن جهة أخرى كان من الضروري إصلاح كل شيء، فالمكان لم يُطلَ منذ أربع وعشرين سنة.

د. إ: بقي مختبر الإنثروبولوجيا في الكوليج «القديم» طيلة فترة تدريسك.

ك. ل. ش: نعم، لكننا اصطدمنا سريعاً بصعوبات. كان عددنا يتجاوز الثلاثين من موظفين وتقنيين وعلميين. ونظراً لعدم توفر عدد كافٍ من المكاتب كان ينبغي على نصف الباحثين المرتبطين بالمختبر أن يعملوا في بيوتهم، أو أن ينتظروا إرسال أحد المحظوظين جداً في بعثة لشغل طاولته خلال عدة أشهر. أخذت المكتبة تكبر، ولم نكن نعرف أين نضع الكتب. خاصة أننا استمررنا في تلقي البطاقات من يال بالكيلوغرامات. وكان توزيعها على الأدراج المتوضعة فوق بعضها متجاوزة ارتفاع قامة الإنسان يهدد الأرضيات القديمة بالانهيار. بدأت الطرود غير المفتوحة تتراكم في كل الزوايا. إن مبطق Fichier «الملفات» الذي سخر منه البعض ببلاهة يشكل مكتبة: فهو يضم آلاف الكتب والمقالات مفهرسة صفحة صفحة بل سطراً سطراً مصوّرة بالكامل. لكن إمكانية الاستفادة من هذا الكنز الفهرسي -الذي كنا ملزمين بجعله في متناول الجميع- أصبحت محدودة.

وهنا تحققت معجزة أخرى. في عام 1977 منح رئيس الجمهورية للكوليج جزءاً من الأبنية القديمة لمدرسة البوليتكنيك الواقعة على جبل سانت - جينيفييف. فقرر الكوليج أن يجمع فيه بعض مختبرات العلوم الإنسانية. ومن بينها مختبرنا. فكسبنا بذلك مساحة مضاعفة. وقد لزمنا سبع سنوات من الجهد للحصول على الاعتمادات المالية من أجل القيام بالأعمال، لكني استطعت مرة أخرى قبل أن أتقاعد عام 1982 السهر على تهيئة مقر يتمتع هو أيضاً بسحر تاريخي، مع الاهتمام باحترام العمارة وتزيينات مدّرج أراغو الجليل الذي سيُقدّر له أن يصبح مكتبتنا وحوله تتوزع مكاتبنا.

وفي ربيع عام 1985، انتقل إلى هذا المقر الجديد فرانسوا ارتييه - أوغه، أستاذ كرسي الدراسات المقارنة للمجتمعات الإفريقية، الذي تم استدعاؤه ليخلفني كمدير للمختبر محاطاً بفريق أكثر عدداً، وراغباً في أن أستمر بالانتماء إلى المختبر. وهكذا بدأ مختبر الإنثروبولوجيا المؤسس عام 1960 حياته الثالثة.

د. إ: ألم تحتفظ بمسؤوليات في مختبر الإنثروبولوجيا الاجتماعية بعد تقاعدك كأستاذ؟

ك. ل. ش: آه، لا! إنني -على العكس- أنتبه إلى ألاّ أكون -وأنا متقاعد- أكثر من عضو عادي كالآخرين بل أكثر انعزالاً منهم. لقد عرفت عندما كنت شاباً كثيراً من القدامى الساعين بضراوة إلى الخلود، وقد عاهدت نفسي ألا أكون كذلك أبداً. لكني لا أرفض إبداء رأيي إذا ما طلب مني ذلك.

د. إ: كيف اجتاز مختبرك أحداث أيار 68؟ وأقول مختبرك لأنه في تلك الحقبة كان كذلك بالفعل.

ك. ل. ش: لقد اهتز الكوليج دوفرانس على الرغم من عدم حدوث شيء خطير فيه. كان الوضع خاصاً. فالكوليج أشبه -منذ تأسيسه- بأكاديمية منه بمنشأة جامعية: فهو يضم حوالي خمسين أستاذاً يديرونه معاً. وله بذلة خاصة به لم يرتدها أحد على حدّ علمي، لكنها تبرز الاختلاف: فقد حلت محل الرداء الجامعي وهي شبيهة ببذلة أعضاء المعهد عدا أن تطريزاتها بنفسجية.

لقد تطورت ظروف العمل خاصة بالنسبة للمعلمين الذي كانوا يجدون حاجتهم من المساعدين غالباً عن طريق الـ CNRS

ومؤسسات خارج الكوليج، فأنشؤوا المختبرات وانضمت إليهم أعداد متزايدة. وفي سنوات الستين أصبح الكوليج، إضافة لأساتذته، يستقبل أو يدفع أجوراً لآلاف المساعدين من اختصاصات مختلفة، وقد طالب هؤلاء بأن يتم الاعتراف بهم كجزء متمم للمؤسسة وأن يكون لهم الحق بإبداء رأيهم والمشاركة في الإدارة. كانت مطالبهم مختلفة تبعاً لكل مختبر لكن صياغتها ضد الكوليج تغير طبيعة المؤسسة كلياً.

د. إ: هل طرحت المشكلة في مجموعتك أيضاً؟

ك. ل. ش: كان يسيطر في مختبر الإنثروبولوجيا فكر يساري وخاصة MLF[*]: فالنساء فيه كنّ أكثر عدداً من الرجال. وعندما استشعرت الاحتجاجات انسحبت إلى منزلي تحت ذرائع مختلفة وتركتهم وشأنهم. وقد استمر الاضطراب الداخلي ثمانية أيام، وبعدها أتوا في طلبي.

د. إ: يورد ريمون أرون في مذكراته رسالة كنتَ قد وجهتها له في أكتوبر / تشرين الأول 1968. وفيها كنت تعلق على وضع الجامعة، وبالمناسبة تحدثت عن مختبرك وطريقة عمله «دون تمييز في الدرجة أو الوظيفة»[29].

ك. ل. ش: لقد ساعدنا ذلك جداً في تجاوز الأزمة. في البدء كان المختبر صغيراً ولم يبد لي مفيداً إحداث قسم إداري. كنا نعقد اجتماعات دورية يشارك فيها الجميع على قدم المساواة -حتى عاملة التنظيف- ونمارس ديمقراطية مباشرة، فبماذا نطالب؟ ولقد استمر

---

[*] MLF (حركة تحرير النساء) حركة فرنسية نسوية تأسست عام 1968 لتناضل من أجل المساواة والاستقلال الاقتصادي والجنسي والثقافي للنساء.

هذا النظام بارتياح عام حتى رحيلي. وكان من الممكن أن يستمر على هذا النحو لولا أن الـCNRS فرضت قواعد للإدارة أكثر تعقيداً.

د. إ: هل تم إقحامك بصفتك باحثاً خلال فترة الاضطراب عام 1968؟

ك. ل. ش: أبداً.

د. إ: ولا حتى من قبل المناضلات النسويات؟

ك. ل. ش: كان ثمة اثنتان مثارتان قليلاً، وقد طُلب منهما ترك المختبر بعد الموافقة الجماعية بالطبع.

د. إ: في تلك الفترة، كيف جرت الأمور بينك وبين بقية أساتذة الكوليج؟

ك. ل. ش: كانت المواقف داخل الكوليج معقدة بسبب الاختلاف في الرؤى بين من يسمون «العلميين» وبين الآخرين. فعالم الأحياء أو الفيزيائي لا يستطيع العمل بدون مختبر: أما بالنسبة لـ«أدبي» مثلي، فلم يكن الأمر مماثلاً: فأنا أستطيع أن أغيب عن المختبر متى شئت دون أن يؤثر ذلك إلاّ قليلاً على عملي. ولذلك كان رأيي متعارضاً مع رأي زملائي العلميين الذين كانوا يسعون لحل مقبول لهم ولمجموعاتهم في الوقت نفسه. أما أنا فكنت أدافع عن الفصل: من جهة، بين الكوليج كما يجب أن يكون (وحدة مقتصرة على خمسين أستاذاً) وبين المختبرات، من جهة ثانية، وأن يترك للعاملين بها تنظيم شؤون عملهم كما يشاؤون دون أن يكون للكوليج بحصر المعنى أي علاقة بها، باستثناء الاعتمادات المادية التي يمنحها للمختبرات التي يديرها أساتذته ومتطلبات الإقامة للمختبرات الواقعة ضمنه.

د. إ: بشكل أعم، كيف عشت أحداث أيار 68؟

ك. ل. ش: تنزهت في السوربون المحتل بنظرة إثنوغرافية. واشتركت أيضاً مع أصدقاء بجلسات مناقشة. وقد تمّت واحدة أو اثنتان منها في بيتي.

د. إ: لكنك لم تتخذ اي موقف خلال مجريات الأحداث؟

ك. ل. ش: كلا. بمجرد انتهاء اللحظات الأولى من الفضول، وسأمي من بعض الطرائف، أثار أيار 68 اشمئزازي.

د. إ: لماذا؟

ك. ل. ش: لم يعجبني قطع الأشجار كي تصنع منها حواجز (الأشجار تعبير عن الحياة: هذا شيء يحترم)، ولم يعجبني أن تتحول الأماكن العامة إلى صناديق قمامة فهذه الأماكن هي ملك ومسؤولية الجميع، ولم يعجبني أن تُغطى الأبنية الجامعية والأبنية الأخرى بالكتابات ولا أن يُشلَّ العمل الفكري وإدارة المؤسسات بالجدل العقيم.

د. إ: لقد كانت مع ذلك لحظة زخم وابتكار وتخيل... وهذا لابد انه يثيرك.

ك. ل. ش: آسف لأنني أخيب أملك. لم يثرني ذلك إطلاقاً. لقد رأيت أن أيار / ماي 68، مثّل مزيداً من الانحدار على سلم التطور الجامعي، وهو انحدار ابتدأ منذ وقت طويل. فقد كنت أعي منذ المرحلة الثانوية أن جيلي لا يمكن مقارنته مع جيل بيرغسون أو بروست أو دوركهايم عندما كان لهم العمر نفسه. لا أعتقد أن أيار / ماي 68 قد هدّم الجامعة، والأحرى أن يقال إنه وُجد لأنها كانت تتهدم.

د. إ: ألم تمثل هذه العدائية تجاه أيار/ ماي 68 قطيعة كلية مع التزامك في شبابك؟

ك. ل. ش: إذا أردت البحث عن آثار هذه القطيعة فإنني أجدها أبكر من ذلك بكثير، وتحديداً في الصفحات الأخيرة من «المدارات الحزينة»، أذكر أنني بذلت قصارى جهدي للحفاظ على رابط مع ماضيّ الأيديولوجي والسياسي. وعندما أقرأ هذه الصفحات من جديد، يبدو لي أنها تعطي انطباعاً خاطئاً. فالقطيعة تمّت منذ زمن طويل.

د. إ: تحدثت منذ قليل عن رسالة وجهتها إلى ريمون آرون، متى تعرفت عليه؟

ك. ل. ش: لم أعد أذكر، لكن حتماً بعد الحرب. قبل ذلك، ربما قابلته عند برونسفيتش الذي كان يقيم استقبالاً كل أحد صباحاً، وقد ذهبت إلى هناك مرة أو مرتين.

د. إ: تدل مراسلتك له على بعض الحميمية في علاقتكما.

ك. ل. ش: كانت بيننا علاقات ودية متبادلة لكني لا أستطيع القول إننا تواصلنا حقاً. لقد تراسلنا عدة مرات، وما زلت أحتفظ بعدة رسائل منه.

د. إ: إنك تعرف القول الشهير «من الأفضل أن تكون مع سارتر على خطأ من أن تكون مع آرون على حق» لكنك كنت من الذين يفضلون أن يكونوا «مع آرون على حق».

ك. ل. ش: دون أدنى شك.

د. إ: عند موت ريمون ارون صرّحت بأنه كان «فكراً مستقيماً»[30] هل كنت تتابع تحليلاته؟

ك. ل. ش: لم أقرأ مقالاته بانتظام، لكن عندما يقع أحدها تحت عينيّ فإنه يذهلني بصفاء فكره ودقة أحكامه.

د. إ: في الوقت نفسه، كنت تقابله opposez مع سارتر ذي الفكر الذي تصنفه من «الخطأ».

ك. ل. ش: نعم، بكل تأكيد، لكن سارتر كان عبقرياً، الكلمة التي لا تنطبق على آرون. إن سارتر كائن فريد بموهبة أدبية هائلة وقدرة على التميز بعدة أجناس. وبالطبع، إن حالته تبرهن بطريقة قاطعة أن الذكاء العالي يتلعثم عندما يريد التكهن بالتاريخ أو لعب دور فيه. إنه يستطيع فقط -كآرون- السعي لفهمه بعد حين. فمزايا الذين يصنعون التاريخ من طبيعة أخرى مختلفة كلياً.

الفصل الثامن

البذلة الخضراء

د. إ: تم انتخابك في الأكاديمية الفرنسية عام 1973. وفي ردّك على آلان بيرفيت[31]، عندما تم انتخابه في الأكاديمية، صرحت بأن فكرة الدخول إلى الأكاديمية «لم تخطر أبداً على بالك». فكيف حدث هذا؟

ك. ل. ش: منذ سنوات عديدة باتت تصلني من حين لآخر تلميحات لم أحملها في البدء على محمل الجد. كان أندريه شامسون أول من تحدث إليّ بهذا الخصوص. إنني أعرفه منذ وقت طويل. ففي 1928 – 1930 كان أمين المجموعة الراديكالية في مجلس النواب، وكان ديا -أمين المجموعة الاشتراكية- يشغل المكتب المجاور الذي أتردد إليه كثيراً. وفي السيقين، كان منزل عائلة شامسون على بعد ثلاثة أو أربعة كيلومترات من منزل والديّ. وبعد هدنة 1940 وانكفائنا إلى السيقين كنا نجوب الحقول معاً ونناقش الأحداث. وقد استعدنا هذه العلاقات في الإطار نفسه بعد الحرب. في ذلك الوقت حدثني شامسون عن الدخول إلى الأكاديمية، فبدا لي ذلك مستبعداً واعتبرته نوعاً من اللطف المجاني، فلم أعره أي اهتمام.

فيما بعد، ظهرت على المسرح شخصية بارزة كنت أعرفها لماماً: فالديمير دورميسّون الذي كتب إليّ مرة أو مرتين. ومن جديد لم أعر ذلك أذناً صاغية. في النهاية، بعد موت مونترلان نظم جان دورميسون لقاءً مع موريس دريون (لم يكن جان دورميسون قد انتمى إلى الأكاديمية بعد، لكن موهبته كانت تسحرني وكان بيننا علاقة جوار طيبة عندما أدرت في اليونيسكو المجلس الدولي للعلوم الاجتماعية، الموازي للمجلس الدولي للفلسفة والعلوم الإنسانية الذي أداره). وقد قال لي الاثنان: آن الآوان، هيا. وأصرّا على أن أقوم بزيارة موريس جونفوا -السكرتير المؤبّد- وقد زرته فقال لي الشيء نفسه. فأرسلت رسالة ترشيحي عشية رحيلي إلى كولومبيا البريطانية.

د. إ: كنت المرشح الوحيد؟

ك. ل. ش: انسحب المرشح الآخر.

د. إ: إذاً تم كل شيء دون مشاكل. .

ك. ل. ش: نعم، لكن لم يكن ذلك انتصاراً ساحقاً! لقد تم انتخابي من الدورة الأولى بأغلبية صوت واحد بالضبط.

د. إ: كيف كانت ردة فعل المقربين إليك؟

ك. ل. ش: سيئة جداً. ليس من زوجتي أو أبنائي، إنما من مساعديّ وأصدقائي الذين لم يفهموا ذلك. وانتابهم شعور بأنني أخونهم، فقد كانوا يمتلكون عن الأكاديمية فكرة أسطورية، واعتقدوا أنني سأتخلى عنهم وسأنتقل إلى عالم آخر.

د. إ: كان ذلك أيضاً بسبب العداء لتلك المؤسسة، على ما أعتقد.

ك. ل. ش: نعم، وقد وجدت ذلك صبيانياً. وأردت تبرير هذا لأنني أحبهم جيداً. فكانت بداية خطاب الاستقبال (التي قارنت فيها بين الطقوس الهندية وطقوس مجتمعاتنا) موجهة إليهم تحديداً. وقد قال لي آرون الذي شارك في الاحتفال «خطابك جيد لكنك أسرفت في ذلك، لأن الجميع كان ينتظر شيئاً من هذا القبيل». ما لم يره هو أن هذه العبارات لم تكن موجهة إلى الأكاديمية أو إلى العامة بل إلى زملائي ومساعديّ. لقد أردت أن أقول لهم: عندما يقضي المرء حياته في دراسة طقوس الشعوب البعيدة، لا يوجد سبب يمنعه من حمل الباعث نفسه إلى طقوس المجتمع الذي خلقنا فيه ونعيش فيه. ولمّا كنت أتحدث إلى إثنولوجيين، فقد وجب أن أدعم إثباتاتي مفصلاً القول فيها.

د. إ: إنما يُحتمل أن تُجابه بالاعتراض التالي: يمكن تقويم المؤسسات وملاحظة كيفية عملها ودراستها دون الرغبة في الانتماء إليها.

ك. ل. ش: دون شك، وقد يكون من النفاق عدم الاعتراف بأنهم يستدعونك لأنهم يحكُمون بأنك مفيد للمحافظة على المؤسسة، وسواء شئت أم أبيت ستتحمل مسؤوليةً ولن تستطيع أن تبقى مجرد شاهد.

كان الأمر متعلقاً بمقعد مونترلان.فبعد موته وجدت الأكاديمية صعوبة كبيرة في إيجاد خلف له من الخط نفسه ويتمتع بالوزن نفسه نظراً للمكانة الكبيرة التي حصل عليها في حياته -وبعد مماته-. وهكذا فضّلَت القطع متجهة نحو ميدان آخر. لم يكن أي إثنولوجي قد استقر في الأكاديمية بعد، لذلك تمّ حل المشكلة بشكل بارع عبر

استدعاء إثنولوجي (ليخلفه). وهكذا طغت جدة الخيار على شخصية الوريث.

باستثناء «الشابات» لم أكن قد قرأت إلا القليل من أعمال مونترلان. وكان عليّ أن ألقي كلمة في تقريظه، فعدت إلى كتبه كلها. وقد أعجبني إعجاباً مخلصاً مؤلف «العازبون» و«وردة الرمل»، كما أعجبني أيضاً كمفكر مهما قيل في ذلك. وهكذا لم يكن ثمة ما يدعو للانزعاج: لا شخصية سلفي ولا وجودي في مؤسسة عمرها ثلاثة قرون ونصف وتستدعي الاحترام كما هي تماماً.

د. إ: في الخطاب القصير الذي ألقيته عند تقليد فيرناند بروديل سيف الأكاديمية، ذكرت -للإطراء على الأكاديمية- انه يدوم طويلاً. هل لأنك وجدت نفسك في حضرة بروديل او لأن هذه الاستمرارية تستهويك فعلاً؟

ك. ل. ش: يجب ألا نقلل من شأن التقاليد أو استمراريتها. فالمجتمع لا يستطيع المحافظة على نفسه إذا لم يرتبط بالقيم بشكل غير مشروط. ولكي تبقى هذه القيم غير مشروطة، ينبغي أن تمتلك جانباً محسوساً يحميها من العمل التقويضي للعقل. في أكسفورد وفي كامبردج وبشكل أعم في انكلترا، يعجبني مجتمع ما زال يحسن اتخاذ مكان له في العرفي rituel. أما في فرنسا، فالأكاديمية من أواخر الأمكنة التي يستمر فيها العرفي. واعتقدت أن من واجبي كمواطن وكإثنولوجي مساعدتها على المحافظة عليه.

د. إ: عند استقبالك في الأكاديمية، عُهد إلى روجيه كايوا إعداد الخطاب التقليدي. وقد غطّاك بالورود طوال حديثه، لكنه في النهاية رشقك ببضعة سهام لاذعة. كان ذلك غريباً...

ك. ل. ش: إنها قصة طويلة. لقد سمعت الكثير عن كايوا خلال إقامتي في البرازيل. فجان ماركس (مدير قسم الأعمال في وزارة الخارجية آنذاك -وهو ما يدعى اليوم العلاقات الثقافية- والذي أصبحتُ فيما بعد زميلاً له في القسم الخامس من مدرسة الدراسات العليا حيث كان يدرّس الديانات السلتية) كان مصعوقاً به. وكان اسم كايوا يملأ فمه لدرجة أنني اعتقدت في البدء أنه يكتب على نحو قريب من kaillouah(*).

قابلت كايوا للمرة الأولى في نيويورك عندما كنت مستشاراً ثقافياً. استقبلته، وألقى في القسم الثقافي محاضرة لم تعجبني. فالقسم الأعظم منها موجه ضد السرياليين -أصدقائي آنذاك- وكانت تشيد بـ«العودة إلى النظام» الفكري والخلقي.

لم أرَ كايوا عندما نشر مقالاً غير معقول ضد كراستي «العرق والتاريخ» التي كتبتُها بناء على طلب اليونيسكو، كما تذكر. وقد أغضبني ذلك جداً فقمت بالرد عليه بشكل عنيف -في تلك الحقبة كنت ما أزال مقتنعاً بوجوب الرد- وذلك في الأزمنة الحديثة بمقالة عنوانها ديوجينيس النائم[32].

د. إ: ما الحجج التي استند عليها في انتقادك؟

ك. ل. ش: استند على مقولة التفوق المطلق للحضارة الغربية واستنكر نسبويتي. يا لهذه الأفكار! لكنّ ردّي جاء قاسياً. بيد أنني، عندما ترشحت إلى الأكاديمية (وقد سبقني إليها بعامين) علمت أنه دعمني. فأثر بي ذلك كثيراً، وحين تم انتخابي رجوته أن يشارك في

(*) يكتب اسم كايوا في الأصل على هذا النحو Caillois.

استقبالي قائلاً له: «الطريقة الوحيدة التي أستطيع فيها أن أشكرك هي أن أترك لك الكلمة الأخيرة». وقد تمنّع قليلاً ثم قبل.

لقد اعتقدت أننا بهذا قد ندفن ماضياً مزعجاً. لكن ذلك لم يحدث البتة. فقد استرجع اعتراضاته وألقى خطاباً فيه حنق في جزئه الأخير (النص الأساسي أكثر عدوانية). ومع كل ذلك حافظنا على علاقات ودية حتى موته المبكر.

إن كايوا ذو ثقافة عالية وفكر مدهش بمقارباته غير المتوقعة التي يقيمها «بشكل قُطري» كما يقول. وكان من متابعي دروس موس التي استوحى منها الكثير. ومن المفترض أن نتوافق لكنه أهمل البحث لصالح الأسلوب. أراد أن يحصر تأملاته على المستوى الأدبي والشعري: فالشكل يهمه أكثر من الجوهر. ولم يكن يتحمل أن يجهد أحد لمعالجة الجوهر بشيء من الصرامة وضمن همّ موضوعي. كان - بمفارقة مدهشة- يقلب حدود معركته القديمة مع السرياليين إنما ضمن فكر محافظ دائماً.

د. إ: هل تشارك في مجالس الأكاديمية؟

ك. ل. ش: بشكل منتظم.

د. إ: ماذا تفعلون؟

ك. ل. ش: نناقش القضايا الداخلية. ثم ننتقل إلى المعجم الذي يعطي الانطباع بأننا في مدرسة تقريباً. إن تعريف كلمة ما بدقة هو تمرين فكري جيد جداً. إننا نقوّم الاستخدام التقريبي أو حتى الخاطئ للغة في الحياة اليومية. وليس من النادر اكتشاف مصطلحات مهنية كنا نجهل معناها. لقد كنت آسف دائماً لأنني عندما أتحدث مع

الحرفيين أجد نفسي مضطراً لاستخدام الكنايات الثقيلة والخرقاء، في حين أنهم يمتلكون كلمة محددة لكل أداة ولكل مادة ولكل حركة. ويبدو لي مفيداً تثبيت هذه الكلمات ونشر استخدامها، وفي إطار آخر، من المفيد تجنب الاستعارات من الإنكليزية أو الأمريكية عندما توجد كلمات فرنسية قديمة منسية جيدة تعني تماماً الشيء نفسه. بشكل عام تُطلب استشارتي في المصطلحات الإثنوغرافية. وأرجوك أن تقتنع أن تعريف كلمة ما مثل «boomerang»(*) في ثلاثة أسطر، دون اقتراف الأخطاء الفاحشة نفسها لكل المعاجم، يتطلب بعض التفكير.

اللغة هي أداة عمل الذين يكتبون: إنها أداة معقدة وصعبة الاستخدام. ومن المناسب معرفة مصادرها وقيودها وعلى هذا الصعيد لم ننته أبداً. إن إعداد معجم هو كالرياضة البدنية بالنسبة للرياضي، وكالمقامات بالنسبة للموسيقي. وربما يكون ضرورياً لمن ينهمك فيه مثل ضرورته لمن سيستخدمون النتيجة. إنني -على الأقل- أفهم الأمر على هذا النحو.

د. إ: يقال إنك أنت من حرر في عام 1984 توضيح الأكاديمية الفرنسية ضد اقتراحات اللجنة المشكّلة من قبل ايفيت رودي - وزيرة حقوق النساء آنذاك- لاستحداث مؤنث لبعض الكلمات.

ك. ل. ش: نعم. إن المسائل التي طرحتها لجنة رودي لا يمكن إهمالها. فهي ترتبط بمستقبل اللغة.

(*) boomerang: سلاح قذفي يستعمله سكان استراليا الأصليون وهو يرتد إلى قُرب مطلقه إذا لم يصب الهدف.

د. إ: هل يتعارض تغيير اللغة مع مبادئك؟

ك. ل. ش: إذا كان هذا التغيير يتم بدافع نزوة الموضة، فالجواب نعم بالتأكيد. إن الأكاديمية، عندما تلاحظ استخدام كلمة معينة، تشرّعه وربما تصادق عليه Sanctionne (إنني هنا لا أستخدم فعل Sanctionner بمعناه المنحرف الذي يُعطى له حالياً: فهو يعني «صادق على»، لا «عاقب»). وأنا لست ضد تبني بعض المشتقات المؤنثة التي دخلت الاستخدام، إذا لم تكن مخالفة لروح اللغة أو لقواعد صياغة الكلمات. وما يبدو لي غير مقبول أن يتم نشر الكلمات بقرار لإرضاء مجموعة ضغط. خاصة عندما يتم ارتكاب خلط فادح كالخلط بين الجنسين والنوعين القواعديين. لقد كتب دوميزيل في Nouvel Observateur مقالاً لامعاً يستحق أن تعرفه الأجيال القادمة[33].

د. إ: هنا يمكن الاعتراض عليك بأن هذا ينطبق أيضاً على «الفرنكليزية»: لقد فرض الاستخدام كلمة «week - end» فلماذا يجب عليّ أن أقول «Fin de semaine»؟

ك. ل. ش: لست موافقاً، فهنا يجب أن نميز. إننا -كما كنت أقول للتو- نجلب كلمات إنكليزية في حين توجد كلمات فرنسية منسية فحسب وليس علينا إلا أن نعيدها إلى الاستخدام. فمثلاً، كان الإثنولوجيون الفرنسيون يعتقدون أنهم ملزمون باستخدام الكلمة الإنكليزية «Sibling» للدلالة على الأشقاء دون تمييز في الجنس. وقد كشفتُ لهم أن كلمة «germain» الفرنسية تدل على المعنى ذاته (الـ cousin germain تعني أقرباء مقربين جداً لدرجة أننا نعتبرهم كالأخوة). ومنذ ذلك الوقت لم يعد يكتب Sibling إلا المتأخرون. في

حالات أخرى، عندما لا توجد كلمة فرنسية أو إذا كان يجب تشويه كلمة فرنسية للتعبير عن شيء لا نمتلكه في فرنسا، فلنتبنّ المصطلح الأجنبي كما هو أو لنفرنسه. وهكذا تغتني اللغة. إن اللغة الفرنسية مليئة بالكلمات المستعارة، بل إن بعضها مأخوذ عن لغة هنود وسط البرازيل!.

بالمقابل، يجب النضال لمنع إفساد النحو الفرنسي باللغة الإنكليزية. لقد مرّ بين يدي الكثير من أطروحات الدكتوراه -وبعضها دكتوراه دولة- لا يعرف مؤلفوها إلا الفعل être(*) ويعبّرون كلياً بصيغة المجهول نتيجة إشباعهم بالأدب العلمي الأنغلوساكسوني.

د. إ: إنك تتحدث الإنكليزية نظراً لإقامتك في نيويورك. هل تعلمت كثيراً من اللغات الأخرى؟

ك. ل. ش: كلا. ليس لدي أية موهبة في تعلم اللغات. فأنا أكتب مقالاتي بإنكليزية غير صحيحة وأحاضر بالإنكليزية بلكنة غير محببة.

د. إ: ألا يزعجك هذا النقص في الطلاقة؟

ك. ل. ش: نعم، كثيراً.

د. إ: ألم تمتلك أبداً -كدوميزيل- إرادة صلبة لتعلم اللغات وشغفاً نهماً للّغات الأجنبية؟

ك. ل. ش: عند دوميزيل، ليس هذا شغفاً أو إرادة فحسب، بل موهبة! وإني لأبقى فاغر الفم عندما يقول دوميزيل بأن أخذ نص من

(*) etre: فعل الكون بالفرنسية المقابل لفعل to be الإنكليزي.

أي لغة مع ترجمته الحرفية يكفي بعد المئة صفحة الأولى لتعلم هذه اللغة.

د. إ: عندما كنتَ في البرازيل، هل حاولت تعلم البرتغالية؟

ك. ل. ش: بالتأكيد، لكن ذلك لم يكن ضرورياً في تلك الفترة، فكل برازيلي مثقف قليلاً يتحدث الفرنسية. أما في البعثة فكنت أتحدث بالبرتغالية مع سكان الداخل: وهي لغة ريفية، بل إنها لهجة محلية تقريباً.

د. إ: واليابانية؟ أنت الآن تهتم بشكل خاص باليابان.

ك. ل. ش: لقد بذلت جهوداً كبيرة في السنوات العشر الأخيرة لتعلمها، لكنني عجوز. وما يدخل من أذن يخرج من الأخرى.

د. إ: هل تحب السفر؟

ك. ل. ش: فُرض عليّ أن أسافر كثيراً، لكني لا أحب السفر بحد ذاته. إنني من كل قلبي مع السيدة ستائيل التي كتبت في «كورين»: «السفر إحدى المتع الأكثر حزناً في الحياة».

د. إ: إذاً لم تكن عبارة «أكره الأسفار» في بداية المدارات الحزينة مجرد دعابة...

ك. ل. ش: لقد كانت بالتأكيد استفزازاً صغيراً. لكني -والحق يقال- لم أتحمس للأسفار إلا في شبابي (في ذلك الوقت، يذهب المرء فعلاً إلى «مكان آخر»). وقد عاودت السفر منذ عشر سنوات لسد الثغرات، وما تزال...

د. إ: أين ذهبت؟

ك. ل. ش: إلى المكسيك، كاليفورنيا، اسرائيل، ايطاليا، كوريا، وأربع مرات إلى اليابان، وأنا الآن أستعد للعودة إليه.

د. إ: ماذا تفعل عند وصولك إلى بلد مثل اليابان؟

ك. ل. ش: أفي بالتزاماتي عبر محاضرة أو اثنتين أو ثلاث، ثم أزور البلد وفق برنامج أساهم في وضعه. لقد تجولت كثيراً.

د. إ: ما الذي يثيرك في اليابان؟

ك. ل. ش: حضارة قديمة جداً ترتبط مع حضارتنا بعلاقات تناظر مدهشة، لكنه تناظر معكوس، لا تنسَ أن اليابان يشغل الحافة الشرقية من القارة الأوراسية كما تشغل فرنسا الحافة الغربية منها. ويبدو البَلدان مُديرينِ ظهرهما إلى طَرفَي أرضٍ واسعة مسكونة من آلاف السنين، ولم يتوقف البشر والأفكار فيهما عن التطور. إني أستمتع بأن أكتشف فيه الحالات القصوى لسلسلة من التحولات.

د. إ: ألا تهتم باليابان الحديث؟

ك. ل. ش: بكل تأكيد، وعلى أية حال، قد لا أستطيع صرف النظر عنه. لكن هذا الاهتمام لا يظهر إلا إذا استطعت ربط الحاضر بالماضي الأكثر قدماً.

د. إ: ألم تكن لديك روح سوسيولوجية؟

ك. ل. ش: بل اثنولوجية، وحتى أركيولوجية، وقد أزعج هذا الأمر الطلاب المسيّسين -ربما- الذين كنت أجوب برفقتهم كوريا.

كانوا يقولون فيما بينهم «هذا الليڤي - شتراوس لا يهتم إلا بأشياء لا توجد أبداً». وكان هذا صحيحاً بمعنى ما.

الطبيعة أيضاً تهمني كثيراً. فاليابان بلدٌ ثلاثةُ أرباعه غير مسكون (يتم نسيان ذلك غالباً) وتمنح طبيعتُه مناظرَ لجمال أخاذ. إن طبيعة اليابان -ككل طبيعة أخرى- تقدم للنظر لوحات متباينة. لكن عناصر هذا التركيب، أي النباتات، هي نفسها غير متناسقة في أوروبا وأمريكا -تذكر بودلير «النبات غير المتناسق»- أما في اليابان فينتج تنوع المنظر من تركيب نباتات متناغمة: صنوبريات، بامبو، شاي، أرز، وهي تمنح عبر الأشكال كما عبر الألوان منظراً أكثر كثافة وذا أُبّهة مستمرة.

في اليابان، اهتممت كثيراً بالأشجار والنباتات قدر اهتمامي بالمعالم والأعراف. أو ليس هذا فكر الديانات اليابانية القديمة الذي يعتبر الأشجار والنباتات وحتى الصخور كائنات حية؟ إن أحد أسباب سحر اليابان لي يقوم بالضبط على أن المرء يلمس ثقافة أدبية وفنية وتقنية متطورة جداً في تماس مباشر مع ماضٍ قديم يجد فيه الإثنولوجي ميداناً أليفاً.

الفصل التاسع

«لا يشعر المرء بمرور الوقت»

د. إ: نشرت بين 1964 و1971 الأجزاء الأربعة من «أسطوريات»...

ك. ل. ش: في تلك الفترة كنت أستيقظ بين الخامسة والسادسة صباحاً، ولم أعرف فيها عطلة نهاية أسبوع. لقد عملت حقاً...

د. إ: والنتيجة عملاقة: عدة مئات من الصفحات في كل مجلد والمجموع ألفا صفحة تقريباً.

ك. ل. ش: إنني بشكل خاص أتذكر الألم الذي سببته لي هذه الكتب. فهو أكبر منها!

د. إ: عندما تنهي كتاباً لا بد أنك تشعر بفرح ما، بسرور حقيقي.

ك. ل. ش: إنه سرور بإنهائه، فأنا لا أكتب بفرح. بل بقلق وحتى بقرف. وقبل البدء، أقضي أياماً أمام ورقتي البيضاء دون أن أجد جملة البداية.

د. إ: وعندما يُنشر الكتاب؟

ك. ل. ش: يصبح ميتاً، منتهياً، جسماً غريباً، يمر الكتاب عبري، فأنا المكان الذي يتم فيه إعداد الأشياء وبلورتها ثم تنفصل وكأنني أفرزها.

د. إ: ما الكتاب الذي تفضله من بين كتبك؟

ك. ل. ش: حتى هذا لا أستطيع الإجابة عليه. فعندما أمسك كتبي يهيأ إليّ أن شخصاً آخر غيري هو الذي كتبها. إنها ليست أبنائي.

د. إ: هل يوجد كتاب تحب أن تكون انت من كتبه، أو كتاب تندم على عدم كتابته؟

ك. ل. ش: إنني آسف كثيراً لعدم كتابة عمل أدبي.

د. إ: رواية أو مسرحية؟

ك. ل. ش: أحببت أن أكون مؤلفاً درامياً. ولا يبدو لي أن أي نوع أدبي آخر يتطلب صرامة مماثلة فكل حوار وكل كلمة يجب أن توافق الحدث. . يجب ألا يكون ثمة وقت ميت.

د. إ: هل حاولت؟

ك. ل. ش: لا، باستثناء محاولة مبهمة اعتمدت عليها في كتابة المدارات الحزينة، كانت دراما فلسفية. إن مسرحية جيدة من مسرح الشارع تبدو لي قمة الذوق!

د. إ: كنت قد بدأت بكتابة رواية. .

ك. ل. ش: ... تركتها بعد ثلاثين صفحة لأنها رديئة.

د. إ: ما موضوعها؟

ك. ل. ش: كان من المفترض أن تحمل اسم المدارات الحزينة. وهي كونراويّة(*) بشكل مبهم. أتتني فكرتها من قصة قرأتها في الصحف عن عملية احتيال في جزيرة من الباسيفيك، استخدم فيها عدة أشخاص الحاكي لإيهام السكان الأصليين بأن آلهتهم عادت إلى الأرض. كان ممكناً استخدام ذلك في الرواية بحيث يكون المدبرون لاجئين سياسيين أو آخرين من جنسيات مختلفة تجري الأحداث فيما بينهم.

د. إ: لم يبق منها إلا العنوان؟

ك. ل. ش: العنوان والصفحات المكتوبة بأحرف مائلة أصف فيها غروب الشمس، وهي بداية الرواية.

د. إ: هل تحب أن تكون جوزيف كونرا؟

ك. ل. ش: أن أكون من ألّف كتبه، على أية حال!



د. إ: نشرت عام 1984 «النظرة البعيدة». وهو مجموعة مقالات على طريقة جزاي الانترويولوجيا البنيوية. لماذا لم تسمّه «الإنثريولوجيا البنيوية III»؟

ك. ل. ش: لأن كلمة البنيوية فسدت خلال هذا الفاصل

(*) كونراوية: نسبة إلى جوزيف كونرا.

وأصبحت ضحية سوء استخدام أوصلها إلى أن تفقد معناها. لقد استمررت في معرفة معناها. لكني لم أكن متأكداً من أن ذلك هو حال القراء، خاصة القراء الفرنسيين. فقد تم إفراغ الكلمة من محتواها.

د. إ: في مقدمة هذه المجموعة نقرأ: «لقد بطلت موضة البنيوية» هل كتبتَ هذا بحنين؟

ك. ل. ش: بالتأكيد لا. كنت أؤكد أن العالم الثقافي في فرنسا نهم. ففي وقت من الأوقات جعل من البنيوية غذاء يومياً. وهُيء له أنها تحمل رسالة. ثم انتهت هذه الموضة. فالموضة لا تستمر أكثر من خمس سنوات أو عشر. . هذا هو الحال في باريس. إني لا أشعر بحنين ولا بأسف.

د. إ: ترافق انحسار البنيوية بعودة الأشكال الأكثر تقليدية للفلسفة.

ك. ل. ش: الظاهرتان مترابطتان.

د. إ: هل تحزن لهذه العودة؟

ك. ل. ش: ولماذا عليّ أن أحزن؟

د. إ: لأنك أسست عملك ضد هذه الفلسفة التقليدية بالتحديد.

ك. ل. ش: هذا صحيح. لكني لست مسؤولاً عن خلاص معاصريّ.

د. إ: هل تقول: وا أسفي عليهم عندما يقرؤون الترهات؟

ك. ل. ش: لن أقول ذلك. بل «نِعمَ الأمر إذا كانوا سعداء بقراءة هذه الكتب».

د. إ: حدّد المعلقون تاريخاً لنهاية رواج البنيوية هو أيار / ماي 1968. إنك تعرف عبارة «البُنى لا تنزل إلى الشارع».

ك. ل. ش: ثمة شيء مؤكد: إن أيار / ماي 1968 برهن على أن الكثير من تطورات السنين السابقة يرتكز على سوء فهم. أعني أن الاهتمام الذي أبداه الرأي العام الثقافي بالبنيوية كان يمر بجانب المسألة. لأن البنيوية كانت نمطاً من الأبحاث بعيداً جداً عن الاهتمامات الكبرى لمعاصرينا واستمرت كذلك.

د. إ: هل تعتقد أن صمت المختبر أفضل من جلبة الصحف؟

ك. ل. ش: تماماً.

د. إ: إن كتابك الأخير «الخزافة الغيور» المنشور عام 1985 -وهو تقريباً تتمة لأسطوريات- أكثر سهولة في الفهم من كتبك السابقة باستثناء «المدارات الحزينة» بالتأكيد. هل أردته كتاباً تعليمياً لخشيتك من تدني تأثيرك؟

ك. ل. ش: أولاً، لم أكتب الكتاب ضمن همّ تعليمي، وثانياً، لا أهتم إلا قليلاً بتأثيري.

د. إ: إنه كتاب أبسط من البقية.

ك. ل. ش: نعم ولا. سأبدأ بـ لا: فعندما ظهر الكتاب، قال لي كثير من الناس: «كتابك مهم لكنه صعب للغاية» فاستنتجت أنهم لم

يفتحوا أياً من كتبي الأخرى. لقد حاولوا قراءة هذا الكتاب لأنهم رأوه أقل حجماً ومظهره أقل تخويفاً، لكنه ثبّط همّتهم مع ذلك ...

د. إ: لكنّ من قرأ كتبك الأخرى يقرأ هذا الكتاب دون مشكلة.

ك. ل. ش: إنك محق. لأنه ملف قديم جداً، احتفظت به، وأشرت إليه عدة مرات في «أسطوريات». وقد عالجته بشيء من البعد. حيث لم تواجهني كمية كبيرة من المواد، في حين أن «أسطوريات» يبرز سيراً يومياً تقريباً لعمل اكتشافي. وكأنني أكابد في غابة عذراء أجهلها تماماً. لأشق فيها طريقاً عبر أدغال ومرتفعات غير قابلة للاختراق إلا بصعوبة. أما عندما كتبت «الخزافة الغيور»، فكنت أعرف كيف أخرج منه. لقد أصبحت قادراً على رؤية الأشياء عن بعد أكثر.

من ناحية ثانية، فإني، بعد كل البراهين المفصلة الموجودة في أسطوريات، لم أعد بحاجة إلى إعادة المرور بالمراحل نفسها إذ يكفيني ذكر النتائج المكتسبة ووضعها على بساط البحث. لا أخفي عليك أنني ولمرة واحدة استمتعت كثيراً أثناء كتابته.

د. إ: نجد في هذا الكتاب استطرادات ممتعة وطرائف صغيرة... في الفقرة التي قاربت فيها لابيش وسوفوكليس على ما أعتقد.

ك. ل. ش: أتتني الفكرة منذ زمن طويل. وربما من هنا الأصل البعيد للكتاب. فلابيش (الذي يتم تمثيله اليوم بشكل سيء جداً) مصدر دائم لابتهاجي. ففي صغري، كان ملاذي في العشاءات الأسبوعية عند جدتي. حيث أنعزل في ركن من غرفة الاستقبال مع مجلد من أعماله الكاملة وأضحك وحدي.

كلما اقتربت الشيخوخة، تصعد شذرات الماضي إلى السطح أو لنقل بشكل آخر تغلق الحلقات. لقد قادني «أسطوريات» إلى فاغنر ضمن الديانة التي ترعرعت فيها واعتقدت عندما كنت مراهقاً أنني انفصلت عنها. كما أعادني «الخزافة الغيور» إلى قراءاتي عندما كنت طفلاً! وإذا أعطيت وقتاً فسألتقي ثانية، دون شك، بدونكيشوت الذي شُغفت به في العاشرة (لتسلية الضيوف، كنت أقترح على أحدهم فتح الكتاب كيفما اتفق وقراءة جملة ما فأكملها دون تردد، فقد كنت أحفظ عن ظهر قلب نسختي المختصرة، وإلى الآن ما يزال غلافها الورقي الوردي المصقول قليلاً ماثلاً في ذاكرتي)... وسيتساءل البعض: هل كفّت الدونكيشوتية عن تحريكي على طول الخط في عملي؟

د. إ: ماذا تقصد بذلك؟

ك. ل. ش: لا أقصد التعريف القاموسي أي هوس تصحيح الأخطاء والقيام بدور بطل المضطهدين الخ... إن الدونكيشوتية، كما يبدو لي، هي أساساً رغبة موسوسة لإيجاد الماضي ثانيةً خلف الحاضر. إذا كان أحد المبتكرين سيهتم يوماً على سبيل المغامرة بفهم شخصيتي، فها أنذا أعطيه هذا المفتاح.

د. إ: عندما نُشر «الخزافة الغيور» قلتَ لي: احضّر كتاباً آخر سيكون الأخير، ألم تنته منه؟

ك. ل. ش: مواده جاهزة لكني لا أعمل فيه إلا قليلاً. إن هذا الكتاب قد يكون ما يُدعي بالإنكليزية sister book للكتاب السابق، وقد يتناول مشكلة ميثولوجية موازية لتلك التي عالجها هذا الأخير. رغم اختلاف الأساطير والمناطق في أمريكا.

د. إ: عن أية منطقة من المفترض أن يتحدث؟

ك. ل. ش: منطقة واشنطن - أوريغون. أو لنقل الشاطئ الشمالي للباسيفيك.

المشكلة أنني لا أعرف جيداً بماذا سأبدأ هذا الملف ولا إذا كان من الضروري بالفعل إضافة برهان ميثولوجي على براهين أخرى.

د. إ: ماذا سيكون عنوانه فيما لو كتبته؟

ك. ل. ش: إن سبباً من الأسباب التي تمنعني من كتابته هو أنني لم أجد عنواناً له. فالعنوان يعطي للكتاب طابعه.

د. إ: كتبتَ الكثير من الكتب، تم التعليق عليها ومناقشتها وانتقادها... عندما تنظر إلى الوراء، ما انطباعك؟

ك. ل. ش: إن كل هذا غريب عني. فمثلاً حدثوني بالأمس عن مشكلة ميثولوجية في مكان ما من أمريكا الجنوبية. تذكرت أنني عالجت قضية مماثلة لكني لم أفلح في معرفة أين قمت بذلك.

د. إ: وحياتك المهنية؟ إنك تحمل دكتوراة فخرية من عدد كبير من جامعات العالم وحصلت على الميدالية الذهبية لـ CNRS، كما أنك عضو في الأكاديمية الفرنسية، إنك رجل طافح بالألقاب.

ك. ل. ش: لست من هواة جمع الألقاب ولا أعلق أهمية كبيرة عليها. لقد سبق أن رفضت دكتواره فخرية مغرية: لأنه كان عليّ أن أذهب لتسلمها فوراً، ولم تكن لدي رغبة في التحرك آنذاك.

د. إ: إذاً، ما يهمّك ليس الألقاب ولا الشهرة لكن إنتاج براهين مقنعة...

ك. ل. ش: إنني لا أتوهم. فهي بعيدة عن إقناع كل الناس وهي لن تبقى مقنعة إلى الأبد. سأجيبك كما كان دوميزيل يفعل عادة «خلال عشرين أو ثلاثين سنة سيتم تجاوز هذا كلياً». لكنك محقّ: فلدي شعور بأن عدداً من المسائل لا يمكن معالجتها بأفضل مما فعلت إلا عبر المرور بما كتبت حتى لو كان ذلك بهدف تقويضه، وبأن كتبي وَسَمَت مرحلة من مراحل الفكر الاثنولوجي، وبأنها ستؤخذ بعين الاعتبار.

د. إ: ألا يغيظك أن يتم تجاوزك أو حتى نسيانك في المدى المنظور؟

ك. ل. ش: سيكون ذلك صبيانياً. فقد أظهرت قرون من تاريخ الأفكار أن هذا قدر الجميع..

د. إ: لكن بعد أن يكون المرء قد عمل كثيراً...

ك. ل. ش: لماذا عملت كثيراً؟ عندما أعمل أعيش لحظات قلق، لكن عندما لا أعمل يتملكني ضجر كئيب وينخرني وعيي. إن حياة العمل ليست أكثر بهجة من الأخرى، لكن على الأقل لا يشعر المرء فيها بمرور الوقت.

القسم الثاني

قوانين العقل



الفصل العاشر

قواعد الزواج

د. إ: قبل أن تلتقي بجاكوبسون، كنت «بنيوياً دون أن تعرف» - كما قلت سابقاً-، واستطعت مباشرة تطبيق مناهجه على عملك حول القرابة.

ك. ل. ش: ليس الأمر كذلك، لم أطبق أفكاره، لكني لاحظت أن ما يقوله عن اللغة يتوافق مع ما استشففته بشكل ملتبس في أنظمة القرابة وقواعد الزواج والحياة الاجتماعية بشكل أعم.

د. إ: في ذلك الوقت بدأت كتابة «البنى الأولية للقرابة». إنه بشكل ما امتداد لمسائل الزواج في «بحث حول الهبة» لمارسيل موس، وقد أعدتَ تأويله انطلاقاً من المنهج البنيوي حيث منحتك الألسنية نموذجاً منظماً.

ك. ل. ش: إذا أردت. لكن لا تهمل غرانيه. فكتابه «الأصناف الزواجية وعلاقات القرابة في الصين القديمة» هو الذي نبهني إلى مسائل القرابة. لقد قرأته عندما كنت في ثانوية مونبولييه خلال الأسابيع الأربعة التي سبقت عزلي وشغفت به. تصدى غرانيه لأنظمة

شديدة التعقيد وبذل جهده لتفكيكها كما يتم تفكيك آلة ما لفهم مكوناتها وآلية عملها في الوقت نفسه. وقد اكتشفت لديه تفكيراً موضوعياً مطبقاً على الأفعال الاجتماعية. وفي الوقت نفسه أثارني أن غرانيه، لكي يعرض لأنظمة شديدة التعقيد، انقاد إلى تخيل حلول لم تكن موجودة بعد. ورأيت أن من المفترض أن يمتلك خلف هذا التعقيد شيئاً من البساطة، ويمكنني القول إن كل تفكيري في أنظمة القرابة يأتي من هناك ومن المسائل التي طرحتها علي وثائق من نفس الطبيعة جمعتها ميدانياً في البرازيل.

د. إ: «البنى الأولية للقرابة» كتاب ضخم ينفتح على عدة فصول عامة جداً، كالفصل الذي تتصدى فيه لـ«الوهم البالي» في الإنثروبولوجيا.

ك. ل. ش: كان فكري يتشكل بالتوازي مع الدروس التي أعطيها في المدرسة الحرة للدراسات العليا في نيويورك. كنت أكتب أولاً بأول. وبدت هذه التمهيدات ضرورية لبلورة أفكاري. أما اليوم، فلم أعد مقتنعاً بأنها ضرورية للتناسق العام للكتاب.

د. إ: لكنّ الفصل الأول -الذي كتبت فيه عن التقابل opposition بين الطبيعة والثقافة! الموسوم بتحريم الزنا بالمحارم- هو أساس كل فكرك في هذا العمل.

ك. ل. ش: نعم، كان نقطة الانطلاق، لكن بعد ذلك تطورت الأشياء.

د. إ: من جهة ثانية، عدت إلى هذه النقطة في مقدمتك للطبعة الثانية عام 1967.

ك. ل. ش: نعم، منذ أن كتبت هذه الفصول -حوالي 1943، 1944- تطورت الإثنولوجيا وحملت الكثير من الأشياء الجديدة. فآنذاك، لم يكن معروفا عند الحيوانات ما يمكن مقارنته بتجنب الزنا بالمحارم. فقد تم هذا الاستدلال منذ أرسطو على الحيوانات المدجنة بشكل حصري تقريبا. بيد أن ملاحظة الحيوانات في حالتها البرية - القرود الكبيرة وأنواع أخرى- بدا أنها تؤسس لفكرة أن الاتصالات الجنسية بين الأقارب نادرة جدا في هذه الأنواع، بل إنها أصبحت مستحيلة بواسطة بضعة آليات منظ مة. وعلى عجل، استنتج اختصاصيون بهذا النوع من الدراسات وكذلك اثنولوجيون فيما بعد أن تحريم الزنا بالمحارم له جذور في الطبيعة. وهكذا اعتبر بعضهم أن الأطروحة الرئيسية لـ«البنى» قد تهدمت، واعتبر البعض الآخر أنها يجب ألا تقتصر على المجتمعات الإنسانية بل يتحتم توسيعها باتجاه بعض المجتمعات الحيوانية، كمجتمع الـ Vervets وهي نوع من القرود الإفريقية طويلة الذيل، قد تكون الزيجات المفضلة بينها -أي الزيجات الأفضل لانتشار النوع- هي التي تتم بين الأقارب. لكنها مع ذلك تتبادل الذكور اليافعين مع جيرانها.

أعترف بأن كل هذا تركني متشككاً، ليس حيال الوقائع الملاحظة لكن حيال تأويلها المشوب غالباً بالانثروبومورفية(*). إن الميل العام لطرد اليافعين من المجموعة عندما يصلون إلى البلوغ يمكن أن يفسر بطرق مختلفة، ويظهر أن المنافسة على الغذاء هي الأكثر احتمالاً بينها. ولا شيء يسمح بالاعتقاد أن بعثرة اليافعين تنتج عن «تحريم للزنا بالمحارم» مزعوم على المستوى الحيواني. أما التأثيرات

(*) الانثربومورفية: خلع الصفات البشرية على الله.

المضرة للاتصالات الجنسية بين الأقارب -خاصة عندما تتم التبادلات بين قطعان متجاورة- فتبدو ضعيفة جدا كتفسير لذلك.

د. إ: إذا، أنت اليوم تدعم الفكرة المبدئية في كتابك. أي فكرة أن تحريم الزنا بالمحارم يثبت أن ميدان الثقافة هو عالم القاعدة؟

ك. ل. ش: لو كان لتحريم الزنا بالمحارم أساس طبيعي لما كان بوسعنا أن نفهم جيدا كيف أصبحت المجتمعات البشرية موسوسة به. وكيف عكفت بحرص هوسي على تشريعه. ويمكن أن نورد مقتطفات من الأمثال والأقوال المأثورة التي تكشف في المجتمعات دون كتابة عن رغبات محرمية incestieux وبتوسيعنا للمسألة قليلا، هل نقيم اعتبارا كافيا للشغف بزواج الأقارب في المجتمعات الأوروبية التقليدية؟

هل تعلم أن في فرنسا نفسها، خلال القرن التاسع عشر، كان يمكن لنسبة الزيجات المعقودة في دائرة قطرها 5 كلم في الريف أن تتجاوز 85%؟ يورد ميسترال في مكان ما حكمة ريفية مدهشة قد يحسن بأنصار المنشأ الطبيعي لتحريم الزنا بالمحارم أن يتأملوها: «تزوج في قريتك وإن استطعت في حيك وإن استطعت في منزلك».

أما فيما يتعلق بالنقص المزعوم للشهوة الجنسية بين الأفراد الذين عاشوا طفولتهم الأولى تحت سقف واحد، والمثالين الداعمين لذلك المترددين باستمرار منذ سنوات (واللذين بداية لا يثبتان شيئا): وهما مثال الكيبوتزات في إسرائيل ومثال ثان من التايوان، فكل ذلك يصطدم بأدلة معاكسة. وبشكل خاص يتم إغفال أن هذا النقص في الشهوة ناجم عن توجه مسبق للاهتمام الجنسي خارج دائرة العائلة. إن دوركهايم -الذي أطلب منك السماح لي بالاستشهاد به- قد فهم ذلك جيدا: «إن العلاقات المحرمة والمشاعر العائلية لا تبدو أولية إلا

لأننا نتصور هذه مستبعدة لتلك بشكل أولي». ليس فقط نحن بل الأغلبية الساحقة من المجتمعات.

د. إ: لو قُدر لك إعادة كتابة هذا الكتاب اليوم، ماذا يمكن أن تكون نقطة البداية؟

ك. ل. ش: بدايةً، سأتجنب كتابته. فقد أصبحت بتقدم العمر حذراً جداً من الاندفاع إلى تركيبات واسعة. وأعتقد أنني قد أكتفي بالقول إن الاعتبارات السوسيولوجية حاسمة بشكل كافٍ لا نحتاج بعده لفرضيات أخرى، وذلك مهما تكن أهمية الملاحظات المأخوذة من الحياة الحيوانية وعلم نفس الجماعة...

د. إ: إن هذا الكتاب -ككتاب أول- طموح جداً.

ك. ل. ش: نعم، إنك محق.

د. إ: نشر عام 1949 وما زال يثير النقاش حتى الآن.

ك. ل. ش: لقد جوبه منذ صدوره بمعارضة وما يزال. لكن ما يعزيني هو أنه مرجع إجباري تقريباً في كل نقاش حول هذه المسائل.

د. إ: أخذ كلود لوفور عليك، عام 1952، أنك قدمت النموذج الرياضي كأنه أكثر واقعية من الحقيقة التجريبية.

ك. ل. ش: لم أزعم أبداً أن بالإمكان اختزال مجموع التجارب الإنسانية إلى نماذج رياضية، وأبداً لم تخطر لي فكرة أن كل شيء في الحياة الاجتماعية قابل للتحليل البنيوي -فهذه الفكرة تبدو لي شاذة- ويبدو لي على العكس أن الحياة الاجتماعية والواقع التجريبي الذي يحيط بها يقعان ضمن ميدان الاحتمالي aleatoire (وهذا ما يدفعني

للانحناء أمام التاريخ الذي يضعنا بمواجهة «لا لزوم أولي» (irreductible contingence). إنني لا أعتقد بأكثر من أن في هذا الحساء التجريبي الواسع -إذا سمحت لي بهذا التعبير- حيث تسود الفوضى، تتشكل هنا وهناك جزيرات من التنظيم، جعلني تاريخي الشخصي وخياراتي العلمية أهتم بها أكثر من الباقي، دون أن أنفي وجود مظاهر أخرى أو الاهتمام المشروع لآخرين بها. لقد اخترت أن أركز على ميادين، مع صغرها، يمكن أن نُدخل في دراستها قليلاً من الصرامة rigueur مع معرفتنا تماماً أنها حالات خاصة جداً. كما أنني أعرف أيضاً أن هذا النوع من المقاربة الذي أمارسه لا يستوفي كلية الظاهرات، مثلما أن نموذجاً رياضياً منطقياً معدّاً مثلاً لشرح ظرف جوي لن يأخذ بعين الاعتبار الانفعال الجمالي الذي يحدثه غروب الشمس. وسيتوجب علينا لوصف وتحليل هذا الأخير مقاربته من زاوية ثانية واللجوء إلى طرق أخرى في الفهم.

د. إ: إن انتقادات كلود لوفور عام 1952، مهمة جداً بهذا المنحى لدرجة أنها افتتحت سلسلة كاملة من انتقادات ستتوالى بل ستتبعك، بخصوص «شكلانيتك» و«تنظيريتك» و«تجريديتك»..

ك. ل. ش: قد يكون جوابي هو نفسه.

د. إ: إن انتقاد رودني نيدهام مختلف قليلاً، حيث قال إن النموذج المبني والقاعدة التي يطلقها التحليل لا يطبّقا دائماً على الواقع.

ك. ل. ش: سأذهب أبعد من ذلك: إن النموذج لا يطبق كما هو إلا نادراً. ويتعلق الأمر -هنا أيضاً- بمعرفة ما نختار دراسته. حيث يمكن اختيار دراسة الكيفية التي تجري وفقها الأمور عيانياً أو دراسة

ما يجري في ذهن الناس الذين يقولون ما الطريقة الجيدة للسلوك بغض النظر عن إخلاصهم لمبادرتهم، وهذا المظهر هو ما درسته في «البنى»: لا ما يفعله الناس لكن ما يعتقدون أو ما يؤكدون وجوب فعله.

د. إ: يعتمد بيير بورديو، من جهته، على الدراسات الإثنولوجية حول القبلية...

ك. ل. ش: ... المميزة جداً...

د. إ: ... لكي يرفض فكرتك عن «القواعد» الزواجية ويستبدلها بفكرة «الاستراتيجيات».

ك. ل. ش: لا يفاجئني ذلك، فمراكز الاهتمام تتغير مع الزمن، حيث يتم التركيز تارة على الجوانب المنظمة للحياة الاجتماعية وتارة أخرى على الجوانب التي يبدو أن عفوية ما تتجلى فيها. في الواقع، ثمة قواعد وثمة استراتيجيات. ويمكن للاستراتيجيات أن تقلب القواعد، لكن من النادر -في مجتمع ما وفي فترة محددة- ألا تخضع استراتيجيات الأفراد بدورها إلى معايير، وهكذا. ما يهم هو معرفة أي مستوى من الملاحظة هو الأكثر جدوى في الحالة الراهنة للمعارف من أجل بحث محدد: قد يكون هذا المستوى أو ذاك أو الإثنان معاً.

بانتقالنا إلى ميدان أكثر عمومية أعتقد أن الخيارات المطروحة بين «هذا» و«ذاك» تثبت بشكل خاص أن «العلوم الاجتماعية» أو «العلوم الإنسانية» المزعومة لا تمتلك من العلم سوى الاسم. ففي العلوم الحقيقية لا تتنافى مستويات الملاحظة بل تتكامل. إننا -في العلوم الإنسانية- لم نصل بعد إلى هذا النضج.

د. إ: لكن «البنى» جاهَر عالياً بادعاء علمي.

ك. ل. ش: لأنه جهد لإيضاح مادة يسودها الخلط. حيث توجد مجموعة كبيرة من التفسيرات الخاصة بكل عرف وبكل مجتمع حاولت أن أرجعها إلى بضعة مبادئ بسيطة. ليس هذا علماً لكنه على الأقل يستلهم من روحه.

د. إ: مع ذلك، هل تولد لديك -بكتابتك لهذا الكتاب- انطباع بإنتاج برهنة علمية؟

ك. ل. ش: لا أعتقد أن علومنا الإنسانية والاجتماعية تستطيع أن تطمح يوماً للوصول إلى النظام الأساسي للعلوم الحقيقية. وقد حاولت على الأكثر القيام بخطوة صغيرة في هذا الاتجاه. فالمتغيرات فيها كثيرة جداً، والملاحظ ممتزج بشكل لا فكاك منه بموضوعات الملاحظة، وأخيراً فإن الوسائل الفكرية التي يمتلكها الملاحظ لا تستطيع أبداً التعالي على الظواهر المدروسة لأن لهما مستوى التعقيد نفسه.

د. إ: في «البنى»، أرجعتَ عدداً كبيراً من أنظمة القرابة إلى ثلاثة حلول ممكنة، مؤسسة -هي نفسها- على شكلين لتبادل النساء. وأضفتَ أننا -نظرياً- نستطيع (على غرار هذا المخطط) تكوين جدول لأنظمة ممكنة للقرابة يكون عددها منتهياً. هل تدعم اليوم هذا التحليل؟

ك. ل. ش: في الإطار العام، نعم. مع معرفتي التامة بظهور أنظمة عديدة في الأدب الإثنولوجي منذ ذلك الحين لم نكن نعرفها أو لم تكن المعلومات عنها كافية. تمثل هذه الأنظمة غالباً حلولاً وسطى. وهذا لا يقود إلى رفض المخطط الأساسي لكن إلى تعقيده وتنويعه.

لنأخذ على سبيل المثال الزواج المسمّى «عربياً»، أي الذي يمنح الأفضلية لبنت العم كزوجة: إنه زواج داخلي endogame، وبالتالي لا يوجد تبادل بين السلالات بل داخل السلالة نفسها: الزواج يتم بين الأقارب، غير أن هذا النمط من الزواج -وحيثما تتوفر إحصائيات- تبقى نسبته قليلة، وحتى إذا عرّفناه بشكل أكثر مرونة (أي دون تمييز بين أولاد العم المباشرين وغير المباشرين) فإنه لا يتجاوز نصف عدد الزيجات المحصى، ويبقى العدد الباقي ذا نمط خارجي exogame: وكأن العائلات -بدلاً من تبادل فتياتها- تتبادل فيما بينها حق الاحتفاظ ببعضهن مقابل الالتزام بالتخلي عن بعضهن الآخر. وقد بيّن باحثون شبان لامعون أن الأمور أكثر دقة من ذلك. إن نزوع السلالات إلى عقد ارتباطات أكثر انعتاقاً تعيد بناء معادل لما أسميته التبادل المعمم، بحيث تكون علاقات القرابة بين الأزواج ذات النمط المتوازي سطحياً علاقات أولاد عمومة متصالبة أيضاً. إن هذا النظام أكثر تعقيداً من الأنظمة التي سبق لي تصورها لكنه يتعلق بالإشكالية نفسها.

د. إ: يمكننا إذاً تصنيف الأنظمة في جدول نظري بعدد منتهٍ من المداخل؟

ك. ل. ش: هذا صحيح دون ريب في المجتمعات ذات البنى الأولية. أما في المجتمعات ذات البنى المعقدة فتطرح عدة مسائل. لقد قام فرانسوا إيرتينيه - أوجيه بخطوة كبيرة في اتجاه استطعت فقط الإيحاء به في هذه المجتمعات، حيث لا يوجد زواج مفروض أو مفضل إنما درجات محرمة فقط (كما هو الحال بشكل مبسط في مجتمعنا) يمكن أن تكون هذه المحظورات عديدة جداً وتثير حسابات نسبية

genealogique تبدو شديدة التعقيد. لكن، جرى البرهان بواسطة الحاسب أن كل شيء يتم كما لو أن هذه المحظورات هي الصور السلبية للمفروضات الإيجابية: إنّ نَمطيّ النظام الأولي والمعقد يمكن ترجمة أحدهما انطلاقاً من الآخر لغوياً. ويمكن بالتالي إرجاعهما إلى الوحدة: فالبنية الأساسية هي نفسها.

د. إ: في كتابك، تتكلم عن النساء كـ«أدلة» Signes يتم تبادلها وقد أثار ذلك سخط النسويات.

ك. ل. ش: انهن لم يفهمنني جيدا أو لم يقرأنني جيدا، فأنا أشير إلى أن كل مجتمع إنساني يرى في نسائه قيما كما يرى فيهن أدلة. وأنا أجد هذا الخلاف عديم الجدوى: يمكن أيضا أن يقال إن النساء يتبادلن الرجال، ويكفي لذلك تبديل الدليل (+) بالدليل (-) وبالعكس دون أن تتخرب بنية النظام من جراء ذلك. وقد استخدمت هذه الصيغة لأنها تتوافق مع ما تفكر به وتقوله المجتمعات الإنسانية كلها تقريبا.

د. إ: من جهة أخرى، من المؤثر أن سيمون دو بوفوار في عرضها للكتاب عام 1949 لم تبحث إطلاقا عن الخلاف معك حول هذه النقطة بالتحديد، علما أنها كانت قد نشرت لتوها «الجنس الثاني».

ك. ل. ش: بل إن النسويين يمكنهم الاستفادة من طريقتي في تحليل الأساطير التي تعالج لا مساواة الجنسين، وهي الأطروحة المركزية في «من العسل إلى الرماد» وفي «أصل آداب المائدة». ففي أولهما -في الفصل الأول من الجزء الثالث، على ما أعتقد- أتقدم بفرضية مفادها أن المجتمعات المساواتية (وهي ضمنيا تخضع جنسا لآخر) بدأت ترسم حلولا واقعية، لكنها ما تزال غير مقبولة، أو غير

قابلة للتطبيق، لأنها تتضمن -كما العبودية- إخضاع بشر لبشر آخرين[34].

د. إ: في «البنى» كنت تصر فعلاً على أن النساء لسن فقط أدلة، لكنك كنت تتحدث مع ذلك عن التبادلات الزواجية مقارناً إياها بالتبادلات اللغوية أو الاقتصادية.

ك. ل. ش: النساء أدلة، لكن في المجتمعات مدار البحث. تتعلق قواعد الزواج بإشكالية التبادل: فانتقال النساء يؤسس التواصل بين العائلات البيولوجية.

د. إ: في نهاية كتابك تطلعت إلى تشييد نظرية عامة عن التبادل والأدلة.

ك. ل. ش: إنها آفاق بعيدة دعوتُ للتفكير فيها ليس غير.

د. إ: هل جاءت تطورات العلوم البيولوجية لتقوي هذا الحلم؟

ك. ل. ش: بشكل أخّاذ. لقد أدركنا أن كل ما علمنا الألسنيون إياه حول اللغة، والذي بدا خاصيتها حصراً، يوجد -حتى- في قلب المادة الحية، وأن الشيفرة الوراثية والشيفرة الكلامية تبديان الخواص نفسها وتعملان بالطريقة نفسها.

د. إ: لكن، بمعنى ما، تساهم هذه الاكتشافات في محو التقابل طبيعة / ثقافة.

ك. ل. ش: إن التقابل يحافظ على قيمته المنهجية، فهو يشكل حاجزاً ضد الاعتداءات النشيطة لفكر بدائي وساذج، كعلم الاجتماع الحيوي الذي يريد إرجاع الظواهر الثقافية إلى نماذج منسوخة عن

علم الحيوان. لو أن التمييز بين الطبيعة والثقافة وصل يوماً إلى الامّحاء لما تولدت المصالحة في السطح الفاصل بين الظواهر الإنسانية والظواهر الحيوانية (كما نسميه اليوم) أي حيث تبدو بعض الأفعال الإنسانية كالعدوانية مشابهة لما نلحظه في سلوك الأنواع الأخرى. إذا كان لهذه المصالحة أن تتم فسيكون ذلك من الطرف الآخر: بين ما هو أكثر أولية وأكثر أساسية من آليات الحياة، وبين ما هو أكثر تعقيداً من الظواهر الإنسانية. وإذا كان على الحدود أن تمّحي فسيكون ذلك خلف المسرح الذي يجري عليه النقاش حالياً بين أنصار الثقافة وأنصار الطبيعة.

د. إ: في الفصل الأخير من البنى تحدثت عن التحليل النفسي وخاصة «الطوطم والتابو». وقد استخدمت كلمة الفشل. هذا هو جدالك الأول مع التحليل النفسي.

ك. ل. ش: هل هو جدل؟ لقد أسس فرويد في «الطوطم والتابو» أسطورة (وهي أسطورة جميلة جداً في الحقيقة) لكنه -كما في كل الأساطير- لم يقل لنا كيف جرت الأمور على أرض الواقع. بل كيف يحتاج البشر أن يتخيلوا كيف جرت، وذلك في محاولتهم حلّ التناقضات.

د. إ: بعد حوالي أربعين سنة، في نهاية «الخزافة الغيور»، عدت إلى هذا النقاش مع التحليل النفسي بتعابير قاسية أيضاً رغم عرضها بشكل ممتع.

ك. ل. ش: إني لا أعطي لهذا الفاصل المسلي من الأهمية أكثر مما يستحق. إن الأساطير التي حللتها في «الخزافة الغيور» (أساطير جيفارو خاصة) لاذعة كونها تستبق النظريات التحليلية النفسية. وكان

يجب تجنب استيلاء المحللين عليها كي لا يجدوا فيها شرعية لهم. في الواقع، إنه العكس تماماً: لقد كتب فرويد، كعنوان فرعي لـ«الطوطم والتابو» «حول بعض المطابقات بين الحياة النفسية للمتوحشين والعصابيين» وقد بيّنت أن هذه المطابقات (إذا كان لها أن توجد) فإنها توجد بالأحرى بين الحياة النفسية للمتوحشين -حسب تعبير فرويد- والحياة النفسية للمحللين النفسيين.

د. إ: متى قرأت فرويد؟

ك. ل. ش: مبكراً جداً، فقد كان والد أحد زملائي في الثانوية طبيباً نفسياً وواحداً من أوائل المهتمين بفرويد في فرنسا. كان يتعاون مع ماري بونابرت. وهو الذي حثّني عندما كنت في صف الفلسفة على قراءة «مدخل إلى التحليل النفسي» الذي حمل في ترجمته الأولى عنوان «علم الأحلام».

د. إ: فيما بعد، كررتَ غالباً عبارات قاسية ضد التحليل النفسي.

ك. ل. ش: إن العديد من أصدقائي ومعارفي قد لجؤوا إليه. وقد غذّت علاقتي بهم بضعة شكوك حول قيمته العلاجية. كما أردتُ، بشكل خاص، الوقوف ضد الإغراء الذي يتعرض له كثير من الإثنولوجيين والسوسيولوجيين والتاريخيين عندما تبوء تأويلاتهم بالفشل، فيجدون أن من الأسهل بدلاً من إعادة النظر فيها ملء الثغرات بتفسيرات تصلح لكل مناسبة يجود بها التحليل النفسي بسخاء.

لكن هذا لا يمنع أن فكر فرويد لعب دوراً رئيساً في تكويني الفكري، كما فعل فكر ماركس. وقد تعلمت منه أن الظواهر -حتى

الأكثر مخالفةً منها للمنطق ظاهرياً- يمكن أن تخضع لتحليل عقلاني. وهذا مماثل لمسيرة ماركس إزاء الأيديولوجيات (وهي ظواهر اجتماعية لكنها أيضاً ذات جوهر لا عقلاني): أي الوصول تحت الظواهر إلى أساس متماسك من وجهة النظر المنطقية بغض النظر عن الأحكام الأخلاقية التي تطلق عليه.

د. إ: بقيت أكثر إخلاصاً لماركس من فرويد. في نهاية «الفكر البدائي»، عام 1962، صرحتَ من جديد بارتباطك به.

ك. ل. ش: ليس من زاوية سياسية لكن من زاوية فلسفية بلا ريب. كان ماركس أول من استخدم بشكل منتظم منهج النماذج في العلوم الاجتماعية. فرأس المال برمته -على سبيل المثال- نموذج مبني في مختبر شغّله المؤلف كي يقارن فيما بعد النتائج مع الوقائع الملاحظة. كما أجد عنده أيضاً الفكرة الأساسية التي تفيد أن من غير الممكن فهم ما يجري في رؤوس البشر دون ربطه بظروف حياتهم العملية: وهذا ما حاولت فعله على طول الخط في «أسطوريات».

د. إ: في مقال لجان بويّون[35]، عام 1956، أعلن عن كتاب لك: «الإثنولوجيا والماركسية». لم يرَ هذا الكتاب النور. لكنْ هل يمكن أن نستنتج أنك بقيت ماركسياً حتى ذلك الوقت؟

ك. ل. ش: لقد حلمت كثيراً بكتب لم أكتبها. أما بخصوص «ماركسيتي» فهذا مبالغ فيه: إنني لا أحتفظ من تعاليم ماركس إلا ببضعة دروس أخص منها بالذكر أن الوعي يخادع نفسه. كما أنني -وكما قلت سابقاً- اكتشفت هيجل بدايةً عبر ماركس ومن خلفه كانط. إنك تسألني عن التأثيرات التي خضعت لها وها أنذا أجيبك: أنا كانطي فظ، وفي الوقت نفسه بنيوي منذ الولادة -ربما-: فقد روت لي

أمي أنني -ولم أكن قد تعلمت المشي بعد ولا القراءة بالتأكيد- صرخت من داخل عربتي إن الأحرف الثلاثة الأولى من لافتتي الجزار boucher والخبّاز boulanger لا بدّ أن تكون bou. في ذلك العمر كنت أبحث عن الثوابت.

د. إ: ما المبادئ التي تعلمتها من كانط؟

ك. ل. ش: أن للفكر قيوداً يفرضها على واقع لا يمكن الدخول إليه أبداً، كما لا يمكن إدراكه إلا عبرها.

د. إ: أكّدت في مقطع شهير من «الفكر البدائي» أن الإثنولوجيا هي قبل كل شيء «علم نفس». ألا تبدو هذه العبارة منطوية على مفارقة؟

ك. ل. ش: يمكن أن تبدو كذلك إذا قصرنا الإثنولوجيا على جمع تحف مخصصة للعرض في متحف. لكن ما إن تتم رؤية هذه التحف كشكل متصلب من الفكر حتى يصبح للعبارة التي ذكرتها معنى.

فما نذهب للبحث عنه على بعد آلاف الكيلومترات أو قريباً منا، هو وسائل إضافية لفهم كيفية عمل العقل البشري. وبالتالي فنحن نمارس شكلاً من علم النفس. وينطبق القول ذاته على دراستنا للمعتقدات والعادات والمؤسسات.

الفصل الحادي عشر

الكيفيات المحسوسة

د. إ: ربما كان «الفكر البدائي» أكثر كتبك تغييراً لطرق الرؤية خارج حلقة اختصاصيي الإثنولوجيا، وأصبحت إعادتك الاعتبار للفكر البدائي جزءاً مفضلاً من مقتطفات الفكر المعاصر.

ك. ل. ش: أردت أن أثبت عدم وجود هوة بين فكر الشعوب المسماة بدائية وبين فكرنا. عندما تلاحظ في مجتمعاتنا معتقدات أو عادات غريبة تمس الحس المشترك، يتم تفسيرها كمخلفات أو كاستمرارية لأشكال من الفكر القديم. وقد بدا لي أن هذه الأشكال من الفكر موجودة بيننا دائماً، ونحن غالباً ما نطلق لها العنان. إنها تتعايش مع أشكال الفكر المرتكزة على العلم، وهي معاصرة بالدرجة نفسها.

د. إ: من الأمور التي تذكر كثيراً مقاربتك بين «الحرتقة» Bricolage ونمط التفكير الأسطوري.

ك. ل. ش: لقد ضربتُ «الحرتقة» كمثل عن أنماط من الفكر

تمتاز بأصالة خاصة ولا نعيرها انتباهاً أو بالأحرى لا نقيم لها وزناً لأنها تبدو غير مجدية أو ثانوية، في حين أنها تكشف آليات رئيسية للفعالية العقلية وتضعنا في مستوى عمليات فكرية بعيدةٍ جداً عما نعتقد أنه طريقتنا الحديثة في التفكير. إن الفكر الأسطوري يعمل - في المجال التأملي- كـ«الحرتقة» تماماً، فهو يضع تحت تصرفه كنزاً من الصور المتراكمة عبر ملاحظة عالم الطبيعة: حيوانات ونباتات مع مواطنها وخصائصها المميزة واستخداماتها في ثقافة محددة. ثم يربط هذه العوامل لبناء معنى، كالمحرتق الذي يتصدى لمهمة ما فيستخدم ما تيسر لديه من المواد ليعطيها دلالة أخرى (إذا صح التعبير) مختلفة عن الدلالة التي كانت لها في البدء.

د. إ: لكن هذا الكتاب يمتلك قدرة إبستيمولوجية أكثر اتساعاً...

ك. ل. ش: إنّه محاولة لتجاوز التعارض (الذي أصبح كلاسيكياً في الفلسفة الغربية) بين المحسوس Sensible والمعقول Intelligible. لقد تكوّن العلم الحديث على حساب القطيعة بينهما: بين ما كان يدعى في القرن السابع عشر الكيفيات الثانية (أي معطيات الإحساس: الألوان، الروائح، النكهات، الصوت، القِوام) والكيفيات الأولى غير المتعلقة بالحواس التي تكوّن الواقع الحقيقي.

لكن بدا لي أن فكر الشعوب المسماة «متوحشة» -والذي بقي متمرداً على هذا التمييز- يقود تصورها كله في مستوى الكيفيات المحسوسة ويصل مع ذلك وعلى هذا الأساس فقط إلى بناء رؤية للعالم لا ينقصها التماسك أو المنطق. كما أنها أكثر فعالية مما يعتقد عادة.

د. إ: ما كنت تسميه «علم العياني»...

ك. ل. ش: هي مسيرة تبدو لي مختلفة عن العلم لكنها قابلة للمقارنة به تماماً. وهذه وجهة نظر تدعمها عدة اتجاهات تبينتها في الفكر العلمي الحديث: إنني مع الأسف لا أمتلك أية كفاءة في المواد العلمية. لكن علوم الطبيعة التقليدية -علم الحيوان، علم النبات، الجيولوجيا- تسحرني كأرض موعودة لن أمتلك نعمة دخولها. فقد كنت في الولايات المتحدة، وما أزال إلى اليوم مواظباً على قراءة مجلاّت كمجلة «العلوم الأمريكية» و«العلم» و«الطبيعة» كما أضفت لها حالياً «البحث». إنني لا أفهم كل شيء لكن هذا يغذي تفكيري، وقد تأثرت بشكل خاص برؤية العلم وقد عكف الآن على إعادة الكيفيات الثانية إلى مكانتها الأولى بعد أن أقصاها لفترة طويلة مديراً ظهره للمحسوس. إنه يبحث حالياً في ماهية الرائحة والطعم، وأشكال الورود وتطورها والبنية النغمية لغناء الطيور... وهو يعيد بذلك غالباً اكتشاف الأساس الموضوعي للمعتقدات الشعبية بل للخرافات أيضاً.

خلافاً لما طرحه فوكو في «الكلمات والأشياء»، أعني القطيعة الجذرية بين موضوعات المعرفة epitemees[*] ألمحُ في العلم المعاصر جهداً لاسترجاع المراحل القديمة لتطوره، ولدمج المعارف القديمة جداً برؤيته للعالم.

د. إ: لدراسة علم العياني هذا المميز «للفكر البدائي»، راكمتَ كمية كبيرة من المعارف العيانية: حول النباتات والحيوانات والطقس...

---

[*] epistemees: هي المعارف في أبسط تعريف لها. لكنها بشكل خاص المعارف التي تدرسها الابستيمولوجيا (تاريخ العلوم ومناهجها ومبادئها، وعلاقتها بالفلسفة).

ك. ل. ش: منذ أن بدأت كتابة «الطوطمية والفكر البدائي» وحتى نهاية «أسطوريات» عشت محاطاً بكتب علم النبات وعلم الحيوان... إن هذه الرغبة في الاطلاع ترجع إلى طفولتي.

د. إ: لكنك هنا تجاوزت مجرد الرغبة في الاطلاع.

ك. ل. ش: هذا صحيح. فقد كان عليّ أن أؤسس نفسي في كل هذه الميادين. إنني -على سبيل الذكرى- أحتفظ في مكتبي بالكرة السماوية التي يسميها العامة «رأس العجل»، والتي تلقيتها كهدية من إحدى المنظمات. إنها أداة لم يعد الفلكيون يستخدمونها قط، لكنها خدمتني كثيراً في تحديد مواقع مجموعات النجوم التي تدور حولها الأساطير. لم تكن المعارف العلمية التي أحتاج إليها تتجاوز معارف القرن الثامن عشر أو التاسع عشر وكنت أحصل عليها من موسوعة ديدرو وأليمبير ومن علم الحيوان لبريم Brehm وحتى من بلين أحياناً...

د. إ: عندما تفكر أن بعضهم استطاع انتقادك بدعوى أنك تجهل العياني...!

ك. ل. ش: إنني على العكس أنتبه لكل التفاصيل العيانية الصغيرة انتباهاً يصل إلى حد الهوس.

د. إ: إن الانتباه للعياني هو الذي جعلك -ربما- حساساً بشكل مميز لدور «التخيل الجمالي» في لعبة التصنيفات الطوطمية التي توردها.

ك. ل. ش: نعم، لأن ثمة فروقاً أساسية بين طريقتنا في التفكير وطريقة هذه الشعوب. وهذه الفروق هي حاجتنا إلى

التجـزيء. وقـد تعلمنـا ذلـك مـن ديكـارت: تجـزيء الصعوبـة تجزيئـاً ضرورياً لحلها بشكل أفضل. إن فكر الشعوب المسماة بدائية ترفض هـذا التجـزيء ولا قيمـة عندهـا لأي تفسـير مـا لـم يكـن كليـاً. فنحـن عندمـا تواجهنا مشكلة مـا، نلجـأ -بهدف حلهـا- إلـى هـذا الفـرع مـن العلوم أو ذاك أو إلى الحقوق أو الأخلاق أو الدين أو الفن... أما عند الشعوب التي يدرسها الإثنولوجيون، فإن كل هـذه الميادين مترابطـة. وكل تعبـير عـن الحيـاة الاجتماعيـة يشـكل مـا كـان مـوس يدعـوه فعـلاً اجتماعياً كلياً. إنها تقحم في الوقت نفسه كل هذه الجوانب.

د. إ: في «الفكر البدائي» توجد مفردات الألسنية في كل مكان. أكثر مما هو عليه الحال في «البنى الأولية للقرابة».

ك. ل. ش: إن الألسنية تقدم مفاهيم ثمينة كالتقابل الثنائي بين مصطلحي مَعْلَم Marque وغير مَعْلَم non marque، وهي -في الحقيقة- مفردات الفكـر العلائقـي pensee relationnelle. لقـد تم فـهم طبيعـة وأهمية اقتباسـاتي عن الألسنية فهماً سيئاً. فباستثناء إلهام عـام - أعترف بأنه كبير- يقتصر ما أخذت عن الألسنية على نقطتين: أولاً دور الفعالية اللاواعية للفكر في إنتاج بنى منطقية، وقد أشار إلى ذلك بواس الذي كان إنثروبولوجياً بقدر ما هو ألسني، وثانياً المبدأ الأساسي القائل إن العناصر المكونة ليس لها دلالة داخلية بل تنتج دلالتها عن موقعها. هـذا صحيح في اللغـة وصحيـح أيضـاً بالنسـبة لوقائع اجتماعية أخرى. ولا أعتقد أنني طلبت من الألسنية أكثر من ذلك. إن جاكوبسون هو أول من عرف -من خلال نقاشاتنا- أنني كنت أقول باستخدام أصيل لهذه المفاهيم في ميدان آخر.

د. إ: فكرة «التحول» تحتل مكاناً رئيساً في تحليلاتك في «الفكر البدائي» كما في «أسطوريات». عمّن اقتبسها؟ عن المنطقيين؟

ك. ل. ش: لا عن المنطقيين ولا عن الألسنيين. بل أتتني من عمل لعب دوراً حاسماً بالنسبة لي قرأته في الولايات المتحدة أثناء الحرب، وهو «عن النمو والشكل» لدارسي وينثوورث تومبسون، الذي نشر أول مرة عام 1917. والمؤلف عالم طبيعي اسكتلندي (ذكرت سهواً في الإنسان العاري أنه «إنكليزي») لقد فسر الفروق بين الأنواع والفروق بين الأعضاء (الحيوانية أو النباتية) في النوع نفسه كتحولات. وكان ذلك ألمعياً. وقد لاحظت بسرعة أن هذه الطريقة في الرؤية تندرج ضمن تقليد طويل: خلف تومبسون علم النبات عند غوته، وخلف غوته ألبير دورير في «بحث في تناسب الجسم البشري».

إن مفهوم التحول ملازم للتحليل البنيوي. بل يسعني القول إن كل الأخطاء وكل سوء استخدام مرتكب على مفهوم البنية أو بواسطته تأتي من عدم فهم أن من المستحيل إدراك البنية معزولة عن مفهوم التحول. إن البنية لا تقتصر على النظام: أي مجموعة مؤلفة من عناصر وعلاقات تربط بينها، فلكي يمكننا الحديث عن بنية يجب أن تظهر بين عناصر وعلاقات عدة مجموعات روابط ثابتة، بحيث يمكننا الانتقال من مجموعة إلى أخرى بواسطة تحول.

لقد خط مؤرخو الأفكار – بشكل أفضل- اتجاهاً أدخل مفهوم التحول في الألسنية. وربما كان ذلك أيضاً انطلاقاً من غوته عبر غيلوم دو هامبولدت وبودوان دو كورتناي. إن اللجوء إلى مفهوم التحول يفرض نفسه من اللحظة التي نحاول فيها فهم التنوع عبر

اختلاف الطرق التي تتركب منها العناصر، وذلك بغض النظر عن الميدان المدروس.

وإذا استشهدت بمبدأ واحد هو تبادل النساء بين «تحت - مجموعات» المجتمع لتفسير كل قواعد الزواج، فيجب أن تعود هذه القواعد المختلفة تبعاً للأزمنة والأمكنة إلى حالات للتحول نفسه، وينطبق الأمر ذاته على الألسني وهو يقيم فهرساً للفونيمات التي يستطيع الجهاز الصوتي لفظها، ويطلق القيود التي ينبغي على كل لغة أن تخضع لها لكي تقتطع من هذه الذخيرة المشتركة عناصر نظامها الفونولوجي الخاص. بل إن مفهوم الفونيم نفسه يفرض أن تكون الخواص المتباعدة للأصوات -كما يسجلها علم الأصوات- تحولات اختيارية أو سياقية contextuelle لواقع ثابت على مستوى أعمق.

إن لجوء الألسنية والإنثروبولوجيا الإجباري إلى مفهوم مشتق من علم الجمال (دورير) ومن العلوم الطبيعية (غوته وتومبسون) - عائدٍ إلى القرن السادس عشر على الأقل- حمل لي برهاناً إضافياً على أن التفكير العلمي وكما قلت للتو، لا يشكل -في تقدّمه- قطيعة مع ماضيه بل ينجح مرحلياً في إعادة تملكه.

د. إ: هل استمررت إلى اليوم بالاهتمام بتطورات الألسنية؟

ك. ل. ش: لقد غدت الألسنية علمية ومعقدة لدرجة أنني لا أشعر بقدرتي على متابعتها. إن الألسنية كما كان يمارسها جاكوبسون سحرتني كرواية بوليسية. وقد كان لموهبته الخطابية وحسه الدرامي ضلع في ذلك دون شك. أما بينڤينيست فكان له طبع مختلف جداً. وعند قراءة هذين المعلّمين البنيويين الكبيرين يتملك المرء إحساس

بالاشتراك في مغامرة كبيرة للفكر. أما اليوم فيبدو لي ما يتم فعله – مقارنة بهما– عقيماً بشكل مثير للاشمئزاز.

د. إ: ألم تهتم بـ«القواعد التوليدية» لشومسكي؟

ك. ل. ش: إني لا أشك بأهمية إسهام شومسكي. فهو يلعب دوراً كبيراً في بعض تطورات الألسنية التطبيقية كآلات الترجمة مثلاً، لكني أعترف أن هذا الخليط من الوصفات التجريبية والبراهين المدرسية بعيد عن طريقتي الخاصة في التفكير.

د. إ: لكن بمقدورنا القول إنك حاولت القيام بـ«إنثروبولوجيا توليدية». وعلى أية حال، فقد قمت في جزء من عملك (المتعلق بتحليل الأساطير) «بميثولوجيا توليدية». بل إنني أعتقد أنك استخدمت مرةً هذه العبارة.

ك. ل. ش: ثمة فكرة مشتركة بيننا. وهي أن الفكر بوسائل محدودة يولد تركيبات لا متناهية. مع ذلك، يقلقني اندفاع الفلاسفة لاستخلاص نتائج ميتافيزيقية من الألسنية الشومسكية. إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك لغة منطوقة. أنا موافق. لكن هل يحقق الإنسان حقاً معجزة توليد عدد غير محدود من المنطوقات بواسطة عدد محدود من القواعد؟ وهل يمكن أن نستخلص من ذلك برهاناً على المكان الفريد الذي يحتله في الكون؟

لنبدأ بالسؤال الأول، إن هذا الطرح بصياغته من الألسنيين شرعي لكنه يبقى تقريبياً: فغنى التراكيب الكبير يجعله يبدو كما لو كان صحيحاً عملياً. إن عدداً محدوداً من القواعد، بتشغيله مفردات محدودة في لحظة معينة لتوليد جمل غير محدودة الطول (تنقص

احتماليتها حتى تختفي كلما ازداد هذا الطول) لا يمكن أن يولّد إلا خطاباً محدوداً، رغم أن التراكيب -وكما هو الحال في لعبة الشطرنج- لن يستنفذها أبداً ملايين اللاعبين أو المتكلمين. أما بالنسبة للسؤال الثاني، فإن هذه الوثبة في الميتافيزيقيا وفي نوع من الصوفية الإنسانوية تذكّر بما أنجزه عدد كبير من البيولوجيين عندما قدموا التنوع الوراثي كبرهان على الواجب الأخلاقي المتمثل في احترام كل كائن إنساني بسبب جوهره الذي لا يعوض، كل إنسان هو كائن فريد. هذا صحيح لكن ذلك لا يميزه عن بقية الكائنات الحية حتى الأكثر وضاعة منها، إن العلم لا يقدم لنا أخلاقاً لاستخدامنا الشخصي، فميدانه ليس ميدان الأخلاق.

الفصل الثاني عشر

السيو
الفلاسفة والعلم

د. إ: «الفكر البدائي» مهدى إلى ميرلو - بونتي. .

ك. ل. ش: إعراباً عن العرفان بالجميل، فقد تحدثنا عنه بصدد دخولي إلى الكوليج دوفرانس...

د. إ: ... وينتهي العمل بفصل سجالي مع سارتر. حوالي ثلاثين صفحة أثارت جدلاً طويلاً منذ عام 1962.

ك. ل. ش: نشر «نقد العقل الجدلي» عام 1960، عندما كنت أكتب «الفكر البدائي». وقد كرست سنة من حلقاتي الدراسية في مدرسة الدراسات العليا لدراسته. وساعدني في ذلك لوسيان سيباغ. حيث كنا نقرؤه ونتحاور حوله. لقد بدا لي منظور سارتر متعارضاً مع منظور الإنثروبولوجيين الذين يرون في نظامهم إحدى الطرق لفهم عمل الفكر البشري، بينما كانت الإنثروبولوجيا تزعج سارتر، وكان يفضل تفريغها تحت ذرائع متعددة.

د. إ: كان هذا السجال عنيفاً.

ك. ل. ش: لم يكن سجالاً حقاً، فعلى حد علمي، لم يرد سارتر أبداً باستثناء مرة واحدة على صفحات مجلة حيث اكتفى بالقول إنني لم أفهم شيئاً.

د. إ: أحسبني أعرف أنه رد مرات عديدة: في مجلة القوس عام 1966 حيث صرح بأنك تسهم في الإساءة إلى التاريخ، وفي مقال حول الإنثرويولوجيا منشور عام 1966 في مجلة مواقف ميز بين إنثرويولوجيا يمارسها الإثنولوجيون ليس الإنسان بالنسبة لها إلا موضوعاً obget وإنثرويولوجيا فلسفية يحاول تأسيسها تعتبر الإنسان «موضوعاً - ذاتاً» objet - suget.

ك. ل. ش: إنك تعرف أكثر مني بكثير في هذا الموضوع، وهذا ما يثبت أنني لم أساجل.

د. إ: هذا صحيح، فأنت لم تتابع الحملة.

ك. ل. ش: لم يكن ذلك أساسياً بالنسبة لي. وقد نتج الفصل الختامي من «الفكر البدائي» عن نشر كتابينا في الفترة نفسها بمحض المصادفة.

د. إ: هل تعتقد أن بالإمكان قراءة كتابك دون قراءة هذا الفصل؟

ك. ل. ش: ليس تماماً، لأنني عرضت فيه أيضاً مفهومي للفترات التاريخية الثلاث المختلف عن فهم بروديل.

د. إ: كان نقدك لسارتر قاسياً جداً. عندما قلت في «الطوطمية اليوم» إن فلسفة برغسون تشبه فكر السيو، بدا ذلك مسلياً لأن برغسون لم يعد حاضراً كثيراً...

ك. ل. ش: أعترف أن الشبه قاطع. فنص برغسون وعبارات حكيم السيو التي ذكرتها متماثلان تقريباً.

د. إ: فعلاً: لكن من الصعب التسليم بأن فكر سارتر يجب اعتباره والتعامل معه كأسطورة معاصرة.

ك. ل. ش: إني لم أضعهما في الكيس نفسه. يفكر برغسون في مسائل ميتافيزيقية كما يمكن لهندي أن يفعل وكما كان يفعل السيو في الواقع. وبإبراز هذا التشابه، أشدتُ بفكره الذي غاص بجذوره -خارج الأزمنة والأمكنة- إلى أعمق أعماق الفكر الإنساني، بما يمكن أن يمتلك من الشمولية.

أما سارتر فيتحدر فكره -على العكس- ضمن أيديولوجية هي أيديولوجية عصره ووسطه الفكري. وتتوضع هي أيضاً ضمن سياق أسطوري هو السياق الأسطوري للثورة الفرنسية (لأن الثورة الفرنسية في مجتمعنا تلعب فعلياً دور الأسطورة المؤسسة) مما يجعل فكر سارتر نسبياً بدلاً من جعله عمومياً.

د. إ: لقد كانت الثورة الفرنسية ودورها المؤسس في تاريخنا إحدى المسائل التي طرحها سارتر فعلاً. هل تقر بأنها كانت حدثاً مهماً؟

ك. ل. ش: الكلمة ضعيفة. لقد نشرت الثورة الفرنسية أفكاراً وقيماً فتنت أوروبا ثم العالم. وأعطت فرنسا لأكثر من قرن سحراً

وإشعاعاً استثنائيين. بيد أن من الممكن أن نتساءل ألم تكن أيضاً السبب في الكوارث التي انهالت على الغرب؟

د. إ: بأي معنى؟

ك. ل. ش: لأنها وضعت في رؤوس الناس أن المجتمع يقوم على الفكر المجرد في حين أنه قائم حقيقة على العادات والأعراف. وبسحقهما تحت رحى العقل تم سحق أجناس من الحياة مؤسسة على تقليد طويل، وتم اختزال الأفراد إلى ذرات بينية التبادل interchangeable ومغفلة anonyme. إن الحرية الحقيقية لا يمكن إلا أن تمتلك محتوى عيانياً: فهي مؤلفة من توازنات بين انتماءات صغيرة، وتضامنات لا يُعتدّ بها: وضد هذا انكبّت الأفكار النظرية المعتبرة عقلانية. وحين وصلت إلى نهاياتها، لم يبق لها إلا أن تبيد بعضها بعضاً. وها نحن اليوم نلحظ النتيجة.

د. إ: لكنْ، ما الذي يجعل الرغبة في جعل الثورة الفرنسية حدثاً مؤسساً للعالم المعاصر، تبدو لك طرحاً «أسطورياً»؟

ك. ل. ش: ... على أية حال، إنه طرح قائم على هذه الميثولوجيا التي تم السعي الحثيث لبنائها على طول القرن التاسع عشر، والتي نعكف الآن على إنعاشها بمناسبة ذكراها المئتين.

د. إ: والتي ورثها سارتر؟

ك. ل. ش: بقدر ما جرّد الوقائع من عيانيتها. فهو ينشئ مخططاً مجرداً للتاريخ بشكل يمكن فيه للثورة الفرنسية أن تلعب دور أسطورة للبشرية اليوم.

د . إ: إذاً، أنت تعتبر سارتر إنساناً من القرن التاسع عشر؟

ك. ل. ش: لا تجعلني أهاجم سارتر. فأياً تكن الدعاوى التي يمكن أن تقام ضده، يبقى مفكراً ذا قدرة كبيرة تستدعي التقدير والاحترام. أما بخصوص القرن التاسع عشر فهو واحد من أعظم القرون علماً وفناً وأدباً. ومن منا لا يرغب بأن يكون إنساناً من القرن التاسع عشر في هذه الميادين؟

د . إ: كان نقاشك مع سارتر مجسداً للنقاش بين الفلسفة والعلوم الإنسانية الذي أصبح أكثر حدة.

ك. ل. ش: نعم، وعلى الأقل تم تفسيره كذلك. مع أن الفصل الأخير من «الفكر البدائي» مشبع جداً بالفلسفة.

د . إ: في رَدَّيْ سارتر اللذين ذكرتهما، وفي نص لاحق لميرلو - بونتي عنوانه «الفلسفة وعلم الاجتماع» نُشر في «أدلة» عام 1960، يتولد حقاً الانطباع بأنهما أرادا الدفاع عن تفوق الفلسفة الذي تنكره.

ك. ل. ش: كان ميرلو - بونتي بالتأكيد مؤمناً بالفكر الفلسفي. بل إنه أراد -وقد ذكرت لك ذلك- إحياء «الفلسفة العظيمة». لكن، ثمة فرق بين سارتر وميرلو - بونتي: فسارتر يجعل من الفلسفة عالماً مغلقاً، وباستثناء المعارك السياسية كان يجهل تماماً ما يجري خارجها وخاصة على المستوى العلمي. على عكس ميرلو - بونتي الذي اهتم كثيراً بالعلوم. لقد كان لديه فضول ينقص سارتر.

د. إ: هل ترى أن الفلسفة تحافظ على مكان ما في عالمنا اليوم؟

ك. ل. ش: بالتأكيد، لكن بشرط أن تؤسس رؤاها على المعرفة العلمية الحديثة ومكتسباتها. «فالفلسفة العظيمة» كما يقول ميرلو - بونتي هي عمل أشخاص كانوا علماء كباراً في عصرهم ويرتكز تفكيرهم الفلسفي على بحوثهم العلمية. إن العلم والفلسفة منفصلان اليوم، لكن لا يمكن للفلاسفة أن يعزلوا أنفسهم عن علم لم يوسع رؤيتنا للحياة والعالم ويحولها فحسب، بل قلب قواعد عمل الفكر.

الفصل الثالث عشر

في سلة مهملات التاريخ

د. إ: لم يكن السجال مع سارتر مواجهة بين العلوم الإنسانية والفلسفية فحسب. فقد أخذتَ عليه أيضاً أنه أعطى امتيازاً فائقاً للتاريخ. لذلك أثار هذا السجال مسألة العلاقات بين الفكر الإثنولوجي والتاريخ. إنها مسألة تتردد كثيراً في عملك. فقد نشرت عام 1949 مقالاً بعنوان «التاريخ والإثنولوجيا» نجده في بداية الإنثروبولوجيا البنيوية.

ك. ل. ش: ما أخذته على سارتر ليس إعطاء امتياز للتاريخ، بل بناء فلسفة للتاريخ تبدو لي منتمية إلى عالمٍ أسطوري -كما قلت للتو. إن التاريخ يثير اهتمامي أكثر من أي شيء آخر، ومنذ وقت طويل

أما المقال الذي تتحدث عنه فقد كتبته عام 1948. ولم أعد أذكر إذا كان ذلك بناء على طلب من مجلة الميتافيزيقيا والأخلاق أو أنني كتبته تلقائياً. على أية حال، كان منبثقاً من تبصر أثارته قراءة أعمال لوسيان فيفر التي بدأتها آنذاك.

د. إ: هل كنت تعرفه؟

ك. ل. ش: ترجع روابطنا إلى تاريخ عودتي إلى فرنسا (1948) لقد لفت نظره مقال نشرته في النهضة (مجلة المدرسة الحرة للدراسات في نيويورك) وهو بعنوان «انشطار التمثيل في فنون آسيا وأمريكا» بل أوحى إليه ببعض الرؤى[36]. وفور تأسيسه القسم السادس من المدرسة التطبيقية للدراسات العليا (والتي ستصبح فيما بعد مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية) دعاني إلى أن أحاضر فيه.

د. إ: في هذا المقال، يمكن قراءة جمل لافتة للنظر «التاريخ هو كل شيء» وأيضاً «قليل جداً من التاريخ أفضل من عدم وجوده بتاتاً».

ك. ل. ش: لقد صدمني موقف مالينوفسكي حيال التاريخ وكذلك الموقف الذي لاحظته عند عدد من الإنثروبولوجيين الأمريكيين الذين خالطتهم. فقد كان الكثير منهم مقتنعين بأنهم يجب أن يذهبوا إلى الميدان دون معرفة شيء عن السكان، وألاّ يخلطوا مع الرؤية معرفة ماضيهم أو قراءة شهادات سابقة عنهم. وكانوا يعتقدون أنهم بذلك يحفظون للملاحظة المباشرة كل طراوتها، دون أن يفهموا أنهم بهذا لا يفعلون سوى إفقارها. لقد كان هذا ناجماً عن سذاجة وسفسطة.

د. إ: أخذ بروديل عليك بعد عدة سنوات مأخذاً مماثلاً. ففي كتابات حول التاريخ ينقل هذه الجملة من مقالك «ديوجينيس النائم»: «إن ساعة نقضيها مع معاصر لأفلاطون قد تعلمنا عن مدى تماسك الحضارة الإغريقية أو عدم تماسكها أكثر من كل أعمال

مؤرخينا» ويعلق عليها بقوله: «نعم هذا صحيح، لكن لأن هذه الرحلة ستكون محضّرة عبر قراءة كل أعمال هؤلاء المؤرخين»[37].

ك. ل. ش: كنت أطلق هنا دعابة فحواها أن بروديل مجبول على الانتقاد، إن رده لا يمنع فيلماً مدته خمس دقائق يجري في أثينا القرن الخامس من أن يغير بعمق الرؤية التي يعطينا إياها المؤرخون. وقد قلت للتو إن الملاحظة على الأرض يجب أن تكون محضّرة ومغذاة. لكن لا شيء يمكن أن يحل محلها.

د. إ: تؤكد أيضاً في هذا المقال أن التاريخ والإثنولوجيا لهما نفس موضوع البحث: فهم الحياة الاجتماعية، لاستخلاص التعبيرات الواعية منها في حالة أحدهما، واستخلاص التعبيرات اللاواعية في حالة الآخر. وقد أثارت هذه الجملة الكثير من التعليق.

ك. ل. ش: والإدانة من قبل مؤرخي «حوليّات». لم يفهموا أنني أخذت بعين الاعتبار -كنقطة انطلاق لمقالي- حالتين محدودتين: التاريخ الأكثر تقليدية (المكرس للملك والتحالفات والحروب والمعاهدات) هذا من جهة، والإثنولوجيا التي تتم ممارستها بوسائل التحليل البنيوي من جهة ثانية. وهكذا يكون صحيحاً أن الأول يرتكز كلياً على شهادات مكتوبة وبالتالي على تعبيرات واعية، وأن الثانية تسعى للوصول خلف الوقائع الملاحظة إلى الآليات اللاواعية التي تحكمها.

إن هذا التعارض بين الإثنولوجيا والتاريخ يمحّي في أعمال فيفر ومن أخذ عنه. لكن هذا التطور يدين بداية إلى التعاليم التي أخذها من السوسيولوجيا الدوركهايمية (من السلطة التعسفية قليلاً التي أراد تحرير التاريخ منها)، وفيما بعد، يدين هذا التطور كثيراً إلى

ما كانت الإثنولوجيا تحمله للمؤرخين. فقد تغذى «التاريخ الجديد» -كما يسمى- من الإثنولوجيا. وكان مقالي برمته ينزع إلى إثبات أن تعارضاً مضراً أكل الدهر عليه وشرب يجب أن يحل محله عمل يستطيع الإثنولوجيون والمؤرخون، من الآن فصاعداً، القيام به جنباً إلى جنب بتعاون وثيق.

د. إ: وهذا ما حدث.

ك. ل. ش: انعقد الحوار بين نظامينا منذ ثلاثين عاماً. فقد فهم المؤرخون أهمية الوقائع الصغيرة في الحياة اليومية التي تستخرجها الإثنولوجيا. والتي لم يعرها أسلافهم أي اهتمام. لقد قلت مرة في الولايات المتحدة -كان ذلك عام 1952 في مؤتمر الإنثروبولوجيين الذي نظمته Wenner-Gren-Foondation- «إننا نلمّ خرق البحث التاريخي ونبحث عن ثروتنا في سلات قمامته»(*). وقد سبب هذا ردود فعل مختلفة، فزملائي لم يستسيغوا هذه المقارنة. وفي نهاية الجلسة جاءت مارغريت ميد إليّ وقالت «ثمة كلمات يجب عدم التلفظ بها أبداً» ومنذ ذلك اليوم بدأت صداقتنا التي استمرت حتى موتها. بيد أن المؤرخين اكتشفوا أن هذه النفاية المزدراة لوقت طويل، والتي تتردد في الأخبار والمذكرات وفي الأدب أيضاً، تماثل

(*) يعقد ليفي – شتراوس هنا مقارنة بين عمل الإثنولوجيين وعمل الباحثين التاريخيين، فالإثنولوجيون يهتمون بالوقائع الصغيرة للحياة اليومية: طريقة العيش، السكن، اللباس، الطعام... وهي أشياء لا يعيرها المؤرخون أية أهمية ويعتبرونها نفاية يجب رميها. فاهتمامهم منصب على الأحداث التاريخية الكبرى والحروب والمعاهدات والتحالفات... وهنا في سلة مهملات التاريخ يجد الإثنولوجيون كل مادتهم ومن الواضح أن ليفي – شتراوس لم يعقد هذه المقارنة بقصد تحقيري كما يمكن أن يُفهم من هذه الجملة، وكما فهم زملاؤه المؤتمرون في الواقع.

ملاحظات الإثنولوجيين الميدانية، وأن باستطاعتهم الاستفادة منها. حوالي عام 1950، استمتعت بقراءة سلسلة من كتب ألفريد فرانكلين تشكل مجموعة مكرسة للحياة الخاصة في فرنسا بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر. كنت أنبشها عند باعة الكتب المستعملة، ويبلغ عددها كاملة عشرين مجلداً. كان فرانكلين أمين سر مكتبة مازارين في الفترة التي كان بروست موظفاً فيها بصفة مؤقتة، ويبدو أنه لم يكن يأتي أبداً. لكن رئيسه في العمل كان يقود -هو الآخر- على طريقته بحثاً رائعاً عن الزمن المفقود! إن كتب فرانكلين تندرج ضمن إطار ما ندعوه اليوم الإنثروبولوجيا التاريخية، وهو اختصاص أصبح دارجاً عند المؤرخين وجعلهم يستحقون احتلال مقدمة المسرح حالياً. لأن الجمهور -وهذا مفهوم- يهتم بطرق عيش أسلافنا أكثر بكثير من اهتمامه بطرق عيش هنود أمريكا الجنوبية أو الميلانيزيين...

د. إ: يقال أحياناً إن هدف مقال بروديل على المدى الطويل مقاومة تأثيرك على المؤرخين.

ك. ل. ش: ليس لديّ غرورُ الاعتقاد بذلك. أتصور أنه كان يمتلك أسباباً أخرى أهم، مع افتراضي أن الحظوة التي نالتها الإثنولوجيا لدى الرأي العام -في وقت ما- ما أقلقت المؤرخين. إن موقف المؤرخين من الإثنولوجيا آنذاك يعيد إلى الأذهان موقف فيفر من المدرسة الدوركهايمية قبل ذلك ببضعة عقود. وفي الحالتين عرف التاريخ كيف يحافظ على استقلاله مغتنياً من عوائد منافسته.

د. إ: بالمقابل أسهم المؤرخون أيضاً إسهاماً كبيراً في البحث الإثنولوجي.

ك. ل. ش: دون شك. فقد أضافوا إلى التشكيلة المتوفرة لدينا

(والمؤلفة من مجتمعات ممتدة في المكان) مجتمعات متراكبة في الزمان إذا جاز القول. إن التاريخ يقدم لنا عدداً كثيراً من التجارب «الجاهزة» التي نستطيع الاعتماد عليها. وبفضل ذلك حدث انقلاب مدهش. ففي البدء، كانت مدرسة «حوليات» منصرفة عن التاريخ القديم وتاريخ الإخباريين chroniqueur وكتّاب المذكرات لكي تهتم بالحركات العميقة في النظام الديمغرافي والاقتصادي أو في نظام الأفكار، في حين سلكنا -نحن الإثنولوجيين- الطريق المعاكس. فتاريخ الأحداث -وحتى النوادر- هو الذي يعلمنا كيفية عقد الارتباطات الزواجية وتشكيل شبكات القرابة وانتقال الثروات في العائلات الملكية أو النبيلة كما في الأوساط الريفية التقليدية مما جعلنا نتوصل إلى إظهار نقاط عبور وتمفصلات تسمح بالمقارنة بين المجتمعات البعيدة والغريبة وبين الحالات القديمة لمجتمعنا. وهكذا تقاطع من جديد طريقا التاريخ والإثنولوجيا مع الأمل (هذه المرة) أن يسيرا من الآن فصاعداً في الطريق نفسه انطلاقاً من نقطة الالتقاء هذه.

د. إ: ما زلنا بصدد هذا المقال، لقد تحدثتَ فيه عن «الفعالية اللاواعية للفكر» التي تتضمن فرض «أشكال على محتوى». وأضفتَ إن هذه الأشكال متماثلة في جميع المجتمعات: القديمة منها والحديثة، البدائية والمتحضرة. وهذا ما دفع المؤرخين إلى نقد مفهومك اللاتاريخي لعمل الفكر.

ك. ل. ش: إنه لسوء فهم. لقد ذكّرت فقط -عندما كنت بصدد تصحيح المفهوم القديم للطبيعة الإنسانية- أن للدماغ البشري الطبيعة نفسها في كل زمان ومكان، وبالتالي فإن قيوداً متماثلة تفرض على عمل الفكر. لكن الفكر لا يعالج هنا وهناك المسائل نفسها. فهذه المسائل تطرح بأشكال متنوعة جداً بتنوع الوسط الجغرافي والمناخ

والحالة الحضارية للمجتمع وماضيه التاريخي القديم والحالي، وباختلاف الأفراد: طبع كل فرد وتاريخه ووضعه في المجموعة... فالآلية هي نفسها في كل مكان لكن ليس المداخل أو المخارج.

د. إ: مع ذلك، تم اتهامك بشيء من «الإلياتية(*) الجديدة» eleatisme nouvel (وهي نهج لرفض الحركة).

ك. ل. ش: ببساطة، هذا سخيف. والمؤرخون الذين أخذوا عليّ أحياناً منح امتياز للثابت هم أول من يجب عليهم الاعتراف به. وإلا فكيف يمكنهم إعادة بناء ما كان يجري في رؤوس الناس قبل قرنين أو ثلاثة أو أربعة إذا لم يبدؤوا بالتسليم بوجود بعض الأشياء المشتركة بيننا وبين هؤلاء الناس، وبأن البشر يفكرون بشكل أساسي بالطريقة نفسها؟ وإلا أصبح كلٌّ من الماضي والقاصي بعيدين عن المتناول. يعتبر هؤلاء المؤرخون هذا الثابت بديهياً، وهم لا يرون أنه يطرح مسائل واسعة، للآخرين الحقُّ والواجبُ في التصدي لها.

د. إ: للإفلات من انتقادات المؤرخين، أدخلتَ التمييز بين «المجتمعات الباردة» التي تدرسها الإثنولوجيا حيث لا يوجد تاريخ، وبين «المجتمعات الحارة» التي يدرسها المؤرخ. وهنا أيضاً. خلق هذا التمييز مشاكل أكثر من التي أزاحها.

ك. ل. ش: لقد أدخلت هذا المفهوم في «لقاءات مع جورج شاربونييه»[38]. وكررتها في درسي الافتتاحي في الكوليج دو فرانس لكي أزيل أيضاً بعض سوء الفهم. عندما أتحدث عن «مجتمعات باردة» و«مجتمعات حارة» أتصور حالات محددة. لقد قلت وكتبت

(*) الإلياتية: نسبة إلى مدينة إيلي الإغريقية ومدرستها الفلسفية الشهيرة التي من أعلامها أكزينوفان وبارمينيد وزينون الإيلي.

وكررت مئة مرة أن ما من مجتمع «بارد» أو «حار» بالمطلق. إنها مفاهيم نظرية نحتاج إليها كي نصوغ فرضياتنا. فالمجتمعات الواقعية تتوزع على طول محور ولا يحتل أيٌّ منها قطبيه.

في المقام الثاني، أنا لا أؤسس تمييزاً موضوعياً بين أنماط مختلفة من المجتمعات، بل أعود إلى الموقف الذاتي الذي تتبناه المجتمعات الإنسانية حيال تاريخها. عندما نتحدث عن مجتمعات «بدائية» فإننا نضع هذه الكلمة بين هلالين لكي نعرف أن هذا المصطلح غير صحيح وفرضه علينا الاستخدام، لكنه بمعنى ما مناسب: فالمجتمعات التي ندعوها «بدائية» ليست كذلك بأي شكل من الأشكال لكنها أرادت نفسها كذلك. فهي تحلم بأن تكون بدائية لأن مثالها ideal هو البقاء كما خلقتها الآلهة أو الأسلاف في بدء الزمن. بالطبع إنها تتوهم ولن تفلت من التاريخ أكثر من الآخرين. فهي تخضع لهذا التاريخ الذي تشك فيه ولا تحبه. أما المجتمعات الحارة – كمجتمعنا– فتمتلك حيال التاريخ موقفاً مختلفاً جذرياً. إننا لا نعترف بوجود التاريخ فحسب بل نُكنّ له تعبّداً، لأن المعرفة التي نؤمن بها أو نريد الحصول عليها من ماضينا المشترك، وبالتحديد من الطريقة التي نفسر بها هذا الماضي، تخدمنا في تشريع أو نقد تطور المجتمع الذي نعيش فيه وفي توجيه مستقبله، ومثال سارتر يظهر ذلك جيداً. إننا نستبطن تاريخنا ونجعل منه عنصراً من وعينا الأخلاقي.

د. إ: في نقاش مع موريس غودولييه ومارك أوجيه نشر في مجلة الإنسان(39) عام 1975، يوجد عدد من العبارات تحدد جيداً رغم ندرتها فهمك للتاريخ. تقول على سبيل المثال «يجب الانحناء أمام اللالزوم الأولي contingence irreductible للتاريخ».

ك. ل. ش: كنت أستعيد الجملة الختامية من «من العسل إلى الرماد». عندما أخذ علي الماركسيون والماركسيون الجدد جهلي بالتاريخ أجبتهم: أنتم من يجهل التاريخ أو بالأحرى من يدير له ظهره. فأنتم تضعون مكان التاريخ الواقعي والعياني قوانين كبرى للتطور لا توجد إلا في رؤوسكم. إن احترامي للتاريخ والميل الذي أشعر به نحوه يأتيان من الإحساس الذي يعطيني إياه بأن ما من بناء فكري يمكنه أن يحل محل الطريقة غير المتوقعة التي تجري عليها الأمور واقعياً. ويبدو لي الحدث في لا «لزومه» معطى «أولياً». ويجب على التحليل البنيوي أن يعمل بوجود ذلك.

د. إ: إنك ترفض وجود «قوانين للتاريخ»!

ك. ل. ش: إن عدد المتغيرات كبير (ثمة عدد كبير من المعايير) لدرجة أن إدراكاً إلهياً فقط يمكنه أن يعرف ويعلم ما حدث منذ الأزل وما سيحدث. فالبشر يخطئون دائماً والتاريخ يثبت ذلك. يقال: «سيحدث أحد هذين الأمرين» ودائماً يحدث الثالث.

د. إ: هل يترك اللالزوم المطلق هذا مكاناً للتحليل التاريخي؟

ك. ل. ش: بالتأكيد. فالأحداث تبقى غير قابلة للتوقع مادامت لم تحدث بعد. لكن، حالما يتم ذلك، يمكننا أن نحاول فهمها وتأويلها. كما يمكن ربط الأحداث بعضها ببعض وفهم منطق هذا التسلسل بطريقة عكسية retrospecti vement. أما في الحاضر فلا شيء يسمح بتوقع ما سيحدث نظراً لوجود عدد كبير من الاحتمالات: بعضها قابل للتصور وبعضها الآخر غير قابل للتصور كلياً.



الفصل الرابع عشر

تتبع مخرب أعشاش العصافير

د. إ: وُلِد «أسطوريات» الذي بدأت بنشره منذ عام 1964، من دروسك في القسم الخامس من مدرسة الدراسات العليا.

ك. ل. ش: لقد سمحت لي هذه الدروس أو بالأحرى هذه الحلقات الدراسية، بأن أتمهل عدة سنوات. كنت أعرف فيها ما سأعمل لكني أتردد في الشروع به. لقد جذبتني بداية ميثولوجيا بويبلوس لأنها محصورة جيداً، وبسبب الغنى والكثافة والتجانس النسبي لمدونة corpus كرس إثنولوجيون أمريكيون أنفسهم لجمعها خلال عدة عقود. وقد ساعدني لوسيان سيباغ وجان كلود غاردان في جرد وتنقيح المواد. كنّا نضع أسطورة على الطاولة ونحللها معاً. كانت النتائج مقنعة لكن ميثولوجيا بويبلوس بدت لي سريعاً مغلقة ومنغلقة على نفسها كثيراً. وشعرت بحاجتي إلى مجال أوسع من المناورة كي أختبر المنهج فقررت أن أعاود الانطلاق من أسطورة البورورو: مخرب أعشاش العصافير التي استحوذت على اهتمامي في حلقة سابقة قبل عدة سنوات من بدء «أسطوريات».

د. إ: في المجلدات الأربعة لأسطوريات، قمت بشرح ثمانمئة وثلاث عشرة أسطورة زيادة على ألف رواية مختلفة. وقلتَ إن هذا لا يمثل إلا جزءاً من المادة المتوفرة. من أين تحصل على هذه الأساطير كلها؟

ك. ل. ش: من أي مكان. حيث لا تخلو عملياً أية دراسة وافية حول شعب ما أو قبيلة من بعض الأساطير التي يضيفها المؤلف بعد أن ينهي دراسة الثقافة المادية والحياة العائلية والاجتماعية لهذا الشعب أو القبيلة. كما توجد مجموعات من الكتب مخصصة برمتها لدراسة ميثولوجيا بعض الشعوب وقد قمت بفرز هذا حسب حاجتي لأني لو بدأت بجرد عقلاني ومنهجي لاستغرق القيام به عشر سنوات قبل أن أكتب سطراً واحداً.

د. إ: ثم انطلقتَ إلى المغامرة؟

ك. ل. ش: ثم انطلقت ممّا لاحظته منذ وقت طويل خلال إقامتي في البرازيل من أن البورورو وأقرب أقربائهم -أعضاء العائلة اللغوية Ge- يمتلكون تنظيمات اجتماعية متقاربة يمكن أن تفسّر الاختلافات بينها كحالات تحوّل: وقد شكّلت هذه الفرضية موضوعاً للعديد من دروسي ومقالاتي. ومن هنا برزت فرضية جديدة: ألا يمكن تفسير التشابهات والاختلافات بين أساطير هذه الشعوب بالطريقة نفسها؟

وهكذا بدأت بدراسة ميثولوجيا وسط البرازيل لألاحظ أساطير الشعوب المتجاورة تتزامن أو تتراكب جزئياً أو تتوافق أو تتناقض حسب الحالة. إن تحليل كل أسطورة يتطلب أساطير أخرى. وهذه العدوى الدلالية -إذا صح القول- تمتد شيئاً فشيئاً وفي عدة

اتجاهات في الوقت نفسه. كما عند الوصول إلى مطل مفتوح على آفاق واسعة تحث هي نفسها على بلوغ مطلات أخرى يمتد النظر خلالها في اتجاهات جديدة.

د. إ: وهذا ما سميته منهج «إشراقات بشكل ورديات»(*) levers en rosace

ك. ل. ش: مهما تكن الأسطورة المتخذة كمركز، فإن رواياتها المختلفة تتشعب حولها مشكِّلة وردية تتسع تدريجياً وتتعقد، ومهما تكن الرواية الموجودة في المحيط التي نختارها كمركز جديد، فإن الظاهرة نفسها تتكرر مجدداً مولدة وردية ثانية تتقاطع مع الأولى وتتجاوزها، وهكذا، إنما ليس إلى ما لا نهاية بل إلى أن تقودنا هذه التكوينات المقوسة إلى النقطة التي انطلقنا منها. مع استنتاج مفاده أن حقلاً مبلبلاً وغير محدد أصلاً يكشف عن شبكة من خطوط القوى ويظهر منظماً بشدة.

د. إ: يطرح هذا المنهج مشكلة «المقارنية» comparatisme برمتها. في ختام «طريق الأقنعة» انتقدت الإثنولوجيين الذين يعتقدون بأن من الممكن الاكتفاء بدراسة مجتمع وحيد أو دراسة المجتمعات واحداً تلو الآخر[40]...

ك. ل. ش: فلنتفاهم جيداً: إن الإثنولوجيين الذين يكرسون أنفسهم على مدى أشهر أو سنوات أو عقود أحياناً لدراسة شعب واحد يستحقون كل الامتنان. فبدونهم قد لا نفعل شيئاً ولا نكون شيئاً. لكن تبرز المشكلة عندما يراد تأسيس نظرية على ذلك. فالعمل

(*) الوردية: بنية زخرفية على شكل وردة متفتحة.

على أساس تجربة وحيدة وحصرية مليء بالأخطار لأن هذه التجربة لا تظهر إلا حالة ممكنة من بين مئات أو آلاف.

أما بخصوص المنهج المقارن، فهو لا يتضمن المقارنة أولاً ثم التعميم، كما سبق لي القول مراراً. بل إن التعميم -وعلى عكس ما يُعتقد غالباً- هو الذي يؤسس المقارنة ويجعلها ممكنة. فأمام تعدد التجارب يجب البدء بالبحث عن مستوى تكون فيه الوقائع الملاحظة والموصوفة قابلة للتحول -أحدها إلى الآخر- تبادلياً. ولا تصبح المقارنة شرعية إلا عندما ننجح في صياغة هذه الوقائع بلغة مشتركة، وبفضل هذا التعميق المسبق.

د. إ: لكي يمكن عقد مقارنة، ينبغي تحديد باحة جغرافية تكون فيها العلاقات بين المجتمعات قابلة للتصور وإلا ...

ك. ل. ش: خضعنا للتساهلات التي أزرت بالمقارنية في القرن التاسع عشر.

د. إ: مما يحتم افتراض تاريخ مشترك بين الشعوب التي تشرعون في مقارنة أساطيرها.

ك. ل. ش: قاعدة لمنهج حكيم ندين به لبواس. لكن يمكننا من وقت لآخر أن نسمح لأنفسنا بالهروب من المدرسة. ففي مقال لم ينشر حتى هذه اللحظة، تسليت بمقارنة الطريقة التي تعبر فيها التوراة عن الختان وما يقوله البورورو عن حمل الغمد الذكري[41]. إن هذا النوع من المقارنات المغامرة يعطي في بعض الأحيان أفكاراً ستلقى استخداماً أفضل في وقت آخر. ولا يمكن استخلاص نتائج منها باستثناء -ربما- أن الفكر البشري يتحرك في حقل محدود من

الممكنات بحيث يمكن لتشكلات عقلية متشابهة أن تتكرر في حقب وأمكنة مختلفة، دون أن يكون من الضروري البحث عن أسباب أخرى لذلك. إن هذا شبيه إلى حد ما بالمشكال الذي يحتوي على عدد محدد من القطع نصف الشفافة: نظرياً، لا شيء يمنع من أن يظهر التشكيل نفسه ثانية بعد عدد من الاهتزازات. وهذا احتمال ضئيل جداً لكنه ليس مستحيلاً.

د. إ: يقودك تحليلك في «أسطوريات» إلى أساطير تذكّر بأساطير اليونان.

ك. ل. ش: من بعيد، ومن بعيد أيضاً ببعض أساطير اليابان. وهذا يستحق التدوين كي نحفظ حقوق التأويلات المحتملة. ويكفيني -بدلاً من مغزى عابر- قبول أن الفكر البشري يعمل بمساعدة مسرد محدد من البنى الشكلية. وسيذهب الاختصاصيون في هذه المناطق من العالم إلى أبعد من ذلك إذا استطاعوا. أنت تعرف دون شك -ومن المفترض أن دوميزيل حدثك عن ذلك أثناء لقاءاتك به- أن علماء يابانيين يعتقدون أنهم وجدوا الوظائف الهند-أوروبية الثلاث في كوريا وفي اليابان.

د. إ: ألم تحاول التفكير بأن كل هذه الأساطير تعود إلى ميثولوجيا أكثر قدماً: باليوليتيكية(*) مشتركة؟

ك. ل. ش: عندما ننظر من علٍ إلى الميثولوجيا العالمية، نتبين من هنا وهناك ثيمات themes تبدو متشابهة جداً بحيث يستحيل أن تكون قد أُبدعت بشكل مستقل. وربما نتجت هذه التشابهات عن

(*) باليوليتيكية: نسبة إلى العصر الحجري القديم.

اقتباسات تعود إلى فترة حديثة، أو إلى فترة قديمة نسبياً أو مغرقة في القدم. فلنأخذ عنصراً motif ميثولوجياً وليكن شعباً من الأقزام يحارب طيوراً مائية: إننا نجده في الحضارات الكلاسيكية القديمة وفي الشرق الأقصى وفي أمريكا... فهل تم إبداعه عدة مرات؟ هذا احتمال ضئيل فإذاً متى وعبر أي طريق انتشر؟ لا نعرف ذلك. يمكن افتراض أي شيء، كأن يكون مستمراً كأثر متبق من ميثولوجيا باليوليتيكية أو أن يعود انتشاره إلى بضعة قرون فقط أو أنه انتشر عبر خط قد نتمكن يوماً من تحديده. كل هذه حالات خاصة يجب دراسة كل منها على حدة.

د. إ: نجد في كتبك نمطين من المقارنية: في «البنى الأولية للقرابة» مقارنة تنتقل من قارة إلى أخرى.

بينما تؤكد في «أسطوريات» على حرصك ألا تقارن أبداً أي شيء غير قابل لأن يرجع إلى تاريخ مشترك، إلى ماضٍ مشترك...

ك. ل. ش: إن هدف البحثين ومناهجهما متشابهة لكن الوضعيات التاريخية لكل منهما مختلفة. عندما تصديت لدراسة أنظمة القرابة وقواعد الزواج، كان ثمة توهان في تأويلات خاصة. وبالمقابل، كانت دراسة الأساطير فريسة مقارنة هذيانية تُمَدّ إلى العالم بأسره، قائمة على تشابهات سطحية،وهكذا كان عليّ أن أتحرك في اتجاهات متعارضة.

إضافة إلى أن هذين الصنفين من الظواهر ليسا من المستوى نفسه. فمع القرابة والزواج يتم لمس أسس الحياة الاجتماعية: وهذا شبيه بمستوى جزئي (وكما نعلم فإن الأشياء تتشابه على المستوى الجزئي عند كل الكائنات وفي كل الأمكنة). بينما تعطي الأساطير

للباحث مظاهر أكثر تعقيداً وتنوعاً بحيث يجب في البدء الانكباب على اختزالها.

د. إ: ومع ذلك، يتم أحياناً فهم عملك كأنه يسمح بربط ميثولوجيات العالم بأسره بعضها ببعض بفضل نظام «التحولات».

ك. ل. ش: بالتأكيد لا. لأن بين دراسة القرابة ودراسة الأساطير فرقاً ثالثاً. فحوالي 1942 – 1943 عندما كنت أقارب الأولى، كان خلفي قرن كامل من الدراسات النسقية للقرابة أستطيع الارتكاز عليه. وكانت تتوفر لي مواد مكتوبة بلغة تقنية متجانسة نسبياً –يقال اليوم مطبّعة Normalise– سمحت لي بالانتقال إلى المرحلة التالية أي المقارنة. بينما لم يكن متوفراً شيء من هذا القبيل عن الأساطير التي كانت تصلني على شكل مواد خام غير مستثمرة عملياً. وبالتالي كان لزاماً عليّ أن أحاول خلق اصطلاح قابل للانتشار إذا أكدّت دراسات مماثلة على مناطق أخرى من العالم مشروعيته العامة، أو إذا تطلّبت ذلك إصطلاحات أخرى متشابهة معه. بحيث يكون الطموح إلى العمومية في مستوى أعمق. يجب عمل كل هذا وسأتحفظ على الحكم عليه مسبقاً.

د. إ: في الجوهر يقترب منهجك في «أسطوريات» من منهج دوميزيل: أي تحديد منطقة جغرافية ومحاولة إيجاد البنى السفلية المتماثلة فيها. بيد أن نقطة رئيسية تفصل بين مقاربتيكما: فهو يمتلك تعاقباً تاريخياً هاماً، بينما لا تستطيع عند تحليلك للأساطير الأمريكية أن تجد عمقها التاريخي.

ك. ل. ش: لست بحاجة إلى أن أقول لك كل ما أدين به لعمل دوميزيل. لقد استقيت منه دروساً وحوافز. لكن الفرق الذي تذكره

ليس الوحيد. لم يكن لنا الهدف نفسه. فقد كان يسعى لكي يبرهن أن لمنظومة التصورات (التي تم إثبات وجودها في عدة مناطق من آسيا وأوروبا) أصل مشترك. في حين كان لديّ هدف آخر. إن الوحدة التاريخية والجغرافية في مادة بحثي موجودة منذ البداية: فشعوب أمريكا تألفت من موجات متتابعة من المهاجرين، لهم جميعاً في الإطار العام الأصل نفسه، ويقع دخولهم إلى العالم الجديد حسب المؤلفين، بين الألف السبعين وحوالي الألف الخامس عشر. ولذلك كنت أبحث عن شيء آخر: في البدء إبراز الاختلافات بين الميثولوجيات التي يثبت التاريخ وحدتها، وفيما بعد فهم آليات الفكر الأسطوري انطلاقاً من حالة محددة.



د. إ: يتألف كل جزء من «أسطوريات» من مئات الصفحات. ومع ذلك، أنت ترى في ختام «الإنسان العاري» أنه عمل متجانس.

ك. ل. ش: مع هذا التحفظ: بعد أن أنهيت الجزء الثالث قلت لنفسي إنني لن أنجح أبداً في الوصول إلى النهاية فما زال ينقصني الكثير. لذلك اتخذت قراراً بأنني لن أكتب بعده إلا جزءاً واحداً هو الرابع، وأنني سأجعله يضم كل ما أرغب بقوله، على شكل تلميحات أو تحريضات للأبحاث المستقبلية. إن هذا الجزء أكبر حجماً من الأجزاء السابقة، وبناؤه معقد جداً: فهو يضم مادة كتابين أو ثلاثة.

د. إ: هل كنت تخشى من فشل محاولتك؟

ك. ل. ش: كنت أتذكر سوسور وأعماله حول النيبلانغ Niblungen. لقد أمضى جزءاً من حياته -ربما هو الجزء الأكبر منها-

في ترتيب هذا الخليط من الأساطير والسير والتاريخ. وخلّف مئات المخطوطات محفوظة في مكتبة جنيف، حيث حصلت عليها ودرستها. لقد سحرتني هذه القراءة بكل الأفكار التي وجدتها فيها، وخاصة الدرس الذي استخلصته منها: كان البحث يتطور وتم فتح طرق جديدة. لكن سوسور مات قبل أن ينشر أي شيء من عمله الضخم. وكنت أشعر أنني معرض للخطر نفسه، فعزمت على الإفلات منه، خوفاً من ألا تصل مغامرتي إلى نهايتها كما حدث لمغامرته.

د. إ: عندما عملت على هذه الأساطير بدأت بعرضها. أعتقد انها اكثر طولاً وتنوعاً من روايتك لها.

ك. ل. ش: لقد أخذوا علي خطأ هذا المأخذ. فالتفاصيل التي أغفلتها في الملخص عدت إليها فيما بعد في سياق التحليل، وكان هدفي من ذلك السماح لقارئ يجهل كل شيء عن الميثولوجيا وعن عالم أمريكا، أن يكوّن فكرة عامة عن كل أسطورة أو مجموعة من الأساطير. ثم فيما بعد، أجبره على الدخول في التفاصيل دون أن أغفل أياً منها عندما يظهر التحليل دورها وأهميتها.

د. إ: إنها قصص رائعة، نصوص أدبية حقيقية. لا بد أن الغوص في هذا الأدب منحك متعة.

ك. ل. ش: إنها قصص رائعة ومؤثرة غالباً، بشرط أن يكون المُخبر أيضاً راوياً جيداً، وهذا ما لا يتوفر دائماً. لقد بدأت بالانكباب على الميثولوجيا عام 1950 وأنهيت «أسطوريات» عام 1970، وخلال هذه السنوات العشرين عشت في عالم آخر ثملاً بالأساطير.

لقد تشربتها، فمن الضروري أن نمتص منها أكثر بكثير مما نستخدم! عندما نثبت أن أسطورة لشعب ما توجد على شكل معدل عند شعب مجاور يجب جرد كل أدبه الاثنوغرافي لكي نبحث في وسطه وتقنياته وتاريخه وتنظيمه الاجتماعي، عن عوامل قد تفسر هذه التعديلات. وهكذا عشت مع هذه الشعوب وأساطيرها كما في حكاية من حكايات الجان.

د. إ: إنها ايضاً تجربة جمالية.

ك. ل. ش: ومثيرة بمقدار ما تظهر هذه الأساطير للوهلة الأولى كألغاز. فهي تروي قصصاً دون نهاية ولا بداية مليئة بأحداث منافية للعقل. لذلك يجب حضانة الأسطورة لعدة أيام أو أسابيع وأحياناً لعدة أشهر، قبل أن تنبثق الشرارة فجأة، لأتعرف في تفصيل غير مفهوم من أسطورة ما، على تحويل لتفصيل غير مفهوم من أسطورة أخرى، ولأتمكن عبر هذه المواربة من قيادتهما معاً إلى الوحدة. إن أي تفصيل ليس بحاجة لأن يدل على شيء إذا أُخذ منفرداً، ففي علاقته الاختلافية تكمن قابلية فهمه.

د. إ: أصبحت عناوين أجزائك الأربعة شهيرة، وتعبّر الأجزاء الثلاثة الأولى (النيء والمطبوخ ومن العسل إلى الرماد وأصل آداب المائدة) عن المسيرة الإجمالية: إظهار الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة. أما الأخير «الإنسان العاري»...

ك. ل. ش: فقد عاد إلى نقطة الانطلاق، لأن العاري قياساً بالثقافة معادل للنيء بالطبيعة: وهكذا كانت الكلمة الأولى من عنوان الجزء الأول، والكلمة الأخيرة من عنوان الجزء الأخير متوافقتين مثلما

يعود طواف يبتدئ في أمريكا الجنوبية ويصعد تدريجياً حتى شمال أمريكا الشمالية إلى نقطة الانطلاق في نهاية المطاف.

د. إ: عندما عنونت الجزء الأول «النيء والمطبوخ» هل فكرت بعنونة الأخير «الإنسان العاري»؟

ك. ل. ش: لم أكن أمتلك رؤية واضحة كلياً. لكني كنت أعرف، في الإطار العام، ما سيكون عليه مساري. حيث كان عليّ الانطلاق من أساطير تجعل من الطبخ معيار الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة، ثم التحرك شيئاً فشيئاً، مدفوعاً بالمنطق الداخلي للأساطير للوصول إلى أساطير لا يعود فيها الحد الفاصل بين الثقافة والطبيعة ماراً بين النيء والمطبوخ، إنما بين قبول ورفض التبادلات الاقتصادية، أي، بين قبول ورفض حياة اجتماعية تتجاوز حدود المجموعة. إن المعارض والأسواق التي تلتقي فيها الشعوب موسمياً -حتى المتعادية منها- لتبادل الأطعمة ومنتجات صناعتها، تعتبر شكلاً معدّاً للحياة الاجتماعية يمكن مقارنته بالتحول الأول الذي تفرضه ثقافة منفردة على الطبيعة عبر الطبخ (وقد قام بهذه المقارنة فعلاً بعض المهتمين).

د. إ: انتظم كتابك وفق «إشراقات بشكل ورديات» ووفق صعود من أمريكا الجنوبية باتجاه أمريكا الشمالية في الوقت نفسه.

ك. ل. ش: في الواقع. إن تحول الأساطير بالمعنى الذي ذكرته للتّو قد تم في الشمال الشرقي لأمريكا الشمالية (من الأوريغون إلى كولومبيا البريطانية) بسبب التطور الاستثنائي للتبادلات التجارية بين القبائل. ثم، أليس أمراً ذا دلالة خاصة أن أجد فيه أساطير أمريكية جنوبية دون تعديل تقريباً (وهي أساطير كنت قد انطلقت منها)؟ لقد انغلقت الحلقة في المكان وبين نصفي الكرة في الوقت نفسه.

د. إ: نقطة انطلاقك، كما ذكرت، هي أسطورة البورورو حول مخرب أعشاش العصافير. كيف تم اختيار «أسطورة مرجعية» تسمح بربط كل البقية؟

ك. ل. ش: عشت في قرية بورورو أثناء بعثتي الأولى. وكان انتباهي آنذاك منصباً على التنظيم الاجتماعي، وعندما بدأ انشغالي بالعلوم الدينية في القسم الخامس اهتممت أيضاً بالميثولوجيا التي عمل المبشرون الساليزيون على جمعها منذ نصف قرن.

د. إ: ممّا يدل على أن الخيار كان اعتباطياً تماماً؟

ك. ل. ش: في البدء نعم. وكما سبق لي القول عن التاريخ بشكل عام: أستطيع الآن -إذا عدت القهقرى- تفسير هذا الخيار بل تبريره أيضاً. أما عندما قمت به فقد كان ذلك لأسباب عرضية.

د. إ: نظرياً، كان بإمكانك الانطلاق من أسطورة أخرى ومن شعب آخر.

ك. ل. ش: دون شك. وبما أن أرض الميثولوجيا دائرية، فخط سير آخر كان سيقودني إلى النقطة نفسها. بيد أنني فهمت فيما بعد أن هذه الأسطورة تحتل موقعاً استراتيجياً في مجموع الأساطير الأمريكية الهندية. إنها مفصل بين منظومتين: منظومة العلاقات العمودية ومنظومة العلاقات الأفقية. أي بين العلاقات: أعلى / أسفل، سماء / أرض، طبيعة / فوق طبيعة، من جهة وبين العلاقات: قريب / بعيد، مواطن / غريب من جهة ثانية.

د. إ: يسير «أسطوريات» وفق تحرك جغرافي ووفق تقدم في تعقيد التحليل أيضاً.

ك. ل. ش: هذا صحيح. تتقدم الأجزاء الأربعة وفق حركة مزدوجة. فمن جهة، ثمة الامتداد الجغرافي: في «النيء والمطبوخ» يقتصر التحليل على أمريكا الجنوبية، وخاصة وسط البرازيل وشرقه. ويوسع «من العسل إلى الرماد» حقل البحث، باتجاه الشمال كما باتجاه الجنوب، لكنه يظل في أمريكا الجنوبية، ومع «أصل آداب المائدة» يُستأنف التحليل اعتباراً من أسطورة أمريكية جنوبية لكنها شمالية أكثر، تعالج المسألة ذاتها بواسطة صور مختلفة تظهرها بوضوح أكبر أساطير أمريكا الشمالية. وهكذا فرض الانتقال من قارة إلى أخرى نفسه فارتكز الكتاب على الاثنتين. أما الجزء الأخير فهو شمالي كلياً ويسير بالقارئ إلى الأبعد. لأن التشابهات الأكثر وضوحاً بين الأساطير توجد بين مناطق متباعدة جداً من العالم الجديد. وهذه مفارقة مدهشة بذلت جهدي لشرحها.

أما الحركة الثانية فمتعلقة بالمنطق. حيث تتصدى الأساطير المقدمة بالتتابع لمسائل ذات تعقيد متزايد. فأساطير الجزء الأول تستخدم تقابلات بين كيفيات محسوسة: نيء / مطبوخ، طازج / متعفن، جاف / رطب الخ... وفي الجزء الثاني تحل محل التقابلات شيئاً فشيئاً تقابلات أخرى لا تتطلب منطق كيفيات بل منطق أشكال: فارغ / مليء، محتوٍ / محتوى، داخلي / خارجي الخ... وينجز الجزء الثالث خطوة حاسمة، فهو يعالج الأساطير التي تتجاوز مقابلة الكلمات لتقابل الطرق المختلفة التي تتقابل وفقها هذه الكلمات فيما بينها: يمكن أن تكون متصلة / يمكن أن تكون منفصلة، حيث تتساءل كيف يتم الانتقال من حالة إلى أخرى.

تحتل الأساطير التي تحكي عن سفر بالنقيرة موقعاً

استراتيجياً في الكتاب لأنها تبرز بشكل رائع هذا النوع من المسائل. ففي بداية السفر وأثناءه يبتعد القريب ويقترب البعيد شيئاً فشيئاً، وفي نهايته تنقلب القيمتان البدئيتان لهذين الحدّين. لكن السفر استغرق زمناً. وهكذا دخل الزمن إلى الفكر الأسطوري كوسيلة ضرورية لنشوء علاقات بين العلاقات الموجودة قبلاً في المكان. وهذا يدل على أن بعداً روائياً يتداخل تدريجياً مع البعد الأسطوري، مع كل النتائج التي يفرضها ذلك على تطور النوعين. كما يظهر أيضاً أن الفكر الأسطوري قادر على التجريد (وإن بطريقة مضمرة) فهو يقوم بربط حاذق دائماً لحدود هي في الأصل صور عيانية مأخوذة من التجربة الحسية.

د. إ: تُظهر في العمل هذا الفكر المنطقي الذي عرّفته في «الفكر البدائي». وفي استطراد صغير في «من العسل إلى الرماد» تتساءل لماذا لم تقم الشعوب التي امتلكت هذه القدرة على التجريد المنطقي، بالانتقال إلى العقل العلمي والفلسفي الذي انتجته حضارات أخرى في العصور القديمة؟

ك. ل. ش: لا أعرف، ربما كان يجب أن تصبح المجتمعات نفسها من نمط آخر كي يتحول الفكر.

د. إ: يحددّ فيرنان الانتقال إلى الفكر العقلاني عند الإغريق في التنظيم السياسي للمدينة.

ك. ل. ش: نعم، ورأى آخرون في متطلبات التحديد والصرامة الملازمة للفكر الحقوقي شرطاً مسبقاً لظهور الفكر العلمي. وتبقى هذه التفسيرات المختلفة غير شمولية كما يبدو.

د. إ: ينتهي طوافك في الميثولوجيا بفصل عنوانه «الأسطورة الوحيدة» في «الإنسان العاري». هل أردت القول إن كل الأساطير المحللة في الأجزاء الأربعة ليست في الواقع إلا تنويعاً على الأسطورة نفسها؟

ك. ل. ش: على الأقل تنويعات على ثيمة كبرى: الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة الذي كان ثمنه قطيعة نهائية بين العالمين السماوي والأرضي، ومن هنا المشاكل الإنسانية التي تدور حولها هذه الميثولوجيا.



د. إ: هل تعتبر أن «الخزافة الغيور» ينتمي إلى «أسطوريات»؟ فأنت لم تعالج فيه المسألة نفسها تماماً.

ك. ل. ش: الإشكالية هي ذاتها: ويكمن الاختلاف فقط في المحتوى التجريبي - أو الجمالي بالمعنى الكانطي للكلمة. كما أن الوتيرة مختلفة، فالكتاب أقصر وإيقاعه أسرع. إن «الخزافة الغيور» قياساً بـ«أسطوريات» يشبه إلى حد ما الباليه قياساً بالأوبرات الضخمة.

د. إ: بعد أن كرست الكثير من السنوات لدراسة الأساطير قمت بإعلان استكانة مدهش: علم الأساطير متلعثم.

ك. ل. ش: وقبل ذلك أيضاً. لقد قلت في «النيء والمطبوخ»: «ما يزال علينا فعل كل شيء أو تقريباً كل شيء قبل أن نتمكن من الكلام عن علم حقيقي».. والعنوان الفرعي للأجزاء الأربعة في

الترجمة الإنكليزية «مدخل إلى علم الأساطير» قد وضعه الناشرون رغم اعتراضاتي.

د. إ: لكنك قمت بخطوة.

ك. ل. ش: أعتقد ذلك. إنما كم ينبغي القيام بأخرى! سيحتوي عدد قادم من «الإنسان» على مقال لزميلي في مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية جان بوتيتو، معاون رينيه توم ومريده[42] يترجم فيه بمصطلحاتِ نظريةِ الكوارث عبارة قلتها عام 1955 ووضحتها بأمثلة في «الخزافة الغيور». إنني غير قادر على متابعته لكنني سعيد جداً لأن الرياضيين لا يهزون أكتافهم أمام المظاهر الشكلية Formel لعملي ولأنهم يأخذون تحليل الأساطير على محمل الجد.

د. إ: لماذا لم تحاول في «أسطوريات» القيام بمثل تجربة التشكيل الرياضي التي قمت بها في «البنى الأولية للقرابة»؟

ك. ل. ش: تحدثت في هذا مع الرياضيين، وقال لي بعضهم إن الأمر قد يكون ممكناً، لكنه صعب عليّ كثيراً. وإنهم أقدر على القيام به. إن المسألة المطروحة في «البنى الأولية للقرابة» مرتبطة مباشرة بالجبر وبنظرية مجموعات التعويض. أما المسائل التي تطرحها الميثولوجيا فتبدو غير قابلة للفصل عن الأشكال الجمالية التي تموضعها. إن هذه الأشكال تنتمي إلى المستمر والمنقطع في الوقت نفسه، وهي نقيضة تعطي نظرية الكوارث وسيلة جديدة لتجاوزها.

يمكن أيضاً التفكير بالحاسوب. وقد ترامى إلي وجود محاولات في أمريكا لإعادة كتابة «النيء والمطبوخ» آلياً إذا صح التعبير.

د. إ: هل تعرف النتيجة؟

ك. ل. ش: ربما كانت السلاسل أكثر دقة، لكنها أخذت وقتاً لا يتناسب معها. ولا شك أن مبتكري هذه المناهج كانوا مشغولين بأشياء أخرى: فقد توصلوا إلى توليد الأساطير الخمس الأولى في الوقت الذي كنت فيه -باجراءاتي الحرَفية- قد حللت عدة مئات مع ترك العديد منها في شيء من «الضبابية الفنية» بالطبع.

الفصل الخامس عشر

عمل الفكر

د. إ: أود أن أطرح عليك سؤالاً سهلاً: ما هي الأسطورة؟

ك. ل. ش: هذا -على العكس- ليس سؤالاً سهلاً البتة. لأن بالإمكان الإجابة عليه بعدة طرق. لو سألت هندياً أمريكياً فسيجيب غالباً: الأسطورة قصة تعود إلى زمن لم يكن فيه تمايز بين الحيوانات والبشر بعد. ويبدو لي هذا التعريف عميقاً جداً. فوضع بشرية تتعايش مع أنواع حية أخرى وتتقاسم معها المتعة على الأرض دون أن تستطيع التواصل معها هو الوضع الأكثر مأساوية وتعدياً على المشاعر والفكر، وذلك رغم سُحُب الحبر التي أمطرها التراث اليهودي - المسيحي عليه كي يقنّعه. ويُفهم من التعريف السابق أن الأساطير ترفض أن تعتبر هذا العيب في الخلْق أصيلاً، وأنها ترى في ظهوره الحدث المدشن للشرط الإنساني وعاهته.

يمكن أيضاً أن نبحث عن تعريف للأسطورة عبر تعارضها مع أشكال أخرى من التراث الشفوي: السِّيَر، الحكايات.. لكن هذه

التمييزات ليست خالصة أبداً. ربما لم تلعب هذه الأشكال الدور نفسه في الثقافات لكنها إنتاج الفكر عينه، ولا يستطيع التحليل الامتناع عن الاستفادة منها كلها أيضاً. على ماذا يقوم هذا الفكر؟ إنه -على عكس المنهج الديكارتي- يقوم على رفض تجزيء الصعوبة وعدم قبول أجوبة جزئية أبداً، والتوق إلى تفسيرات تشمل كلية الظواهر.

إن ما تتميز به الأسطورة هو أنها عندما تواجه مسألة، تفكر فيها عبر تماثلها مع مسائل أخرى مطروحة على أصعدة أخرى: كونية، فيزيائية، أخلاقية، حقوقية، اجتماعية الخ.. وتأخذ بالاعتبار كل ذلك مجتمعاً.

د. إ: الأمر الذي يفسر لعبة التشابكات التي قمت بها.

ك. ل. ش: ما تقوله أسطورة ما بلغة تبدو خاصة بميدان معين، يتشعب إلى كل الميادين التي من الممكن أن تطرح فيها مسائل من النمط الشكلي ذاته.

د. إ: وهذا ما كنت تنتقد فيه فرويد في نهاية «الخزافة الغيور»: انتباهه مثبّت حصراً على الراموز code الجنسي.

ك. ل. ش: يمكننا أن ننتقد فرويد إلى ما لا نهاية: فنصوصه ملتبسة ومتناقضة أحياناً. لكن إعطاءه موقعاً مفتاحياً للراموز الجنسي ليس مثار شك.

د. إ: مع ذلك، في الأساطير التي تحللها، يصعقنا الحضور الكلي للجنسية ومواكب العنف التي ترافقها.

ك. ل. ش: لأن هذا الجانب يشغل حيّزاً كبيراً في نظام قيمنا

وفي حياتنا الاجتماعية. لاحظ مع ذلك أن الأسطورة لن تعالج أبداً مسألة متعلقة بالجنسية بحد ذاتها ولأجلها هي ذاتها معزولة عن كل شيء آخر. بل ستعكف على إظهار أن هذه المسألة مماثلة شكلياً لمسائل أخرى يطرحها البشر حول الأجرام السماوية، وتعاقب الليل والنهار، وتعاقب الفصول، والتنظيم الاجتماعي والعلاقات السياسية بين المجموعات المتجاورة.. فعندما يواجه الفكر الأسطوري مسألة خاصة يضعها بموازاة المسائل الأخرى مستخدماً في الوقت نفسه عدة رواميز.

د. إ: إنه شرح عبر مسائل متتابعة.

ك. ل. ش: دون حل أي منها أبداً. إن التشابه بين كل هذه المسائل هو الذي يوهم بأن من الممكن حلها، منذ أن نعي أن الصعوبة الملاحظة في حالة ليست موجودة أو ليست موجودة بالدرجة نفسها في الحالات الأخرى. إننا نستدل قليلاً بواسطة هذه الطريقة عندما نريد أن نشرح شيئاً فنقول: «كما عندما..» أو «إنه مثل..». هذا كسل فينا، لكن الفكر الأسطوري يستخدم هذه الطريقة استخداماً حاذقاً ونسقياً لدرجة أنها تحل محل البرهان...

د. إ: سؤال آخر «سهل»: بماذا تفيد الأسطورة؟

ك. ل. ش: لكي تشرح لماذا أصبحت الأشياء المختلفة منذ البداية، على ما هي عليه، ولماذا لا يمكن أن تكون شيئاً آخر. لأنها - تحديداً- لو تغيرت في ميدان معين لانقلب كل نظام العالم نظراً لتشابه الميادين.

د. إ: كيف تنبثق الأسطورة؟ لا بد أن فرداً قالها للمرة الأولى!

ك. ل. ش: بالتأكيد، لكنك إذا اعتبرت أن الإحاثيين سيصعّدون أعلى فأعلى أصل البشرية، فستتفق معي أن الإجابة على سؤالك ليست سهلة. ربما كان أسلاف الإنسان -منذ مليون أو مليوني سنة- يمتلكون لغة ملفوظة، ولا شيء يستبعد أنهم كانوا يروون الأساطير. وقد تم تحويل هذه الأساطير على مر العصور فاختفى بعضها وولد بعضها الآخر. في أية ظروف؟ إنها كالفطر تقريباً لا نراه أبداً وهو ينبت! إن الإبداع الفردي لا يخلق بمفرده أسطورة. بل يجب أن تتحول بواسطة كيمياء خفية وأن تتمثلها مجموعة اجتماعية لأنها تتوافق مع حاجاتها الفكرية والأخلاقية. فالقصص تخرج من أفواه الأفراد، ينجح بعضها ويفشل آخر..

إن مسألة أصل الأسطورة تشبه مسألة أصل اللغة التي امتنع المجمع الألسني في باريس بجلال عن طرحها لأن الإجابات عليها لا يمكن أن تكون إلا تخميناً. وربما ستأتي الإجابة عليها من الفيزيولوجيا العصبية للدماغ، لكنها في كل الأحوال لن تأتي أبداً من الإثنولوجيا أو من الألسنية. أما بالنسبة للتصورات الأسطورية، فالتساؤل حول أصلها يبقى أقل أهمية من دراسة الموقف الفكري الذي يتخذه الناس تجاه أساطيرهم. إن لهذه الأساطير روايات متنوعة. لكن لا يتم الاختيار بين هذه الروايات أو انتقادها أو الإقرار بأن واحدة منها صحيحة فقط أو أنها أكثر صحة من الأخريات: بل يتم قبولها تزامنياً دون أن تخلق اضطراباً باختلافها. وقد جرت أبحاث عديدة في نقاط مختلقة من العالم أكدت عمومية هذا الموقف الفكري. إن من الضروري دراسة هذا الموقف عن قرب ومقارنته بموقفنا حيال التاريخ الذي تنتشر في مجتمعنا روايات مختلفة له، بل متناقضة أحياناً.

د. إ: إذاً: الأسطورة بالنسبة لك هي مجموع تنويعاتها ورواياتها. ألم تسعَ لتحديد الرواية الأصلية.

ك. ل. ش: لا توجد رواية «جيدة»، ولا يوجد شكل أصلي أو بدئي. ويجب أن تؤخذ كل الروايات على محمل الجد.

د. إ: في ختام «الخرافة الغيور» كتبت إن الأسطورة «مرآة مكبرة» لطريقتنا الدائمة في التفكير. هل هذه هي الإشكالية التي قادتك على طول هذه السلسلة من الكتب؟

ك. ل. ش: إنها أيضاً إشكالية «البنى الأولية للقرابة» عدا أن الوقائع الدينية في «أسطوريات» حلت محل الوقائع السوسيولوجية في «البنى» لكن السؤال المطروح لا يتغير: فمع وجود عماء من الممارسات الاجتماعية أو التصورات الدينية، هل سنستمر بالبحث عن تفسيرات جزئية مختلفة وفق كل حالة؟ أم سنحاول اكتشاف نظام كامن وبنية عميقة يمكن بواسطتها شرح كل هذا التنوع الظاهر، والانتصار على التفكك؟ كما أن «البُنى» و«أسطوريات» يطرحان المسألة ذاتها تماماً في ميادين مختلفة، ويسيران في مسارين متماثلين.

د. إ: لكن هذه العبارة: «مرآة مكبرة» تستدعي التوقف.

ك. ل. ش: في كل ما كتبت عن الميثولوجيا، أردت أن أُظهر أن من المستحيل الوصول إلى معنى أخير. أليس هذا ما يحدث في الحياة؟ فالدلالة التي يمكن أن تعطيها أسطورة ما لي ولأولئك الذي يحكونها أو يسمعونها في لحظة ما وفي ظروف محددة، لا توجد إلا عبر علاقتها بدلالات أخرى يمكن للأسطورة أن تعطيها لرواة آخرين أو مستمعين آخرين في ظروف أخرى وفي لحظة أخرى.

تقدم الأسطورة شبكة يمكن تعريفها عبر قواعد بنائها فقط. وتسمح هذه الشبكة باستخلاص معنى، لا للأسطورة نفسها، لكن لكل الباقي: صور العالم والمجتمع والتاريخ المتكومة على عتبة الوعي مع الأسئلة التي يطرحها البشر بصددها، ويسمح القالب الذي تقدمه الأسطورة بجمعها في كلٍّ واحد متلاحم. إن هذا الدور الذي أُسنده للأسطورة يتوافق مع الدور الذي كان بودلير يعطيه للموسيقا. ففي تناوله لمطلع Lohengrin بيّن عبر الأمثلة أن كل ذات فردية ترى في العمل محتوى مختلفاً. مع أن كل هذه المحتويات تعود إلى عدد قليل من المقاطع الثابتة[43].

عندما نتساءل بشكل عام ما الذي تعنيه كلمة «يدل» نلاحظ أنها دائماً تعني أن نجد في ميدان آخر معادلاً شكلياً للمعنى الذي نبحث عنه. وما القاموس سوى إظهار هذه الحلقة المنطقية. إن إعطاء دلالة لكلمة ما يتم بواسطة كلمات أخرى يستدعي تعريفها هي نفسها كلمات أخرى وهكذا. وسنعود على الأقل نظرياً إلى نقطة البداية رغم الجهود التي يبذلها واضعو المعاجم لتجنب التعاريف الدائرية.

إننا نعتقد بأننا اكتشفنا معنى كلمة ما أو فكرة ما عندما ننجح في إيجاد معادلات متعددة لها متعلقة بميادين سيميائية أخرى. والدلالة ليست سوى هذا التوصيل. ويصح هذا على التصورات كما يصح على الكلمات. ولأن الأسطورة تستخدم الصور والأحداث -وهي مواضيع كبرى- فهي تمثل هذه الظاهرة بوضوح أكبر وبطريقة أكثر كثافة، لكنها تعكس شروطاً عامة جداً لعمل الفكر.

القسم الثالث

الثقافة، الثقافات



الفصل السادس عشر

العرق والسياسة

د. إ: في درسك الأول في الكوليج دوفرانس، تساءلت عن مستقبل الإثنولوجيا. ما هو ردّك اليوم؟

ك. ل. ش: قد أكون ملزماً بالقيام ببعض الإيضاحات لأن كثيراً من التطورات حدثت خلال ربع القرن هذا، كما أن الأفكار قد تغيرت تماماً. وخاصة ما يتعلق منها بالمجتمعات التي تدرسها الإثنولوجيا.

د. إ: لأن المجتمعات التقليدية هي ما يهم الإثنولوجي، وهي تختفي الواحد تلو الآخر.

ك. ل. ش: أنت تعرف أن هذا ما كان يقال في القرن الثامن عشر! وكانت المجموعات الأولى من العلماء التي تأسست لدراسة الإنسان تبرر مهمتها مجاهرة: يجب أن نسرع لأن المجتمعات التقليدية لن تبقى لمدة طويلة. وعندما ألقى فريزر في سنة ميلادي درسه الأول في جامعة ليفربول، أعلن الأمر نفسه. فهذه لازمة تتكرر في البحث الإثنولوجي. إنني أسلّم بأن الأبحاث تسارعت وأننا نستطيع أن ندرك

حداً ما بصورة معقولة. ومع ذلك يبقى الكثير ممّا لم يدرس بشكل كاف أو لم يدرس جيداً في عشرات ومئات من الشعوب ما تزال موجودة، وستظل موجودة لعدد لا بأس به من السنين، لذلك أرى هنا تحريضاً لمضاعفة جهودنا بدلا من إضاعتها. ثم حتى عندما تندثر هذه الثقافات يظل بإمكاننا دراستها واقتراح رؤى جديدة، كما نفعل اليوم بثقافات الإغريق واليونان.

د. إ: لكننا نمتلك عن الإغريق والرومان آثار..

ك. ل. ش: نحن من كوّن هذه الآثار على النحو الذي هي عليه عبر الاهتمام الذي نعيرها إياه.

د. إ: هل تعتقد ان من السهل ايضاً تكوين الوثائق والآثار الخاصة بقوم من البرازيل؟

ك. ل. ش: بالنسبة لشعوب مدروسة قليلاً أو بشكل سيء أو لفترة قصيرة جداً فأنت محق تماماً، سيكون الضياع نهائياً. لكن - وبالتحديد في أمريكا التي أعرفها جيداً- تزخر محفوظات مكتبة الكونغرس والمجمع الفلسفي الأمريكي بمخطوطات لم يفرز الكثير منها، بل إن بعضها لم يجرد بعد.

د. إ: هل هي كنوز هاجعة؟

ك. ل. ش: نعم، وربما تعادل حجماً ما خلفه اليونان والرومان.

د. إ: إذاً، ليست الإنثربولوجيا علماً مهدداً..

ك. ل. ش: إذا لم يبقَ من موضوع للبحث الميداني فستتغير طبيعتها ويتحول الإنثروبولوجيون إلى فقهاء لغة ومؤرخي أفكار

واختصاصيين في حضارات يتم الوصول إليها فقط عبر الوثائق التي جمعها الملاحظون القدامى. ومن يدري ما إذا كانت ستظهر اختلافات جديدة في بشرية تحت خطر التوحّد؟

د. إ: لديك شعور بأن البشرية تتجه باتجاه تجانس مطلق؟

ك. ل. ش: كلمة «مطلق» مبالغ فيها. إنما لم يكن من الممكن أبداً الحديث عن حضارة عالمية بهذا القدر من الاحتمال مثل اليوم.

د. إ: أليس أحد ملاذات الإثنولوجيا -كي تستمر- هو الالتفات إلى مجتمعات معاصرة أقرب إلينا كالأرياف الفرنسية مثلاً؟

ك. ل. ش: ليست هذه الأبحاث ملجأ ولا حلاً للتراجع. بل إن لها أهميتها الداخلية. وهي لم تتطور إلا بشكل متأخر، لأننا كنا نمتلك انطباعاً بأننا نعرف عن مجتمعاتنا أكثر مما نعرف عن المجتمعات الغريبة: فكانت الضرورة ملحة أكثر لدراسة هذه الأخيرة. ومن جهة أخرى، تكشفت لنا الحالات القديمة لمجتمعاتنا، في البدء عبر الأرشيف -بالمعنى الواسع للكلمة- الممتد على عدة قرون. إن 5-10٪ فقط من معرفتنا لمجتمعات وسط البرازيل أو ميلانيزيا يتم الحصول عليها من التاريخ، بينما يعود الفضل في معرفة الباقي إلى الإثنولوجيا. أما في حالة مجتمعاتنا فتنقلب هذه النسبة حيث يقتصر دور الإثنولوجيا على تكملة وإغناء عمل يقع في البدء على عاتق المؤرخ.

د. إ: يمر مستقبل الإثنولوجيا أيضاً عبر أسئلة مؤسسية. هل تعتقد أن وضعها اليوم مُرضٍ أكثر مما كانت عليه عندما بدأتَ الاهتمام بها؟

ك. ل. ش: عندما بدأت حياتي المهنية كإثنولوجي لم يكن ثمة كرسي للإثنولوجيا في الجامعات الفرنسية، وأعتقد أن أول كرسي كان لمارسيل غريول عشية الحرب أو أثناءها. أما اليوم فقد أصبحت الإنثروبولوجيا مادة تعليمية تدرس في الجامعات. غير أن عدد المراكز والكراسي المخصصة لها غير كافٍ قياساً بالعمل العاجل الذي ينبغي فعله.

د. إ: على غرار بقية المواد التعليمية، لا بد أن الإثنولوجيا تصطدم بنقص المال: يلزمها ميزانية!

ك. ل. ش: مع الفرق أن حاجة الفيزيائيين والبيولوجيين للمال كي تعمل مختبراتهم معترف بها، فبدونه لا يمكنهم إجراء تجاربهم والتحقق من تجارب زملائهم، لكن لا يتم الاعتراف -بالدرجة نفسها- أن «مختبرات» الإثنولوجيين توجد على بعد آلاف الكيلومترات وأن الذهاب إليها والعيش فيها يتطلّب مالاً أيضاً.



د. إ: في عام 1952، ومع نص «العرق والتاريخ» تركت المنظور الإثنولوجي المحض لتحل في مستوى، يمكن أن ندعوه «سياسيا» يمس مباشرة مسائل معاصرة[44].

ك. ل. ش: لقد كتبته بناء على طلب ولا أعتقد أنني كنت سأكتبه من تلقاء نفسي.

د. إ: بناء على طلب من؟

ك. ل. ش: لقد طلبت اليونيسكو من مجموعة مؤلفين كتابة سلسلة من الكتيبات حول المسألة العرقية: من ليريس ومني أنا...

د. إ: تؤكد في هذا الكتيب تنوع الثقافات وتُدخل فكرة التقدم وتعلن «التحالف» الضروري للثقافات...

ك. ل. ش: في الإطار العام، كنتِ أبحث عن وسيلة لإعادة التوفيق بين مفهوم التقدم والنسبوية الثقافية Relativisme culturelle. يفرض مفهوم التقدم أن تكون بعض الثقافات -في أزمنة أو أمكنة محددة- أعلى من الأخرى لأنها أنتجت أعمالاً بدت الأخرى غير قادرة على القيام بها.

أما النسبوية الثقافية، وهي إحدى أسس التفكير الإثنولوجي عند جيلي وسابقه على الأقل (بعضهم ينكرها اليوم) فتؤكد أن ما من معيار يسمح بالحكم المطلق على ثقافة ما أنها أعلى من أخرى. ولقد حاولت أن أنقل مركز ثقل المسألة. فإذا كانت بعض الثقافات -في بعض الحقب والأمكنة- «تتحرك» في الوقت الذي «لا تتحرك» فيه ثقافات أخرى فهذا ليس بسبب تفوق الأولى، لكن بفعل أن الظروف التاريخية أو الجغرافية قد حثت على تعاون بين ثقافات مختلفة differents (ليست لا متساوية Inegales، فلا شيء يسمح بتقرير ذلك). إنها تتحرك مقتبسة من بعضها وساعية إلى التعارض فيما بينها. إنها تتلاقح وتتحافز بالتبادل. بينما في حقب أخرى أو في أماكن أخرى، تعيش الثقافات التي تبقى معزولة كعوالم مغلقة حياةً راكدةً.

د. إ: لقد أصبح هذا النص من كلاسيكيات اللاعرقوية antiracisme بل تم تدريسه في الثانويات. هل كتبتَ نصاً ثانياً عام 1971 عنوانه «العرق والثقافة»[45] كرد فعل ضد هذا؟

ك. ل. ش: لقد كتبته أيضاً بناء على طلب من اليونيسكو من

أجل مؤتمر احتفالي مخصص لافتتاح عام دولي للنضال ضد العرقوية.

د. إ: قلت فيما بعد «لقد أثار هذا النص ضجة وكان هذا هدفه».

ك. ل. ش: ... هذا كثير قليلاً. إنما الشيء المؤكد هو أنه أثار ضجة في اليونيسكو. فبعد عشرين عاماً من «العرق والتاريخ»، طلب مني التحدث من جديد عن العرقوية، ربما بانتظار أن أكرر ما كنت قلته سابقاً. إني لا أحب أن أكرر نفسي خاصة أن كثيراً من الأمور حدثت خلال هذه السنوات العشرين، وفيها غيظي المتزايد من العرض الدوري للمشاعر الطيبة وكأن ذلك كان كافياً. لقد بدا لي أن الصراعات العرقية لم تكن إلا لتتفاقم، ومن جهة ثانية اختلطت في ذهن الناس مفاهيم كالعرقوية واللاعرقوية، ونظراً لفرط مدّ هذه المفاهيم بشكل غير ملائم تمت تغذية العرقوية بدلاً من إضعافها.

د. إ: تحدثت هذه المرة عن الاختلافات التي تفصل الثقافات وتقابلها. وهذا عكس ما ذهبتَ إليه طروحاتك السابقة.

ك. ل. ش: إطلاقاً. إن النص الأول لم يُقرأ جيداً. لقد نشرت «الإنسانية» مقالاً أراد أن يثبت أنني غيّرت مشاريعي فاستشهد بفقرة طويلة من «العرق والثقافة». وهذه الفقرة نفسها موجودة حرفياً في «العرق والتاريخ»، فقد أعدت كتابتها كما هي تماماً لأنها بدت لي مناسبة.

د. إ: إن أكثر ما يصدم في «العرق والثقافة» هو -على الأرجح- فكرة أن الثقافات تسعى لأن يعارض بعضها بعضاً.

ك. ل. ش: في ختام «العرق والثقافة» أبرزت مفارقة: فالاختلافات بين الثقافات هو الذي يجعل لقاءها خصباً، لكن هذه اللعبة المشتركة تجر توحدها التدريجي: إن الفوائد التي تجنيها الثقافات من هذه الاحتكاكات تأتي بشكل واسع من الاختلافات النوعية بينها، لكن أثناء هذه التبادلات تتناقص هذه الاختلافات حتى تختفي. أليس هذا ما نشهده اليوم؟ وبالمناسبة ثمة فكرة مفادها أن الثقافات في تطورها تتجه باتجاه إنتروبيا[*] متزايدة تنتج عن امتزاجها، عرضتها في نص أصبح -كما قلتَ منذ قليل- أحد كلاسيكيات اللاعرقوية (وهذا يثلج صدري) لكن هذه الفكرة مقتبسة مباشرة عن غوبينو المدان بصفته أباً للعرقوية. ويُظهر ذلك بوضوح البلبلة السائدة في العقول حالياً.

وعلى أية حال، تمتلك رؤى غوبينو طابعاً حديثاً جداً لأنه يتعرف على جزيرات من النظام يمكن أن تتشكل بفعل ما يدعوه «ترابطاً» في الأجزاء المختلفة للبنية (وهذا أيضاً حديث جداً). وأعطى أمثلة عديدة لذلك. لقد كان يعي أن هذه التوازنات المتحققة بين الخلائط تسير عكس تدهور يعتبره غير قابل للعكس.

ماذا نستخلص من كل هذا سوى أن من المرغوب فيه أن تبقى الثقافات متنوعة أو أن تتجدد ضمن التنوع؟ يجب فقط -وهذا ما أبرزه النص الثاني- أن نقنع بدفع ثمن ذلك: أي أن تسهر الثقافات التي يرتبط كل منها بأسلوب حياة وبنظام قيم على خصوصيتها، وهذا إجراء سليم وغير مرضي بأي حال من الأحوال، كما يراد لنا أن نعتقد. إن كل ثقافة تتطور بفضل تبادلاتها مع ثقافات أخرى، لكن

---

[*] الإنتروبيا: مصطلح ترموديناميكي يعبر عن درجة الفوضى في نظام ما.

يجب أ ن تصنع كل منها مقاومة ما، وإلاّ فسرعان ما ستفقد كل شيء خاص بها يمكن مبادلته. إن لكل من غياب الاتصال والإفراط فيه خطره.

د. إ: كيف تفسر أن نصك الأول عام 1952 هو الذي عرف نجاحاً وليس الثاني؟

ك. ل. ش: لقد نُشر الأول على شكل كتاب صغير، أما الثاني وهو نص محاضرة، فلم ينشر مستقلاً أبداً. إنني لا أستطيع فعل شيء حيال تثمين الأول أكثر من الثاني، وأنا أرى أنهما يشكلان كلاً واحداً. وأضيف هنا إنني ضمّنت الثاني ما توصل إليه علم وراثة الجماعات، لذلك فهو أصعب. مع أن «العرق والتاريخ» صعب أيضاً، فلم تكن تمضي سنة دون أن يأتي طلاب وطالبات من الثانويات لرؤيتي أو يكتبون إلي أو يتصلون بي هاتفياً قائلين: لدينا موضوع حول «العرق والتاريخ» ونحن لم نفهم منه شيئاً!

د. إ: ماذا تفعل لو طلبت منك اليونيسكو اليوم محاضرة جديدة حول الموضوع نفسه؟

ك. ل. ش: لا خطر في ذلك!

د. إ: لكن الصحف والإذاعات غالباً ما تطلب رأيك حول العرقوية وأنت ترفض الإجابة عامة...

ك. ل. ش: ليس لدي رغبة في الإجابة، ففي هذا الميدان يتم التخبط في خلط كبير، وأنا أعرف مسبقاً أنّ ما سأقوله -ومهما يكن- سيتم تأويله بشكل سيء. إنني مقتنع كإثنولوجي بأن النظريات

العرقوية مسخة وسخيفة في الوقت نفسه. لكن امتهان مفهوم العرقوية باستخدامه خبط عشواء يفرغه من محتواه، ويجازف بالوصول إلى نتيجة معاكسة لما نتوخاه. فما هي العرقوية؟ إنها عقيدة محددة يمكن تلخيصها بنقاط أربع. الأولى: يوجد ارتباط بين الإرث الوراثي من جهة والكفاءات الفكرية والملكات العقلية من جهة ثانية. الثانية: هذا الإرث مشترك عند جميع أعضاء تجمع بشري معين. الثالثة: يمكن تدريج هذه التجمعات المدعوة «أعراقاً» حسب إرثها الوراثي. الرابعة: تسمح هذه الاختلافات للـ«أعراق» المدعوة عليا بقيادة واستغلال الأعراق الأخرى بل تدميرها أيضاً. إنها نظرية وممارسة لا يمكن الدفاع عنها لعدة أسباب ذكرتها، بعد مؤلفين آخرين أو في الوقت نفسه، في «العرق والثقافة» بالقوة ذاتها الموجودة في «العرق والتاريخ». أما مسألة العلاقات بين الثقافات فتوجد في مستوى آخر.

د. إ: إذاً، بالنسبة لك لا يعتبر عداء ثقافة لثقافة أخرى عرقوية؟

ك. ل. ش: العداء الفعال، بلى. فلا شيء يسمح لثقافة ما بتدمير ثقافة أخرى أو حتى باضطهادها. إن إلغاء الآخر يستند حتماً على علل متعالية Transcendant: العرقوية وأخرى مماثلة. لكن لا ضير في شعور الثقافات بألفة متفاوتة بعضها تجاه البعض الآخر مع حفاظها على احترام متبادل. فهذا موقف طبيعي ويمثل سلوكاً إنسانياً سوياً، وعند وصمه بالعرقوية تتم المجازفة بلعب لعبة العدو، لأن كثيراً من السذج سيقول: إذا كانت هذه هي العرقوية فأنا عرقوي.

إنك تعرف انجذابي لليابان. عندما أرى في باريس زوجاً ذا

هيئة يابانية أنظر إليهما باهتمام وود مستعداً لإسداء خدمة. هل هذه عرقوية؟

د. إ: إذا نظرتَ إليهما بود: لا، لكن لو قلت لي: انظُرْ إليهما بحقد. لأجبتك: نعم.

ك. ل. ش: لكني اعتمدت في تمييزهما على المظهر الجسدي والسلوك ورنة اللغة. في الحياة اليومية، يفعل كل الناس الشيء نفسه لتحديد موقع شخص مجهول على الخريطة الجغرافية.. ويلزم الكثير من الرياء لادعاء منع هذا النوع من المقاربة...

د. إ: هل توجد مظاهر جسدية تولد فيك النفور؟

ك. ل. ش: تقصد أنماطاً إثنية؟ كلا بالتأكيد. لكنها جميعاً تضم تحت - أنماط يبدو لي بعضها جذاباً على عكس بعضها الآخر. فعند بعض الطوائف الهندية في البرازيل كنت أشعر أنني محاط بكائنات جميلة، في حين أعطاني بعضها الآخر انطباعاً ببشرية منحطة. وقد بدت لي نساء النامبيكوارا بشكل عام أجمل من الرجال، والعكس عند البورورو. إننا بإطلاقنا أحكاماً كهذه نطبق معايير ثقافتنا في حين أن المهم في هذه الحالة معايير أصحاب العلاقة فقط. إنني أنتمي إلى ثقافة لها أسلوب في الحياة ونظام من القيم متميزان، وبالتالي فالثقافات المختلفة جداً لا تثيرني تلقائياً.

د. إ: ألا تحبها؟

ك. ل. ش: قد يكون مبالَغاً فيه قول ذلك. عندما أدرسها إثنولوجياً أفعل ذلك بكل موضوعية بل بكل تفهم وعلى قدر

استطاعتي. وهذا لا يمنع أن بعض الثقافات تتوافق مع ثقافتي أقل من الأخرى.

د. إ: يذكر ريمون آرون رسالة وجهتها له عام 1967 بخصوص السياسة الإسرائيلية: «لقد شعرتُ بجرح بليغ لكنه ليس الجرح الأول بالتأكيد فقد شعرت بمثله لإبادة الهنود الحمر، وأنا اليوم لا أستطيع اتخاذ موقف معاكس حيال العرب الفلسطينيين، ولو أن احتكاكي القليل بالعالم العربي جعلني أشعر بنفور يصعب اقتلاعه...»[46].

ك. ل. ش: هذه العبارة متطرفة. كنت أكتب منقاداً لقلمي، ولم أكن أريد أن يختلط الأمر على أرون حيال موقفي فينسب إلي مشاعر مؤيدة للعرب. من الصحيح مع ذلك أنني خلال عدة أشهر قضيتها في بلدان إسلامية (الباكستان وما أصبح اليوم بانغلادش) لم «أعلق» كما يقال. وقد اعترفت بذلك في «المدارات الحزينة».

قد يجد أي إثنولوجي نفسه في مثل هذا الموقف يوماً. إن روبرت لوي إثنولوجي كبير كانت صداقته تشرفني، ولأعماله حول الكراو والهوبي أثر كبير، ومع ذلك فقد أسّر لي مراراً أنه ينسجم كلياً مع الكراو ولا يحتمل الهوبي كثيراً.

د. إ: في الواقع، عندما تُسأل عن العرقوية، لا يكون المقصود بالسؤال العلاقات بين ثقافات مختلفة في قارات مختلفة بقدر ما يكون المقصود به المجتمع الفرنسي المعاصر وما يدعى «المجتمع متعدد الثقافات». لقد أشيع في العام الماضي أن الحكومة فكرت بأن توليك رئاسة لجنة مكلفة بإعادة صياغة قانون الجنسية لكنها تراجعت لأن من الممكن أن يشكل استدعاء إثنولوجي لرئاسة مثل هذه اللجنة صدمةً.

ك. ل. ش: من المزعج (إذا كان هذا صحيحاً) أن يُخشى من صدمة المهاجرين لتشبيههم بالشعوب التي يدرسها الإثنولوجيون كما لو كان يتم ضمنياً إقامة تراتبية بين الثقافات.

د. إ: انك تعتبر -إذا فهمتُ جيداً تعريفك للعرقوية- أن لا وجود للعرقوية في فرنسا حالياً.

ك. ل. ش: توجد ظواهر مقلقة لكنها ليس مرتبطة بالعرقوية بالمعنى الدقيق للكلمة -إلا عندما يُقتل عربي لمجرد أنه عربي وهو أمر يستدعي عقاباً فورياً ودون رحمة- إنما توجد (وستوجد دائماً) جماعات تميل إلى إقامة علاقات ودية مع جماعات لها قيم وأنماط حياة لا يصطدمان مع القيم ونمط الحياة الخاصين بها أكثر مما تميل لذلك مع جماعات أخرى. وهذا لا يمنع أن تكون علاقاتها مع هذه الأخيرة صافية. بل يجب أن تكون كذلك. فمثلاً إذا كان عملي يتطلب الهدوء، وكانت جماعة إثنية ما تتلاءم مع الضجيج بل إنه يسعدها، فلن ألومها ولن أجرّم إرثها الوراثي، لكني سأفضل ألا أعيش قربها، ولن أهتم كثيراً إذا تم السعي لإدانتي بهذه الذريعة الشريرة.

د. إ: هل يمكن لمجتمع أن يكون أحادي الثقافة مع امتزاج الشعوب والاغتراب والهجرات...؟

ك. ل. ش: أحادي الثقافة كلمة لا تعني شيئاً، فلا يوجد مجتمع يمكن أن يكون كذلك أبداً. كل الثقافات تنتج عن الاختلاطات والتأثيرات والامتزاجات الموجودة دائماً بتواترات مختلفة. إن أي مجتمع من المجتمعات هو مجتمع متعدد الثقافة عبر نمط تشكله، وقد أسس كلّ منها عبر قرون تركيباً أصيلاً. وهي تحافظ على هذا

التركيب الذي يكوّن ثقافتها في لحظة معينة بصلابة متفاوتة. من يستطيع اليوم أن ينكر وجود حضارة يابانية أو حضارة أمريكية رغم الاختلافات الداخلية؟ لا يوجد بلد في العالم هو نتاج للامتزاج كالولايات المتحدة، ومع ذلك يوجد American Way of Life يرتبط فيه كل سكان البلد بغض النظر عن أصلهم الإثني.

بما أنك تسألني عن فرنسا، فسأجيبك بأن نظامها القيمي في القرنين 18 و 19 شكّل قطباً جاذباً لأوروبا وللعالم. ولم يكن تمثُّلُ المهاجرين يطرح أية مشكلة. واليوم لن توجد مشاكل جديدة إذا ظلّ نظامنا القيمي يبدو للجميع -ومن المدرسة الابتدائية- حياً وصلباً كما في الماضي.

د. إ: تواجه كل المجتمعات الغربية بشكل واضح مشكلة التمثل المستحيل هذه: انكلترا، ألمانيا... ويبدو فيها تعايش الثقافات صعباً كما في فرنسا.

ك. ل. ش: إذا لم تكن المجتمعات الغربية قادرة على حفظ أو خلق قيم فكرية وأخلاقية مؤثرة بشكل كاف لجذب الأشخاص القادمين من الخارج وجعلهم يرغبون بتبنيها، فإن ذلك دون شك مثير للقلق.

د. إ: تتناول أعمالك غالباً -وخاصة منها النصوص التي اتينا على ذكرها للتو- كأعمال موازية لحركات التحرر من الاستعمار. ما رأيك؟

ك. ل. ش: أقرأ ذلك من وقت لآخر. بل إنني قرأت حديثاً أن نجاح «المدارات الحزينة» مرتبط بصعود العالم - ثالثية. يوجد هنا

سوء فهم. فالمجتمعات التي كنت أدافع عنها مهددة بالعالم - ثالثية أكثر مما كانت مهددة بالاستعمار، لأن حكومات البلدان التي نالت استقلالها بعد الحرب الثانية ليس لديها أي رفق بالثقافات المدعوة متخلفة والموجودة في أحشائها. وهناك سبب آخر قد يبدو لك الاعتراف به صفيقاً: لم أنكبّ على دراسة البشر إنما على دراسة المعتقدات والعادات والمؤسسات. ولذلك فأنا أدافع عن هذه الشعوب الصغيرة التي تسعى للبقاء وفيّة للنمط التراثي لحياتها بعيداً عن الصراعات التي تجزىء العالم المعاصر. أما الذين يخرجون عن هذه الحالة ليشاركوا في صراعاتنا فيطرحون مسائل سياسية وحتى جيوبوليتيكية، ومن المعروف أن وعي مثل هذه المسائل يتطلب غالباً رؤيتها من أكثر من زاوية.

د. إ: هل تثق بالاستعمار أكثر من العالم - ثالثية؟

ك. ل. ش: الاستعمار هو الخطيئة الكبرى للغرب، لكني لا أرى أن قفزة كبيرة قد تحققت مع اختفائه من حيث حيوية الثقافات وتعدديتها.

د. إ: أقيمت على الإثنولوجيا دعوى مغايرة: ربما كان للإثنولوجيا (على العكس) دور مرتبط بالاستعمار. هل تبدو لك هذه الرؤية صحيحة؟

ك. ل. ش: أن تكون الإثنولوجيا قد ولدت وتطورت في ظل الاستعمار فهذا واقع تاريخي. غير أن الإثنولوجيين سعوا خلافاً للاستعمار وبالتعارض معه أيضاً، إلى إنقاذ المعتقدات وأنماط الحياة التي كانت الثقافات تنساها بنظم متسارع.

د. إ: ذهب البعض إلى حد القول أن الإثنولوجيا كانت تديم الهيمنة الاستعمارية بعد انتهاء الاستعمار. وتأتي هذه المقولات أحياناً من أشخاص عملوا معك كروبرت جولان.

ك. ل. ش: لقد انضم إلى مختبر الانثروبولوجيا الاجتماعية منذ ما يقارب الثلاثين عاماً. لكننا انفصلنا بسرعة بسبب عدم توافق مزاجينا. عندما تريد الشعوب التي تعرضت للإبادات أن تعيد عقد الصلة مع ماضيها فإنها غالباً ما تلجأ إلى كتب الإثنولوجيا لمساعدتها على ذلك. والأمثلة عديدة على هذا.

د. إ: حسب هذه الانتقادات، يحتفظ الغربي باستعلاء على الثقافة التي يلاحظها.

ك. ل. ش: إنه استعلاء الملاحظة لا استعلاء الملاحظ. فلكي تتم الملاحظة يجب البقاء في الخارج. ويمكن تفضيل الانصهار في الجماعة التي نعيش معها والتماهي فيها (لكن هل هذا ممكن عملياً؟) على أية حال هذا خيار أخلاقي أما المعرفة فهي في الجانب الآخر.

د. إ: إذاً فالمعرفة لا تأتي إلا من التباعد بين الذات والموضوع؟

ك. ل. ش: هذا جانب. وفي زمن ثانٍ سيتم السعي لجمعها. ولن تكون المعرفة ممكنة إذا لم يتم التمييز بين اللحظتين، لكن أصالة البحث الإثنوغرافي تقوم على هذا النوسان.

د. إ: يطرح جاك غودي في مؤلفه حول العقل الكتابي مسألة العلاقات بين الملاحظ والمجتمع الذي يدرسه: عندما ندرس التقاليد الشفوية والحضارات التي لا تعرف الكتابة، فإن مجرد نقل هذه

التقاليد يغيرها ويفرض عليها أصناف إدراك الملاحظ ومجتمعه. ماذا تقول في ذلك؟

ك. ل. ش: يبدو لي هذا صحيحاً، لكنه مبتذل. إنه صحيح بالنسبة لكل ملاحظة بما في ذلك الملاحظة في العلوم الأكثر تقدماً. ويجب علينا بالتأكيد أن نبقى واعين إلى أننا نفقد الأصالة الأولى للوقائع أثناء نقل الملاحظة: حيث تتم ترجمتها إلى لغة أخرى ولا بد أن يُفقد شيء ما في الطريق. لكن ماذا يسعنا أن نستخلص من ذلك؟ هل نتخلى عن الترجمة؟ أو عن الملاحظة؟



د. إ: تحدثنا منذ قليل عن العرقوية. هل عانيت منها أنت نفسك كيهودي في شبابك أو فيما بعد في حياتك المهنية؟

ك. ل. ش: قد يكون من الوقاحة أن أذكر الكارثة البشعة والصاعقة التي وقعت على جزء من البشرية أنتمي إليه، فقد كنت محظوظاً بالإفلات منها. ومقارنةً بها لم أتعرض إلا لأعمال بسيطة: نهب، بتر حياة أبي بمحن الاحتلال... بيد أن من الواضح أنها وجهت قدري بصورة جوهرية.

في طفولتي كنا ما نزال نُشتم في المدارس الابتدائية والثانوية.

د. إ: هل عرفت مواقف مشابهة لما وصفه فرانسوا جاكوب في مذكراته؟[47]

ك. ل. ش: نعم، وربما أكثر منه، فأنا أكبر عمراً.

د. إ: وفيما بعد؟

ك. ل. ش: لعبت معاداة السامية دوراً في بعض الصعوبات المهنية، لكن بشكل محدود نظراً للتحفظات المستوحاة من أفكاري أو شخصيتي.

د. إ: إنك مناصر لـ«التمثل» Assimilation ولم تطالب أبداً بـ«هوية» يهودية لكنك تعرف جملة ميترو عنك المذكورة في يومياته «إنه نموذج للمفكر اليهودي».

ك. ل. ش: هذا لا يزعجني أبداً. إننا لسنا عقولاً نقية من أي تأثير، ويبدو طبيعياً من قبل ميترو، وهو الإثنولوجي، أن يضع فرداً ما في إطاره عندما يريد تقييمه.

د. إ: لا تزعجك هذه الجملة، لكن ماذا تفهم منها؟

ك. ل. ش: ينبغي في البدء معرفة ما كان ميترو يقصد بها، لم تتناول مباحثاتنا ذلك أبداً. إني أسلّم بأن بعض المواقف العقلية قد تكون أكثر انتشاراً عند اليهود من غيرهم.

د. إ: مثلاً؟

ك. ل. ش: تلك الناتجة عن الشعور العميق بالانتماء إلى جماعة وطنية مع وجود أشخاص في قلب هذه الجماعة يرفضونك (أوافقك أن عددهم ينقص تدريجياً) وهكذا يبقى المرء بحالة حذر يرافقها شعور غير منطقي بوجوب الالتزام بعمل أكثر من الآخرين لتهدئة الانتقادات الكامنة. ولا أستنكر أن يسبب هذا كدراً. لقد وصف غوبينو -الذي لم يكن معادياً للسامية- العقل اليهودي بأنه باحث بطبيعته محب لامتلاك كنوز هذا العالم «كنوز العلم كما كنوز الذهب» وأتخيل أن ميترو كان ينسب إليّ النوع الأول من هذا الحب.

د. إ: على أي حال، لم تضطلع بأعباء يهوديتك ولم تؤكدها.

ك. ل. ش: بالنسبة لوالدي لم تكن اليهودية إلا ذكرى. وقد ترددت طويلاً قبل الذهاب إلى إسرائيل. لأن استعادة احتكاك فيزيائي مع الجذور تشكل تجربة مريبة.

د. إ: متى ذهبت إلى إسرائيل؟

ك. ل. ش: عام 1984 – 1985. حيث دعاني متحف إسرائيل لرئاسة تجمع دولي حول الفن (وسيلة الاتصال في المجتمعات دون كتابة).

د. إ: بماذا شعرت؟

ك. ل. ش: عرفت في نفسي اليهودي وراقت لي أقدمية الدم كما كان يقال فيما مضى. وعلى الأرض وأكثر من أي وقت مضى، أوقعني حل عقدة الاستمرارية في اضطراب كبير. فبين الخروج من فلسطين وبداية القرن الثامن عشر (حيث وجدت أسلافي مستقرين في الألزاس) يوجد حوالي ألفا عام. ماذا حدث في هذا الفاصل الزمني؟ إن التعاقب التاريخي لهذا الاغتراب ينقضي وكذلك المراحل المتخيلة له. وكنت بحاجة إليهما للشعور بواقعية الرابط مع ماضٍ سحيق جداً ويقتصر على معرفة مجردة. وأقول لك إنني لم أملك الانطباع أبداً –وأنا في إسرائيل– بلمس جذوري عيانياً. لقد اهتممت بإسرائيل بشكل خارق ليس لأنني وجدت فيها شعباً من أولاد عمومتي (فأنا لا أمتلك شعوراً عائلياً) بل لأن إسرائيل تشكل رأس جسر للغرب في الشرق. إنها الحملة الصليبية الجديدة إذا أردت.

د . إ: ذكرت منذ قليل رسالتك إلى ريمون أرون التي تقارن فيها بين وضعية الفلسطينيين ووضعية الهنود الحمر...

ك. ل. ش: إنها وضعية خلقها التاريخ وأصبحت عملياً بلا مخرج، دون إمكانية للحسم في أي اتجاه باسم مفهوم مجرد للحق أو العدل.

د . إ: في الرسالة نفسها تزكّي جملة الجنرال دوغول حول دولة إسرائيل «واثقة من نفسها ومهيمنة»، وتندد بالمواقف التي تبناها رؤساء الطائفة اليهودية الفرنسية الذين -كما تقول- أساءوا استخدام امتيازاتهم كي يقوموا بترويج الشائعات. كانت عباراتك قاسية جداً.

ك. ل. ش: كانت رسائلي تأخذ طابع محاورة من دون تكلف. وعندما طلب مني أرون نشرها رضخت لأنني شعرت بأنني لا أمتلك الحق في الإضرار بالتوازن الذي يريد إعطاءه لعمله. ولو أني كتبت بهدف النشر لراقبت تعابيري أكثر.

على أية حال، عد إلى النص، لم أكن أطبق مقولة الجنرال على دولة إسرائيل لكن على يهود فرنسا البارزين الذين أعطوا لأنفسهم حق التحدث باسم الجميع. وكل هذا قديم: منذ عشرين عاماً خلت! لقد صدمني الدخول الكثيف لمجموعات الضغط في الأحداث. ويجب أن نعرف أن التعبئة تتم اليوم في الاتجاه الآخر.

د . إ: كانت عباراتك قاسية لكنها خاصة، فأنت لم تُدلِ بتصريح جماهيري. ولولا نشر ريمون آرون لمقتطف من رسالتك لما عُرف موقفك. ألا تحب تبني موقف على الملأ؟ ألست مفكراً ملتزماً؟

ك. ل. ش: لا. أعتقد أن سلطتي الفكرية (بقدر ما يُعترف لي

بذلك) ترتكز على مجموع العمل وعلى روادع الصرامة والدقة التي جعلتني -ربما- أمتلك حق الإصغاء إليّ في ميادين محددة، ولو استبقت الأحداث للحكم على قضايا لا أعرفها أو لا أعرفها جيداً، فإني أقترف بذلك إفراطاً في الثقة.

د. إ: ألا تروق لك صورة المفكر الملتزم كما ظهرت في فرنسا مع قضية دريفوس؟

ك. ل. ش: كان بعض مفكري القرن التاسع عشر يعيشون على تقليد يمتد حتى فولتير. وكان بإمكان شخص مثل فيكتور هيغو الاعتقاد بأنه قادر على الحكم في كل مسائل عصره. إن هذا لم يعد ممكناً اليوم. فالعالم أصبح معقداً جداً وعدد المتحولات في كل حالة خاصة كبير جداً. اللهم إلا إذا قرر المرء التخصص في معالجة نمط محدد من المسائل كما فعل آرون بتكريس نفسه لدراسة المجتمع المعاصر. وهذا رأي مشروع، لكن من المستحيل أن يقوم المرء -في الوقت نفسه- بما قام به أرون وبما قمت به أنا، وعليه أن يختار.

د. إ: ألا تهتم بالسياسة؟ ألا تقرأ الصحف وتشاهد التلفزيون؟

ك. ل. ش: قليلاً ما أشاهد التلفزيون وإلا فمتى سأقرأ؟ بالنسبة للبقية نعم، أحاول أن أمتلك حول السياسة معارف نزيهة. وأنا أقرأ يوميتين وثلاث أسبوعيات.

د. إ: هاجمك أحد الكتاب حديثاً بقوة حول هذه المسألة. فهو يذكر رفضك لتبني موقف حول كاليدونيا الجديدة بحجة أنك لم تذهب إليها أبداً. ويواجهك بموقف زولا في قضية دريفوس، مؤكداً أن

زولا هو أيضاً لم يكن خبيراً فيها لكن هذا لم يمنعه من التحرك لأجل قضية عادلة[48].

ك. ل. ش: يدهشني هذا القول. لم يكن زولا خبيراً بقضية دريفوس؟ وحالما علم بالأمر قفز إلى الصفوف الأولى! إن عمل زولا بأكمله مكرس للملاحظة ووصف وتحليل المجتمع المعاصر والدفاع عن قيم الحقيقة والعدالة وفصل الناس الشرفاء عن غيرهم. وكان كل هذا يهيئه للاهتمام بالقضية، كان بإمكانه ابتداعها كموضوع لرواية.

ثم ما القاسم المشترك بين الدفاع عن بريء والسعي المتأني والصعب للتحكيم في مصالح سياسية واقتصادية، ومطالب لا يمكن محو أي منها بجرة قلم؟ فهذا البحث يجب أن يرتكز على معرفة متعمقة بالناس وبالوسط وبالحلول المقدمة لقضايا مماثلة مطروحة في المنطقة نفسها من العالم.

إن فكراً نسقياً لا يمكنه البت في هذه القضايا. والإثنولوجي يجب أن يظهر تحرجه، خاصة إزاء موضوع كهذا يمس عن قرب مادته. لم أذهب أبداً إلى كاليدونيا الجديدة ولا إلى الجزر الأخرى في بحار الجنوب، وأنا أنتمي إلى نظام تشكل الملاحظة المباشرة مبدأه الأساسي. ولو كانت القوى الشعبية تهتم بما يمكن أن أقول حول كاليدونيا الجديدة، لسافرت إليها عن طيب خاطر بشرط أن أضمن قبولي. وعندئذ سيتحتّم عليّ أيضاً أن أرى ما يحدث في ساموا وفي فيجي وفي ميلانيزيا...

سأعترف لك بأنني بعد «المدارات الحزينة» تخيّلت للحظات أن صحيفة ما ستعرض عليّ القيام بتحقيق كبير. ولو حدث هذا لكان لديّ رؤى أكثر وضوحاً عن بعض المسائل المعاصرة.

د. إ: من المؤسف أن أحداً لم يعرض عليك ذلك.

ك. ل. ش: كلا، فلو عُرض عليّ ذلك لما كتبت الكتب عينها بالتأكيد. ولإنهاء هذه النقطة، اسمح لي أن أقول إنني أتدخل كثيراً في قضايا أعتقد -عن صواب أو عن خطأ- أنني مؤهل للخوض فيها، لكني لا أجد حاجة للصراخ بذلك فوق الأسطحة.

د. إ: مثلاً؟

ك. ل. ش: الدفاع عن الثقافات الهندية الأمريكية وحمايتها. لقد ذهبت العام الماضي -بتفويض- إلى مكتب وزير مقاطعات خلف البحار للتحدث عن غويانا.

د. إ: في خطاب دخولك إلى الأكاديمية الفرنسية تذكر جملة لمونترلان «ليس الشباب بحاجة إلى معلّم للفكر بل إلى معلّم للسلوك» هل أنت معادٍ لمعلّمي الفكر؟

ك. ل. ش: إنه دور يحكم بتضليل عالمه إلا إذا كان المرء قديساً. وحتى...!

د. إ: إنك تصنّف أحياناً كمعلّم فكر؟

ك. ل. ش: يقال حالياً إنه لم يعد ثمة معلّمو فكر. ويبدو لي هذا صحيحاً.

د. إ: لقد أضفت إن بصيرة مونترلان كانت نبوية عندما قال إن المجتمعات تدفع غالياً جداً ثمن تكوين الشباب ككيان منفصل.

ك. ل. ش: إن هذا دليل على أن الأجيال لم تعد واثقة من قيمها. وأنا أرى هنا شكلاً من أشكال الاستقالة من قبلها.

د. إ: ألا تعتقد بأن من الممكن اللجوء إلى الشباب لإصلاح هذه القيم؟

ك. ل. ش: تحافظ المجتمعات على نفسها لأنها قادرة على نقل مبادئها وقيمها من جيل لآخر. وتصبح هذه المجتمعات مريضة بدءاً من اللحظة التي تشعر فيها أنها غير قادرة على نقل شيء، أو لا تعرف ماذا تنقل، أو تعتمد على الأجيال اللاحقة.

د. إ: وانهيت خطابك موضحاً أن تشاؤماً جذرياً كتشاؤم مونترلان قد يمثل الوسيلة الوحيدة لإعادة حظوظ تفاؤل معتدل. هل تترجم هذه العبارة موقفك فعلاً؟

ك. ل. ش: لقد قلت غالباً إننا إذا أردنا أن نعيد لإنسانوية معتدلة حظوظها، فيجب على الإنسان أن يخفف من غلوائه ويقتنع بأن مروره على الأرض (الذي سيعرف نهاية على أية حال) لا يعطيه كل الحقوق.

د. إ: «أي لا شيء»، إنّ الجمل الأخيرة من «الإنسان العاري» التي شكلت كلمة «أسطوريات» الأخيرة قد أثارت جدلاً طويلاً حول «تشاؤمك».

ك. ل. ش: وبشكل خاص لم يلحظ أن هذه الصفحات الأخيرة استمدت إلهامها من خاتمة «بحث حول لا مساواة الأعراق البشرية» لغوبينو. هاهو الكتاب أمامي، اسمح لي أن أفتحه... هاك «بتوقفنا عند الأزمنة التي ستسبق آخر نفس لنوعنا، وبصرفنا النظر عن هذه العصور التي يجتاحها الموت، حيث ستستمر الأرض الصامتة عندئذ برسم دوائرها الباردة لكن من دوننا...الخ» ألا يوحي لك ذلك بشيء؟

لقد أردت أن أدخل في آخر جملة كلمة «باردة» كـ«توقيع» لغوبينو. وقد يوجد في كتبي اقتباسات أخرى مقنّعة.

د. إ: لم يلحظ احد ذلك، ربما لأن اخذك عن غوبينو ينطوي على مفارقة. فصورته لم تكن إيجابية خاصة فيما يتعلق بالمسألة العرقوية. هل هو من كتّابك المفضلين؟

ك. ل. ش: ربما كان غوبينو الإنسان مشبعاً بتحيزات عرقوية، وهذه حال الكثير من الأشخاص آنئذ، إنه لا يميز بوضوح بين مفهوم العرق ومفهوم الثقافة، وكان هذا هو الأمر السائد آنذاك. وإذا تجاوزنا المقاطع التي تُوجِّه فيها التحيزاتُ فكرَه (يذهب البعض إلى أن عرقوية غوبينو متقطعة وتظهر على دفعات)، وإذا وافقنا على استبدال كلمة «عرق» أينما وجدت بكلمة «ثقافة» فسنتعرف فيه على مفكر أصيل وعميق إضافة لكونه كاتباً كبيراً لمؤلفات مثل (الثريا) و(ذكريات السفر) و(قصص آسيوية) و(ثلاث سنوات في آسيا). إنه أفضل من فهم أن قراءات التاريخ بمستويات وقتية مختلفة لا تتضافر بل يلغي بعضها بعضاً. وقد حاولت صياغة ذلك في الفصل الأخير من «الفكر البدائي». لا يتطلب نظام غوبينو أن تكون الثقافات الأصيلة غير متساوية في البدء بل يكفي طرحها مختلفة، وهذا ما فعله غالباً (إن الثقافات «الأصيلة» عنده فرضيات نظرية) لقد كان -فحسب- ينحني ككل معاصريه أمام النجاح التاريخي للغرب وكان عليه أن يحتال على حدسه البدئي لتجاوز ذلك. ولو فكرتَ في هذا فستجد أنه العقبة الدائمة التي ترى حتى النسبوية الثقافية صعوبة كبيرة في اجتيازها.

د. إ: إن إنهاء سلسلة من الكتب كـ«أسطوريات» بهذا التأكيد

المخيّب للأمل («لا شيء» يبقى من مشاريع البشر) هو تقريباً إعلان بيان فلسفي. وقد أراد البعض أحياناً رؤية هذا الـ«لا شيء» كتعبير عن فلسفتك العميقة.

ك. ل. ش: أنا لم أقل ذلك. لقد قلت: يجب على الإنسان أن يعيش ويعمل ويفكر ويتحلى بالشجاعة، مع معرفته تماماً أنه قد لا يبقى موجوداً على الأرض إلى الأبد، وأن هذه الأرض ستتوقف يوماً عن الوجود، وعند ذلك لن يبقى من أعمال البشر أي شيء. إن الأمرين مختلفان تماماً. تستند فلسفتي العميقة -كما قلت- إلى التعارض التالي وتتحنى أمامه: فمن جهة أؤمن بالمعرفة العلمية ويسحرني كل ما أتعلمه من الفيزيائيين والبيولوجيين، ولا شيء يثير تأملي مثله، ومن جهة ثانية يبدو لي أن كل مسألة محلولة أو نعتقد أنها كذلك، تنبثق منها مسائل جديدة وهكذا إلى مالا نهاية، لدرجة أننا نقتنع يوماً بعد يوم بأن قدرتنا على التفكير لا تفي ولن تفي الواقع حقه وأن الطبيعة العميقة لهذا الأخير تفلت من كل جهد للتصور. إن كانط هو من علّمنا ذلك في البدء. لكن كانط (الذي كان يتكيف مع سلطة معرفية عاجزة بشكل لا براء منه بفعل النقائض antinoinies) أمل أن يجد في الحياة الأخلاقية أساساً مطلقاً. إنني بإفراطي في الكانطية (إذا صح التعبير) أضم الحياة الأخلاقية إلى إشكالية العقل المحض: فهي أيضاً لها نقائضها التي يستحيل تجاوزها. والأكثر من ذلك: إن المعرفة العلمية تجعلنا ننفتح على رؤى أكثر إبهاراً مما كان يتخيل باسكال. وبذلك تبرهن لنا على لا معنانا. إن انقراض البشر أو اختفاء الأرض لن يغير في شيء مسيرة الكون. ومن هنا مفارقة نهائية: لسنا متأكدين من أن هذه المعرفة التي تكشف لا معنانا تمتلك أية صلاحية. نحن نعرف أننا لا شيء أو لسنا شيئاً كبيراً وبمعرفتنا

ذلك لا نعرف ما إذا كانت هذه المعرفة تمثل هي أيضاً شيئاً كبيراً. والتفكير بأن الكون لا يمكن قياسه بالفكر يُجبر على وضع الفكر نفسه موضع الشك. ولا يتم الخروج من ذلك.

إذاً، هي الشكية الجذرية التي يبدو أنك تتهمني بها؟ إطلاقاً. إننا محكومون بالانتقال من مظاهر إلى مظاهر لكن من المهم أن نعرف أن من الحكمة التوقف في مكان ما وأين. فبين مظاهر السطح والبحث المنهك عن معنى خلف معنى ليس هو الجيد أبداً، يبدو أن تجربة عدة آلاف من السنوات تُظهر وجود مستوى وسط، يمكن للبشر أن يأخذوا لهم مكاناً فيه لأنهم يجدون -هنا- راحة أخلاقية وفكرية أكبر، ويشعرون أنهم بذلك أفضل حالاً من أي مكان آخر، دون أن يبحثوا عن اعتبارات غير الاعتبارات اللذوية hedoniste: هذا المستوى هو مستوى المعرفة العلمية والفعالية الفكرية والخلق الفني. إذاً فلنمكث فيه بعزم يكفي لأن نؤمن به عند نهاية كل عملية، لكن مع توجيه إشارة فطنة من وقت لآخر -حتى لا نفقد رؤوسنا- إلى ورقة نعي تضم عالمنا وتضمنا معه.

د. إ: هل تعرف أنك متهم أحياناً بـ «اللا إنسانوية»؟.

ك. ل. ش: سأجيبك بالقول إن إنسانوية جيدة التنظيم لا تبدأ بالإنسان نفسه. فالإنسانوية الغربية حرمت الإنسان من غطاء واقٍ بعزله عن بقية المخلوقات. ومن اللحظة التي لا يعرف فيها الإنسان حدوداً لسلطته ينتهي إلى تدمير نفسه. وها نحن نرى معسكرات الإبادة والتلوث (وهو تدمير على مستوى آخر وبطريقة خادعة لكن مع نتائج مأساوية على الإنسانية جمعاء).

د. إ: حاول بعض الكتاب والصحفيين -حديثاً- أن يقيموا رابطاً بين رفض فلسفة الذات واللاإنسانوية واعتبروا أن فلسفة الذات وحدها هي القادرة على تأسيس سياسة لحقوق الإنسان.

ك. ل. ش: نجد أنفسنا أمام مثل هذا الجبل من سوء الفهم لذلك لن أسرع في تبديده فقد يلزمني من الوقت أكثر مما يستحقه هذا النوع من الاعتراضات. لقد كرست -أنا نفسي- بضع تأملات لحقوق الإنسان في نص شكل الفصل الأخير من «النظرة البعيدة»: وهو في الأصل عرض أمام لجنة برلمانية بناء على طلب من رئيس الجمعية الوطنية.

لقد استطاعت البنيوية دون أن تكون فلسفة ذات أو حتى فلسفة، أن تواجه هذا النوع من المسائل، إنها قادرة -ربما- على الخروج من الدروب المطروقة لتعطي إجاباتها الخاصة. لقد اقترحتُ تأسيس حقوقٍ للإنسان، لا كما تم فعله منذ الاستقلال الأمريكي والثورة الفرنسية (أي على الخاصية الفريدة والمتميزة لنوع من الأحياء) بل على أن نرى فيها حالة خاصة من الحقوق المعترف بها لجميع الأنواع. وقلت لنفسي: بالذهاب في هذا الاتجاه قد يمكن الحصول على إجماع أوسع مما يحصل عليه مفهوم ضيق لحقوق الإنسان. فبذلك قد نلاقي في الزمان الفلسفة الرواقية، وفي المكان فلسفات الشرق الأدنى. وقد نجد أنفسنا -حتى- في مستوى واحد مع الموقف العملي الذي تتخذه إزاء الطبيعة الشعوب المدعوة بدائية (أي التي يدرسها الإثنولوجيون) دون نظرية واضحة أحياناً لكن بممارسة تعاليم لها النتيجة نفسها.

د. إ: إنك ترفض هذا الامتياز الممنوح للنوع البشري على بقية الأنواع، وانفراد الإنسان هذا مع نفسه، ولذلك كانت عباراتك قاسية في «خاتمة» الإنسان العاري حول فلسفة الذات والوعي الخ...

ك. ل. ش: ومرة أخرى، أقر تماماً بوجود اهتمامات أخرى غير اهتماماتي، فالوصف والتحليل يمكن أن يتمّا على مستويات مختلفة أعتبرها جميعاً مشروعة. ومالا يمكن تحمله -كما يبدو لي- في هذه الخصومة حول «الذات» هو تشدد المخلصين لفلسفة تقليدية تمتد حتى ديكارت. فكل شيء عندهم يبدأ بالذات ولا يوجد سوى الذات و.. الخ... لقد أردت تناول الأمور من زاوية أخرى ولا أفترض أن أحداً ينكر علي هذا الحق.

د. إ: في تلك الفترة رفضت الفلسفة التقليدية بقوة أكبر.

ك. ل. ش: لأنها طالبت بأن يكون لها حق حصري. وتحتّم النضال لمنافستها على مكان تحت الشمس. وكان الصراع سينتهي بمجرد أن تقنع بكونها مقاربة من المقاربات.

الفصل السابع عشر

الأدب

د. إ: من خلال قراءة النصوص التي كرستها للأدب، يظهر غالباً أنك بعيد عن النقد الأدبي البنيوي؟

ك. ل. ش: إنني بعيد عن النقد الذي يتخيل نفسه بنيوياً، والذي يستخدم كلمة «بنية» استخداماً تعسفياً و«يلصقها على أي نوع من البضائع». وأشعر أنني ضحية احتيال فكري عندما تتم المطالبة بوضع نتاجات هزيلة في صف الروائع عبر اختيارها موضوعاً للدراسة، وهذا ما يحدث غالباً (ففي الروائع ننشد العبر). هذه البنيوية المزعومة ليست في الواقع سوى حجة للرداءة. وقد أفصحتُ عن ذلك في «خاتمة» الإنسان العاري.

د. إ: هل تعتقد بوجود تراتبية hierarchie للأعمال؟

ك. ل. ش: إذا أردت أن أجري تحليلاً بنيوياً لعمل أدبي فإني سأختار شعر بودلير لا أقوال كاتب أغانٍ.

د. إ: هذا مسلٍّ جداً، فقد اعتبرتك رسالة هجاء صغيرة واحداً

من المحرضين على حركة تعمل على إلغاء التراتبيات بين الأعمال الثقافية[49].

ك. ل. ش: لم اقرأ هذا الكتاب ولا أعرف عنه إلا ما كتب في الصحف.

د. إ: لكن ما رأيك بأنك متهم بالإسهام بإلغاء التراتبيات بسبب نصوصك حول النسبوية الثقافية؟

ك. ل. ش: يجب عدم الخلط بين معنيين لكلمة ثقافة. فهي في معناها العام تدل على الإغناء النيّر للحكم وللذوق. أما في اللغة التقنية للإنثروبولوجيين فتعني شيئاً آخر. وحسب التعريف الكلاسيكي لتايلور الذي أستطيع استظهاره لأهميته الكبيرة بالنسبة لنا «الثقافة هي المعارف والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والتقاليد وكل الكفاءات الأخرى والعادات التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع». في الثقافة -بالمعنى الثاني- كل شيء هو موضوع للدراسة: أي النتاجات الأكثر انحطاطاً (بالمعنى الأول للكلمة) كما النتاجات الأكثر رفعة. وتكتفي النسبوية الثقافية بالتأكيد على أن ما من ثقافة تملك معياراً مطلقاً يسمح بتطبيق التمييز السابق على نتاجات ثقافة أخرى. وبالمقابل تستطيع كل ثقافة بل ينبغي عليها فعل ذلك فيما يتعلق بإنتاجها. لأن أعضاء هذه الثقافة هم -بالنسبة إليها- ملاحظون وعوامل في الوقت نفسه.

فأنا من موقعي كعامل agent لا تجذبني الرسوم المتحركة أو الروك إطلاقاً، أما كملاحظ فأرى في شيوع هذين النوعين ظاهرة سوسيولوجية يجب دراستها كما هي بغض النظر عن حكم القيمة الأخلاقي والجمالي الذي أكوّنه حيالها. وإطلاق تعبير «ثقافة الروك»

أو «ثقافة الرسوم المتحركة» هو تحويل معنى كلمة ثقافة إلى معنى آخر، واقتراف اختلاس فكري. لكن الرأي المقابل (أي اتهام الإثنولوجيا بإفساد الفكر الشعبي لمجرد أنها حددت أو تَحدَّدَ لها هذا الحقل من الدراسة) يشبه إلى حد بعيد اتهام العاملين في مختبرات التحاليل الطبية بأنهم مصاصو دماء أو أنهم مولعون بالبراز.

د. إ: تحدثت عن بودلير. هل كنت تلمّح إلى تحليل مقطوعته الشعرية sonnet الذي قمت به مع جاكوبسون[50]؟.

ك. ل. ش: نعم. ذات يوم، في باريس، عرض عليّ جاكوبسون أفكاره حول التحليل البنيوي للشعر. وأعطاني أمثلة إنجليزية وروسية وألمانية وأضاف إن حالة الشعر الفرنسي تربكه. وقد أثارتني أفكاره كثيراً لدرجة أنني رفضت الاعتقاد بأن من غير الممكن تطبيقها هنا أيضاً. بعد ذهابه، بدأت «القطط» -وهي من الأشعار النادرة التي أحفظها غيباً- تجول في رأسي. وبدأتْ شيئاً فشيئاً ترتسم الخطوط الأولى لتأويل ضمن الخط الذي رسمه جاكوبسون. وهكذا انشغلت في تحليل أجرؤ بتحفظ على تسميته ألسنياً -لقدر ما كان ساذجاً وأخرق- وأرسلت إلى جاكوبسون نتيجة تأملاتي. وقد حرضه ذلك فقام بالمحافظة على عناصر تحليلي وتصحيح بعضها وإضافة الكثير. وتتابعت مراسلاتنا حول هذا الموضوع. وعندما عاد إلى باريس جلسنا ذات صباح على هذا المكتب. أمسكت بالقلم وكتبنا سوية مقيّمين ومناقشين كل كلمة، واستمر ذلك طيلة النهار.

د. إ: ألم يكن لهذا الفصل تتمة؟

ك. ل. ش: لست ألسنياً، ولم أكن أستطيع وحدي متابعة هذا

النوع من التجارب. أما جاكوبسون فقد استمر ونشر تحليلات أخرى لأشعار أخرى ودائماً بالروح نفسها.

د. إ: بما أننا نتحدث عن الأدب، هل يمكن أن تقول لي من هم كتابك المفضلون؟

ك. ل. ش: كونرا، كما قلت سابقاً، وبلزاك وشاتوبريان... وبروست بالتأكيد وروسو.

د. إ: عندما تذكر شاتوبريان، تقصد به شاتوبريان «ذكريات ما وراء الموت» على ما أعتقد؟

ك. ل. ش: نعم. ولكننا نجد عنده رؤى أخّاذة حتى في كتابٍ متباين ومضجرٍ غالباً مثل «عبقرية المسيحية».

د. إ: وبلزاك؟ بعض فصول «أسطوريات» عناوينها «فصول الحياة الخاصة» أو «فصول حياة الريف»..

ك. ل. ش: لقد قُدّر لي أن أقرأ جميع أعمال بلزاك عدة عشرات من المرات، وبما أن ذاكرتي غير ثابتة فقد كنت في كل مرة أشعر أنها المرة الأولى. ولم تكن تمر عدة سنوات دون أن أعود إليه.

د. إ: أية رواية تفضل؟ القريب بون؟

ك. ل. ش: قد يكون ثمة مئة سبب لتكون روايتي المفضلة، لكن «عكس التاريخ المعاصر» تأسرني. فهنا يقترب بلزاك من ديكنز الذي أصنفه أيضاً من بين كتابي المفضلين («الآمال الكبرى» من أجمل الكتب التي أعرف). إني أسمع عند ديكنز كما عند بلزاك وخاصة في

«عكس التاريخ المعاصر» جرْساً أنا حساس له بشكل خاص: إنه جرْس المدني الرائع.

د. إ: هل يمكن تصنيف روسو من بين الكتاب الذين أثروا فيك فكرياً؟

ك. ل. ش: عن روسو أقول كما عن ألمبير «لا يقنعني لكنه يحركني». ويضاهي ميلي إلى فكره السياسي انبهاري بجمال بنائه. إن إعجابي بروسو جماليّ قبل كل شيء: يا للأسلوب! إنه يقول في خمس كلمات ما قد يحتاج مني خمس عشرة كلمة. وفيما بعد تأتي كل أشكال الاعتبارات الأخرى المعقدة لدرجة أنني أجد صعوبة في توضيحها. إن روسو من أوائل من تكهن بمستقبل الأبحاث الإثنولوجية، كما أراد تقريب العلوم الطبيعية من الأدب. وقد جعل منه قدرٌ خارج عن المألوف ملاحظاً يتمتع بحساسية شديدة. إنه يبحث في كل أعماله عن وحدة المحسوس والمعقول intelligible الأمر الذي حاولت -أنا نفسي- القيام به عبر طرق أخرى، متناولاً الأمور من الطرف الآخر: أي عبر أولية primat العقل بدلاً من الإحساس، لكن الحاجة إلى نوع من إعادة التوفيق بينهما هي عينها عند كلينا.

لقد قلت في مقابلة سابقة إن ماركس هو أول من طبّق منهج النماذج في العلوم الإنسانية، وربما يكون من الأصح ردّ هذا الفضل إلى روسو في «خطاب حول أصل اللامساواة»، رغم أن نماذجه بقيت أيضاً بعيدةً جداً عن أن تتلاقى مع الواقع. لقد جعلني «اعترافات» أعيش في مجتمع مندثر موصوف بالحدة والغنائية الرصينة ذاتهما الموجودتين في لوحات شاردان أو درولنغ. أخيراً «هيلوئيز الجديدة» التي لا يقرؤها أحد في حين أنها أول رواية حديثة تماماً (كانت مدام

دولافاييت قد خلقت جنساً روائياً ما)، تذكّر: فتاة من عائلة طيبة لها عشيق، تم تزويجها من رجل كبير السن. وقد حكت له كل شيء فلم يكن منه إلا أن أسرع وأسكن العشيق في المنزل العائلي مسبباً البؤس للجميع. ولن نعرف أبداً هل تصرف على هذا النحو بدافع سادي، أو مازوخي، أو باسم أخلاق ضبابية أو أنه ببساطة تصرف بحمق، إن علاقة كهذه بين الكاتب وشخصياته لا تنكشف فيها الخيوط وتبقى غَبِشة كما هو الحال في الحياة، سنجدها فيما بعد عند دوستويفسكي وعند كونرا. ويُدخل الكاتب كل هذا -كما في «أحلام اليقظة»- عبر إحساس قوي بالطبيعة... هاأنت ترى، روسو يحركني!

د. إ: لكني كنت أقصد التأثير الفكري لأن عنوان إحدى محاضراتك «روسو مؤسس علوم الإنسان» وقد نُشرت في الجزء الثاني من «الإنثروبولوجيا البنيوية».

ك. ل. ش: أُقيم احتفال مهيب في جنيف بعيد ميلاده الخمسين بعد المئتين، ولذلك كان فيما قلت شيء من المبالغة دون أن يكون خاطئاً تماماً.

د. إ: جاء في هذه المحاضرة «كل إثنولوجي يكتب اعترافاته». إذ يجب أن يمر عبر الأنا كي يتخلص من الأنا. لكنك تؤكد دائماً عدم امتلاك إحساس بالهوية الشخصية للأنا.

ك. ل. ش: لا أرى هنا تناقضاً. إذا لم يكن لدينا هذا الشعور بالهوية الشخصية ينبغي بذل المزيد من الجهود لكي نستعيد أنفسنا كأنَوات عند الخروج من وضعيات استثنائية. إن التجربة الإثنوغرافية تتضمن بحثاً تجريبياً عن شيء ما يفلت منك. ولو كنت أعرف جيداً ما أكون، فلن تكون بي حاجة للبحث عن نفسي في مغامرات غريبة.

د. إ: أنت لا تعرف ذلك؟

ك. ل. ش: بشكل سيء جداً.

د. إ: هل هذه سمة خاصة بك أم أنها سمة للفكر البشري؟

ك. ل. ش: أنا لا أتباهى بالتفرد. يبدو لي أن المجتمع هو الذي يفرض الشعور بالهوية الشخصية...

د. إ: ويدفع أحداً ما إلى توقيع كتبه بـ«كلود ليفي - شتراوس من الأكاديمية الفرنسية»؟

ك. ل. ش:...نعم، هو الذي يريد أن تكون «أحداً ما»، لكي يجعل هذا الـ«أحداً ما» مسؤولاً عما يفعل وعما يقول. ولو لم يكن هذا الضغط الاجتماعي موجوداً لما كنت متأكداً من أن إحساس الهوية الشخصية سيكون قوياً للدرجة التي يعتقد معظم الأشخاص أنهم يشعرون بها.

د. إ: عودةً إلى روسو: لقد نُسب إليك في وقت ما مشروع تأليف كتاب عنه.

ك. ل. ش: راودني ذلك، لكني رفضت الفكرة بسرعة لسببين: السبب الرئيسي هو أن أدباً روسوياً ضخماً ظهر منذ سنواتي الدراسية كطالب. ولكي لا أرتكب أخطاء جسيمة أو أقتحم أبواباً مفتوحة، كان عليّ أن أجرد عشرات الأعمال التي ظهرت في الخمسين سنة الأخيرة. وكان هذا يرعبني.

والسبب الثاني: علاقاتي بروسو ملتبسة. لقد جعلني فرويد وماركس أفكر. أما روسو فقد جعلني ألتهب. ولذلك كنت سأجد

صعوبة في الفصل بين الذاتي والموضوعي. وأضيف هنا أن موقفي منه قد تطور. أو على الأقل تغير المكان الذي اتخذه عمله في حياتي: فقد ابتعدت عنه أو على الأقل عن فكره السياسي منذ سنوات التزامي الاشتراكي.

د. إ: لأية أسباب؟

ك. ل. ش: «العقد الاجتماعي» كتاب صعب. وربما هو الأصعب من بين كل الفلسفات السياسية. لقد ابتعدت بقدر ما استطعت عن تلك المراجهة المباشرة بين الفرد والجماعة collectivite التي أراد تكريسها، وعن رفضه لأي وسيط بينهما. في حين أن هذه الوسائط هي التي تعطي -برأيي- لحماً ودماً للحياة الاجتماعية.

الفصل الثامن عشر

محتوى الرسم

د. إ: «أسـطوريات» مزيـن برمتـه برسـوم وصـور ملونـة ومخططات...

ك. ل. ش: مـن نوعـين. فالأسـاطير تسـتخدم كـل أشـكال الحيوانات والنباتات الغريبة، لذلك يجب تقديم إيضاحات عنها إلى القارئ، وقد اخترت في الغالب صوراً قديمة تعود إلى فترات لم يكن فيها علم الحيوان وعلم النبات قد انفصلا عن الفولكلور. وبدا لي ذلك أكثر شاعرية ويجعل فهم الأساطير أكثر حيوية.

من جهة ثانية، أردت تسليط الضوء على تحولات معقدة جداً، ولم أتمكن من تصورها إلا عبر عمل يدوي إضافة إلى العمل الفكري. فكنت أبني باستخدام الورق والورق المقوى والخيوط نماذج ثلاثية الأبعاد كان الكثير من مخططاتي إسقاطاً لها. إن أحد هذه النماذج ويبلغ ارتفاعه قرابة المتر بقي معلقاً إلى سقف مختبر الإنثروبولوجيا الاجتماعية عدة أشهر حتى تلف.

د. إ: حتى أن غلاف الجزء الأخير من «أسطوريات» يحتوي على رسم توضيحي لبول دولفو.

ك. ل. ش: إنني معجب بفن دولفو منذ زمن طويل، وغالباً ما كنت أتساءل عند دراستي لأسطورة ما كيف يمكن أن يعبّر عنها. وعندما أعلمته عن طريق وسيط برغبتي في أن يخرج لي غلاف «الإنسان العاري»، تكرّم بقبول ذلك. ولقد أوحى له النص بتركيب جميل جداً لكنه، واقعي. ربما لم تكن ميثولوجياه الشخصية تلتقي مع ميثولوجيا الهنود الأمريكيين.

د. إ: سبق أن ذكرنا علاقتك بالرسم العائدة إلى روابطك العائلية. لكني أود أن أعود إلى سجال تلا نشر نصك حول «الصنعة المفقودة» منذ عدة سنوات، والذي عرضت فيه شكاويك من الرسم المعاصر[51].

ك. ل. ش: لم تكن شكاوى! إن حالة معينة من الرسم تشكل جزءاً حميماً من ثقافتي ومن حياتي. وهي التي تمنحني انفعالات جمالية وتحرك فكري. لقد ظهرت حوالي القرن الثامن عشر واستمرت حتى بداية القرن العشرين. ما أتى بعد ذلك ينتمي إلى حالة أخرى. وأنا متأكد أنه لا يثيرني إلا نادراً وأحاول فهم أسباب ذلك.

د. إ: يقول بودلير عن مانيه: «كان الأول في عجز فنه». ما رأيك؟

ك. ل. ش: كان مانيه رساماً كبيراً، ونجد عنده قطعاً مبهرة. لكن يُلحظ في لوحاته شيء من الارتباك وكأنها لا تصل إلى هدفها تماماً. على أية حال، هو يسم نهاية حقبة وبداية أخرى.

د. إ: لو لم تكن تصريحاتك حول الرسم معروفة، لتخيلك المرء -بشكل عفوي- متأثراً بالانطباعيين.

ك. ل. ش: إنني أحبهم جداً. لقد أعادوا الحياة إلى فن كان مهدداً بفقر الدم. إضافة إلى أنهم رسامون كبار ويتقنون صنعتهم جيداً. لكن هذا لا ينفي وجود تأثير ضار حمله نفورهم من أشكال الرسم التقليدية وتشجيعهم المسرف لجمهرة من الأتباع ليس لها معرفتهم أو موهبتهم. إن ما ندين لهم به لم يستمر أكثر منهم: حوالي ثلاثين سنة.

د. إ: هل تعتقد أن «الصنعة» فقدت في ذلك الوقت؟

ك. ل. ش: لقد أعلنوا -هم أنفسهم- ذلك. كان مانيه يقول: يجب أن نرسم كما يغرد العصفور. وبذلك دفعوا أتباعهم إلى نسيان الصنعة وجهلها وازدرائها.

د. إ: عندما تحدثنا عن تاريخك الشخصي قلت إنك أحببت الرسم المعاصر.

ك. ل. ش: لقد أحببته بشغف. عند عودتنا إلى باريس عام 1918 (بعد أن قضينا فترة الحرب في فرساي) أذكر أن أبي بدأ جولات على المعارض الفنية. وقد أحبطه ذلك لأنه كان مخلصاً لتقليد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وكان يصف لنا اللوحات التكعيبية التي بدت لي كشفاً وعمري آنذاك لا يتجاوز عشر السنوات، وبهرني أن من الممكن الرسم دون تجسيد، فعكفت على القيام بما تخيلت أنه تكعيبية مستخدماً قصاصات الباستيل المبعثرة في المرسم. وبالطبع لم يكن ذلك يمتّ للتكعيبية بصلة. وما زلت أرى تركيباتي الساذجة.

صحيح أنها لا تجسّد شيئاً، لكنها مسطحة، ببعدين، دون أي بحث عن الحجم.

فيما بعد، صرت أتردد بدوري على شارع لابويسي. وطيلة مراهقتي كان الذهاب لرؤية آخر أعمال بيكاسو معروضة في الواجهات نوعاً من الحج بالنسبة لي: كأنني أذهب لتأدية فرض ديني. في الفترة نفسها، منحني لويس فوكسيل (وهو ناقد ذائع الصيت كان صديقاً لأبي ويزورنا أحياناً) فرصة لأخطو خطواتي الأولى في مجلة فنية صغيرة أراد إصدارها (أو ربما إعادة إصدارها) وقد اقترحت موضوعاً لأول مقال لي: تأثير التكعيبية في الحياة اليومية، الأمر الذي لم يرُقْ له إطلاقاً وهو العدو اللدود للتكعيبية. ولكنه قَبِل المقال مع ذلك. بدأت بلقاء مع فيرناند ليجيه الذي كان يعجبني وقد استقبلني بلطف جمّ. ولم أعد أذكر هل نشر المقال أم لا؟

فيما بعد، حوالي 1929-1930، نشرت مجلة «وثائق» عدداً خاصاً تكريماً لبيكاسو احتوى على مقال بتوقيع جورج مونيه، النائب الاشتراكي الذي كنت سكرتيراً له: إنني أنا من كتب ذلك المقال. فلم يكن لمونيه الوقت أو الرغبة في ذلك.

د. إ: ما الذي أبعدك عن الفن الحديث؟

ك. ل. ش: إنني أنحني دائماً أمام عبقرية بيكاسو. غير أن هذه العبقرية -كما يبدو لي- انطوت على إيهامنا أن الرسم ما يزال موجوداً. وتحضرني الآن صورة: على الشواطئ المقفرة التي رمانا عليها تحطُّمُ مركبة الرسم يجمع بيكاسو الحطام ويرمّمه.

د. إ: ألا تثيرك لوحة لبيكاسو أبداً؟

ك. ل. ش: إن عمل بيكاسو واسع ومتفاوت. ثمة لوحات ناجحة بشكل مدهش.

د. إ: ألا ترى قرابة بين البنيوية والتكعيبية؟

ك. ل. ش: يمكن للتكعيبية أن تمثّل مدخلاً إلى البنيوية، كما هو الحال عند جاكوبسون. لكن ذلك لا ينطبق عليّ. لقد غيّرت التكعيبية نمطاً تقليدياً من التصور بوضعها في المقام نفسه تأثيرات المنظور واختلافات الإضاءة أو تفاوت القيم. لكنها إجمالاً لم تفعل سوى استبدال تقليد بآخر.

د. إ: أكدت في نصك أن محتوى الرسم ينبغي أن يكون خارج الرسم نفسه، وأعليت من شأن الغنى اللامحدود للطبيعة. هل تدين إذاً كل رسم غير تصويري؟

ك. ل. ش: ربما تحت تأثير السرياليين. فبروتون لم يقبل أبداً هذا الرسم.

د. إ: ردّ الرسام بيير سولاج بجفاف شديد على طروحاتك في «الصنعة المفقودة» وأراد أن يقرأ في صياغتك بياناً ما للرسم التجسيدي[52].

ك. ل. ش: أوافق على ذلك.

د. إ: يعترض عليك بأن صنعة الرسم لا تتضمن تجسيد شيء ما، لكنها تتضمن الشغل على الألوان.

ك. ل. ش: بالنسبة لي، لا تتضمن صنعة الرسم إعادة إنتاج الواقع، بل إعادة خلقه. إن الدقة التي كان رسامو الطبيعة الصامتة

الهولنديون في القرنين السادس عشر والسابع عشر مثلاً، يصوّرون بها تلاحم قطعة من الجبن أو شفافية كأس أو زغب فاكهة، تستمد قيمتها من أن تكافؤاً يتحقق بين التأثيرات الفيزيائية والعمليات الفكرية التي يفرضها عمل الرسم. وبهذا يقدم هذا الأخير نسخة معقولة Intelligible عن العالم المحسوس Sensible، ويساعدنا على فهمه من الداخل.

د. إ: ادّعى سولاج أيضاً أنك لم تُبدِ إعجابك إلا بصغار رسامي القرن التاسع عشرا

ك. ل. ش: هذا غير صحيح، ففي «الفكر البدائي» قلت إن الرسام الذي اخترع كل شيء والذي ندين له برأس مال لم يفعل الرسم منذ ذلك الحين إلا قبض إيراداته، هو فان ديرويدن. وأنا أطلب منه كما من الآخرين حملي على رؤية الواقع بأفضل مما أستطيع، ومساعدتي على فهم ما يحركني في مشهد العالم، وإشراك ملكاتي الحسية والمعرفية. أو أن يوصلني إلى نسقٍ فوق واقعي لعالم كان واقعياً لكنه لم يعد موجوداً قط. وقد كتبت أيضاً نصاً يظهر فيه إعجابي بماكس إرنست، مما يثبت أنني لا أمتلك مواقف مسبقة ضد الرسم الحديث.

في حواري مع جورج شاربونييه[53] أخذت كمثال سلسلة المرافىء الكبيرة لجوزيف فيرنيه الموجودة في متحف البحرية. إنها ليست رسماً تافهاً بالتأكيد، فالتقنية مدعاة للإعجاب وفن التركيب أيضاً. حيث ينقلنا الرسم بوسائله الخاصة إلى عالم مندثر، والأروع أنه ينقلنا إلى عالم لم يوجد ربما، لأن الرسام لم يُعِد إنتاج ما رآه بشكل أعمى بل أعاد تركيب عناصر منه تركيباً مطبوعاً بالغنائية. إن

مرفأ كبيراً لفيرنيه ليس بعيداً جداً عن أمسية في الأوبرا كما يراها بروست.

د. إ: يقرن سولاج -وبشكل أعنف- وجهة نظرك حول الرسم الحديث بوجهة نظر الأنظمة الشمولية لأنك تتهم الرسام الحديث بالانحطاط.

ك. ل. ش: إذا كانت الشمولية في جانب ما، فسيكون الرسم المدعو طليعياً إلى جانب الجهاز التجاري والسياسي الضخم الذي يفرضه.

د. إ: ألا يجرحك أن يقارن خطابك بخطاب كان يتبناه الهتلريون؟

ك. ل. ش: قرأت في صيف 1987 في يومية مسائية مقالاً ضمن سلسلة تعود محاججتها -بشكل مبسط- إلى هذا: إن أعمدة بوران Buren جميلة لأن تمثال بلزاك الذي نحته رودان (الطليعي) قد تم انتقاده في حينه. لست قريباً من الخضوع لهذا النوع من الإرهاب الفكري. فالحجة السلطوية لا تؤثر بي أبداً، إضافة إلى أن من الممكن، إلى حد ما، الشك بأن يكون عمل رودان أثراً شعبياً.

كان النازيون يدينون فنون الطليعة باسم أيديولوجيا سياسية، وكانوا يشجعون عمارة ونحتاً ورسماً تثير فيّ القرف. بالمقابل، هل عليّ أن أنبذ بيتهوفن وفاغنر لأن هتلر كان يحبهما؟

لقد أعرضت عن رسم الطليعة لأسباب مختلفة: ارتباطي بمهارة لا تعوض، وهي أحد أكثر إبداعات الإنسان إدهاشاً عبر آلاف السنين، وترتبط بمفهوم ما لمكان الإنسان في الكون. إن المسائل التي يطرحها الفن -كغيرها من المسائل- ليس لها بعد واحد.

د. إ: يوجد شيء مما كنت تقوله عن حقوق الإنسان. فالرسم المعاصر هو نقطة النهاية لتيار يغلق الإنسان في انفراد مع نفسه.

ك. ل. ش: نعم، الفكرة التي مفادها أن بإمكان البشر أن يبدعوا إبداعات تساوي أو تفوق -حتى- إبداعات الطبيعة. سبق لسيروزييه وهو معاصر لغوغان أن كتب إلى موريس دونيس أن الطبيعة تبدو له صغيرة وتافهة مقارنة بما يوجد في رأسه. لكن بتقديري، يجب على الإنسان أن يقتنع بأنه يحتل مكاناً صغيراً في مجموع الخلق، وأن غنى هذا الأخير يتجاوزه، وأن أياً من إبداعاته الجمالية لن تزاحم أبداً تلك التي يمنحها معدن ما أو حشرة أو وردة. إن عصفوراً أو خنفساً أو فراشة تستدعي مثل التأمل الخاشع الذي نحفظه لتينتوريه أو رومبران، لكن أعيننا فقدت طزاجتها، ولم نعد نعرف كيف نشاهد.

الفصل التاسع عشر

الموسيقا والأصوات

د. إ: في «افتتاح» أسطوريات رجعت إلى فاغنر، وقدمته على أنه الأب المؤسس لتحليل الأساطير. هل أردت تكريم الموسيقا كفن -فقد أهديت إليها المجلدات الأربعة- أو أردت تكريم موسيقا فاغنر معبراً بذلك عن علاقة أكثر حميمية بينه وبين عملك؟

ك. ل. ش: لقد لعب فاغنر دوراً رئيسياً في تكويني الفكري وفي شغفي بالأساطير، رغم أنني وعيت ذلك بعد طفولتي عندما كان والداي يصطحباني إلى الأوبرا. لم يَبنِ فاغنر أوبراه على الأساطير فحسب، بل اقتبس منها تقطيعاً يوضحه استخدام اللوازم Leitmotiv: إن اللازمة تمثل لبّ الأسطورة Mytheme. بالإضافة إلى أن تراكب اللوازم والشعر يحقق نوعاً من التحليل البنيوي، حيث تتداخل عبر الانزلاقات والانتقالات لحظات من الحبكة كانت ستتتابع -لولا ذلك- في الزمن فقط. هكذا تتزامن اللازمة (الموسيقية) والشعر (الأدبي) تارة وتستدعي اللازمة حدثاً ذا علاقة بنيوية مع الحدث الذي نشهده، سواء عبر التماثل أم التعارض، تارة أخرى.

لم أفهم كل ذلك إلا متأخراً بعد أن انطلقت جيداً في تحليل الأساطير، وفي وقت اعتقدت فيه أنني انفصلت كلياً عن الفاغنرية. لنقل إنني حضنت عمل فاغنر عدة عقود.

د. إ: تخترق العلاقة بالموسيقا كل هذا العمل الذي يبدأ جزؤه الأول بـ«افتتاح» وينتهي جزؤه الأخير بـ«خاتمة». وتتركب فصول الجزء الأول على شكل «فوجات» Fugues(*) أو «سيمفونيات».

ك. ل. ش: ثمة مستويان من العلاقة بالموسيقا في هذا الكتاب. الأول هو تنظيم الفصول كما أشرت. أما الثاني فيتجلى في أن مجموع العمل يطرح مسألة العلاقات بين هذين النمطين الكبيرين من التعبير: الموسيقا والأسطورة.

د. إ: هل يمكنك شرح ذلك؟

ك. ل. ش: في مرحلة من الحضارة الغربية ضَعُف فيها الفكر الأسطوري وتلاشى لصالح الفكر العلمي من جهة والتعبير الروائي من جهة ثانية. لقد حدث هذا الانقسام في القرن السابع عشر. لكن تلك الحقبة شهدت ظاهرة أعتقد أنها على علاقة وطيدة بذلك: هي ولادة ما ندعوه الشكل الموسيقي العظيم الذي استعاد بنى الفكر الأسطوري كما يبدو لي. لقد سقطت أنماط من الفكر في الإهمال لصالح نمط يُعنى بالتعبير عن الواقعي، لكنها بقيت موجودة في اللاوعي باحثة عن استخدام جديد. إنها لم تعد تشبك معاني بل أصواتاً. وهذه الأصوات المتشابكة على هذا النحو تكتسب عندنا معنى من خلال العمل القديم لتلك الأنماط.

(*) Fugue: صيغة من صيغ التراكيب الموسيقية الغربية.

د. إ: هل بدا لك أن الميثولوجيا التي أردت إعادة بناء نسقها -في الأمريكتين- هي ميثولوجيا مشبعة بالموسيقية؟

ك. ل. ش: إن التحول الذي وصفته للتو بمصطلحات تاريخية والمتعلق بحضارتنا قد وُلد لأن الأشكال الموسيقية كانت كامنة في البنى الأسطورية ومن الممكن عبر سير تراجعي الوصول إلى الأولى، لكي نفهم الأخيرة بشكل أفضل.

إن شكل «الفوجا» Fugue أو شكل السوناتا كانا موجودين مسبقاً في الأساطير قبل أن يولدا موسيقياً.

د. إ: إذاً، كان التنظيم الموسيقي لهذا العمل ضرورة. غير أنه يُفتقد قليلاً اعتباراً من الجزء الثاني...

ك. ل. ش: أبداً.

د. إ: على أية حال، يختفي من عناوين الفصول.

ك. ل. ش: كنت أرغب بتأكيده، وعندما حصلت على ذلك لم يعد مفيداً التشديد عليه. لأن هذا سيبدو متحذلقاً أو حتى ثقيل الظل. لكن إعادة طرح مسألة الموسيقا في «الخاتمة» مع تطورات جديدة يثبت جيداً أن فكرة توازي الموسيقا والأسطورة تستوطن الأجزاء الأربعة. بل إن البرهان على شكل «فوجي Fuguee» للأسطورة لم يظهر إلا في الجزء الأخير.

أثناء كتابتي لـ«النيء والمطبوخ» تعطلت لأن أحد التحولات الأسطورية الذي بدا لي مؤكداً يمثل بنية لم أجد لها معادلاً موسيقياً، مع أن الفرضية البدئية تتطلب وجود معادل. عرضت مشكلتي على

صديقي رينيه ليبونيتز. فأجابني إن مثل هذه البنية -على حد علمه- لم تستخدم أبداً في الموسيقا مع أن لا شيء يتعارض معها. وبعد عدة أسابيع، أهداني وزوجتي عملاً موسيقياً ألفه حسب الخطوط التي حددتها. بالمقابل، أنت تعرف أن بيريو استخدم «النيء والمطبوخ» في سينفونيا حيث تترافق الموسيقا مع إلقاء جزء من النص. أعترف أنني لم أفهم سبب هذا الخيار. وفي أحد اللقاءات طرح عليّ عالم موسيقي سؤالاً حول ذلك. فأجبت أن الكتاب ظهر حديثاً وربما اختاره بيريو لأنه وقع تحت يديه. لكني تلقيت منذ عدة أشهر رسالة من بيريو أبدى فيها امتعاضاً شديداً. فقد قرأ اللقاء بعد عدة سنوات وأكد لي أن الحركة السيمفونية مدار النقاش هي البديل الموسيقي للتحولات الأسطورية التي ألقيت الضوء عليها. وأرفق مع الرسالة كتاباً لعالم موسيقي برهن على ذلك[54]. وقد اعتذرت عن سوء فهم عائد إلى عدم خبرتي الموسيقية، لكني بقيت حائراً.

د. إ: قلتَ يوماً إنك تود لو كنت قائد أوركسترا.

ك. ل. ش: إن ظاهرة الخلق الموسيقي تسحرني. فمعظم الرجال والنساء حسّاسون للموسيقا وينفعلون بها ويعتقدون أنهم يفهمونها، لكن قلة نادرة فقط قادرة على خلقها، وقد استحوذت هذه المسألة على تفكيري لأن هذا الوضع لا يوجد في أي نشاط إنساني آخر (لقد حاول كل منا عندما كان صغيراً أو مراهقاً كتابة الشعر، وفيما يتعلق بالفنون التشكيلية تذكُر القول: «إذا كنت تعرف الكتابة فأنت تعرف الرسم»). عندما كنت فتى حلمت بالانتماء إلى هذه القلة. وقد تلقيت دروساً في تعلّم الكمان من عازف ألتو(Alto) في الأوبرا، كما أن زوجته عازفة بيانو. كنت أؤلف قطعاً لثلاثينا الصغير هذا،

وكان لطفاً منهما أن يعزفاها. أعتقد -وليسامحني الله- أنني بدأت في ذلك الوقت بتأليف أوبرا. لكنني لم أذهب أبعد من المطلع.

د. إ: إن هذا روسويّ للغاية

ك. ل. ش: مع الفرق أن روسو كان قادراً على ذلك أما أنا فلا.

د. إ: هل تلعب الموسيقا دوراً كبيراً في حياتك؟

ك. ل. ش: جداً. فأنا أستمع إلى الموسيقا طوال الوقت وأعمل برفقتها. وهذا ما قد يثير استنكار المهووسين بها الذين قد يتهمونني بأنني أجعل منها ضجة خلفية. هذه أمور معقدة وأنا أجد صعوبة في شرح العلاقة بين عملي والموسيقا، وقد لا يمكنني ذلك إلا عبر مقارنة: لماذا يحتل العاري موقع الصدارة في الرسم؟ يمكن الاعتقاد بأن السبب هو الجمال الداخلي للجسد. لكن يبدو لي أن ثمة سبباً مختلفاً. فحتى الرسام الأكثر بروداً والمعتاد على عرض الموديلات لا يمكن إلا أن يشعر بشيء من الإثارة الايروتيكية عند رؤية جسد جميل. وهذه السورة الخفيفة تثيره وتشحذ ذهنه. إن الفنان يبحث بشكل واعٍ أو غير واعٍ عن هذا الصنيع. وتندرج علاقتي بالموسيقا في الإطار نفسه: فأنا أفكر بشكل أفضل عندما أسمعها. تتأسس علاقة تراكبية بين سرد الخطاب الموسيقي وحبل أفكاري فهما يترافقان تارة ويفترقان تارة أخرى ثم يعودان إلى الالتقاء. وكم مرة لاحظت أنني أثناء استماعي لعمل موسيقي، لا أعود أسمعه عندما تنبثق فكرة ما! ويعود فكري بعد هذا الانفصال الذي يحرره قليلاً إلى التداخل من جديد مع العمل الموسيقي، كما لو أن الخطاب العقلي يحل للحظة محل الخطاب الموسيقي مع بقائه متورطاً معه تماماً.

د. إ: هل تذهب كثيراً إلى الحفلات الموسيقية؟

ك. ل. ش: في مراهقتي كنت أذهب أسبوعياً إلى حفلات كولون أو باسدلوب وإلى حفلات أخرى أيضاً. أما الآن فلا، لأنني أصبحت مصاباً برهاب الاحتباس، وترعبني فكرة انحشاري في صف من المقاعد. لكني أستمع إلى المذياع.

د. إ: ألا تحب الأسطوانات؟

ك. ل. ش: إنها تسبب لي نوعاً من القلق: ليس مكانياً لكنه زماني. قلق من فكرة أنها تدور قريباً مني وأنها تقترب من النهاية وأن عليّ أن أنهض لأغيرها...

د. إ: لكني أرى خلفك صندوقاً يضم «الرباعية».

ك. ل. ش: إنهما صندوقان: بوم وفورتغانغلر. لكن من النادر أن أسمعهما.

د. إ: هل تحب الأوبرا لأنك تنفعل بالأصوات؟

ك. ل. ش: بالأصوات وبتركيبها وباقترانها. يوجد في الأوبرات مجموعات تقلبني رأساً على عقب وتسحرني: رباعي الفصل الأول لفيديليو، سداسي لوسيا دي لاميرمور، خماسي أساتذة الغناء، والثلاثي الختامي لفارس الوردة.

د. إ: هل يوجد مغني أوبرا تحب سماعه بشكل خاص؟

ك. ل. ش: بالتأكيد. إنني أركع أمام اليزابيت شوارتزكوف.

د. إ: وليس أمام كالاس؟

ك. ل. ش: كالاس أيضاً. خاصة عندما تغني بيلليني ودونيزيتي وبوتشيني. كان وسطنا العائلي يشهّر ببوتشيني: مدّعٍ، منتفخ، مبتذل الخ... ولم أدرك إلا متأخراً رقة توزيعه ورهافته، كذلك أصالته كمؤلف موسيقي (فهو كريشار شتراوس يكفي أن نسمع ثلاثة فواصل له حتى نعرف أنه مؤلفها). بالمقابل، يضجرني فيردي وأجده طناناً ومبهرجاً.

د. إ: بالنسبة لك تتوقف الموسيقا عند دوبيسي، لو أستطيع النجاح في أن أحدد بدقة اللحظة التي ترفض فيها المتابعة؟

ك. ل. ش: إنك تتوقف باكراً جداً. عندما كنت مراهقاً عبدت سترافينسكي بكل أعماله، واليوم قد أكون أكثر انتقائية، لكن «بيتروشكا» و«أزواج» و«ثُمانية الآلات النفخية» ما تزال تبدو لي تحفاً فنية في الموسيقا. والموسيقا التي تأتي بعد سترافنسكي يمكن أن تثير اهتمامي وأن تدفعني للتفكير بل يمكن أن يطربني أحياناً وقع الأجراس. مع أنها لا تكلمني.

خاتمة

د. إ: باختيارك «النظرة البعيدة» عنواناً لمجموعة من المقالات، هل كانت لديك نية لإظهار المسافة بينك وبين المجتمع الذي نعيش فيه؟

ك. ل. ش: إنه عنوان مقتبس عن اليابانية، وبالتحديد من خلال قراءتي لزيامي مبدع الـNO. فهو يقول: لكي تكون كاتباً جيداً يجب أن تعرف مشاهدة نفسك كما يشاهدها المتفرجون. واستخدم تعبير النظرة البعيدة. وقد وجدت أنها تمثل جيداً وضع الإثنولوجي الذي ينظر إلى مجتمعه لا كما يراه من موقعه كعضو فيه، لكن كما يراه ملاحظون آخرون موجودون بعيداً عنه زمنياً أو مكانياً.

د. إ: تؤكد غالباً أنك إنسان من القرن التاسع عشر. ماذا يعني هذا؟

ك. ل. ش: ليست هذه الفكرة خاصة بي. فمنذ عدة سنوات كتب عني زميل أمريكي شاب كتاباً [55] يضعني فيه ضمن تقليد الرمزيين والكتّاب الآخرين في القرن التاسع عشر. إنه قرن لن أشعر فيه بالغربة لو أن جنية نقلتني إليه بضربة من عصا سحرية دون أن

أفقد وعيي كإنسان من القرن العشرين. حيث سأجد بذور اختراعاتنا العظيمة.

لا تعلق كثيراً من الأهمية على أحلام مجانية إذ لا يمكن الرجوع إلى الماضي. وكما كتب ستاندال في مكان ما: يمكن أن نشتهي بتوق شديد بعث الإغريق: لكن يمكن الحصول على شيء مماثل في الولايات المتحدة (البلد المحدث) ليس هو عصر بيريكليس. إن أكثر ما يعجبنا في الأزمنة القديمة (الأدب، الفن) ليس هو ما كان يجلب السعادة للبشر. إنهم ما إن يعرفوا شيئاً آخر حتى يسارعوا إلى التغيير: والدليل اليوم البلدان المدعوة على «طريق النمو».

في اتجاه معاكس، بلبلني أن الحرفيين في عهد لويس الخامس عشر (الذين ندين لهم بأجمل إبداعات العبقرية الفرنسية في الفن التزييني) أمكنهم أن يكونوا من الذين سارعوا للتلذذ بعذاب «داميان». تبدو لي هذه الحالة نموذجية لأنها الأقرب إلينا، لكنها ليست الحالة الوحيدة التي لا يبدو فيها وجود أي تنافر بين رهافة الفن وقسوة الأعراف. وستَسرّ إلي بأن ثمة ما نتساءل عنه حول الإنسان. وستقول لي إن هذا هو دور الإنثروبولوجيا. للأسف -أو ربما لحسن الحظ!- إنها لا تمتلك إجابة عن كل شيء.

بعد سنتين

د. إ: إننا في حزيران / يونيو 1990، وقد مرت سنتان بالضبط على اللمسة الأخيرة التي وضعناها على «عن قرب وعن بعد»(*) أود أن أطرح عليك بعض الأسئلة الإضافية تتعلق بالمواضيع المختلفة التي قاربناها في هذا الكتاب. وسأبدأ من البداية بالتأكيد. لقد تملكني الفضول لرؤية المبنى الذي عشت فيه حتى الأستاذية والكائن في شارع بوسان إنه بناء برجوازي جميل برمته.

ك. ل. ش: نعم، مشيد بحجر منحوت، مع سجاد على الدرج الذي كان مضاءً بمصابيح زجاجية على نمط العصر. وعشية الحرب العالمية الأولى لم يكن في المبنى إلا جهاز هاتفي واحد موجود في الطابق الأرضي. وكان البواب يجيب على المكالمات الهاتفية وينبه الساكن المعني بواسطة جرس خاص. كنا نسكن في الطابق الخامس (من الشرفة كانت تظهر الغراندرو حيث توجد اليوم القرية السويسرية)، وكنا نتدحرج على الدرجات بأقصى سرعة للرد على الهاتف. وعندما ننهي اتصالنا نعود لنصعدها من جديد. بعد عدة

(*) «عن قرب وعن بعد» هو العنوان الأصلي للكتاب في طبعته الأولى، وهذا الفصل حوار أجراه إريبون مع ليفي – شتراوس بعد سنتين من صدور تلك الطبعة، فأضافته دار النشر إلى الكتاب في طبعته الثانية (وهي التي قمنا بترجمتها).

سنوات، اشترى المبنى أحد المضاربين فزاد الأجرة وركّب مصعداً، وأتى يوم امتلكنا فيه هاتفاً.

أضيف هنا أنني -كشخص يسكن هذا المبنى- كان عليّ أن أصرخ باسمي قرب شقة البواب عندما أعود متأخراً، وإلا فإنه سيقفز من سريره ويتبعني على الدرج.

عندما أتذكر بعض الأعراف، يبدو لي أنني عشت في طفولتي زمناً ينتمي إلى القرن التاسع عشر وألوم نفسي لأنني نظرت إليها آنذاك بعين لا مبالية أو متضايقة. ومن هذه الأعراف زيارة الأقرباء لجدتي في الأول من كانون الثاني / يناير من كل عام (حيث تنزع في هذه المناسبة الأغطية التي تغطي أثاث غرفة الاستقبال بقية العام)، زيارة أبي وعمي للمقابر في اليوم نفسه، بطاقات الدعوة المثنية المرسلة إلى أشخاص تترتب التزامات تجاههم الخ... واليوم يبدو لي هذا شهادات دقيقة عن زمن غابر. إن هذه الحالة الفكرية منتشرة جداً، وهي تفسر دون شك بناء المتاحف بكثرة كي تتكدس فيها تحف من كل نوع، كما لو أن مجتمعاً يفترسه التغير السريع ولا يستطيع في هذا الدوار أن يقوّم نفسه، يأمل أن تصبح هذه التحف المتراكمة دون تمييز حافظاً له، ولذلك يحرص على ألا يفلت شيئاً مما قد تجده الأجيال المستقبلية مثيراً للإعجاب. ربما يكون هذا موقفاً قابلاً للانتقاد تماماً كموقفي الآخر اللامبالي. إن أسلافنا الذين كانوا واثقين من أنفسهم أكثر منا، لم يعرفوا هذه الاضطرابات في الوعي.



د. إ: ثمة عدد من النقاط أود أن أعود إليها تتعلق بالسياسة.

لقد ذكرنا انتماءك إلى الماركسية والـ SFIO. أود أن أعرف: ألم تحاول أبداً الانتساب إلى الحزب الشيوعي؟

ك. ل. ش: يمنحني سؤالك فرصة توضيح نقطة ليس لها من الأهمية سوى طرافتها، أظهرها كاتبان: جان- فرانسوا سيرنيللي في كتابه الجيل الفكري [56] وستيفان كلويه في أطروحته الضخمة واللامعة المكرسة لحركة الثورة البناءة [57] التي انتميت إليها. لقد تساءل الاثنان حول عدم التوافق الظاهر بين جورج لوفرانك وبيني بخصوص التاريخ الذي أصبحت فيه اشتراكياً. في الواقع تفسير ذلك بسيط. كنت اشتراكياً فلسفةً وعقيدةً قبل أن أعرف لوفرانك. كنت قد قرأت ماركس والكتّاب الكبار الآخرين لكني كنت متردداً حيال الالتزام السياسي. وقد جذبني الحزب الشيوعي الذي يفترض أنه يجسّد الماركسية الصلبة والنقية. لكنّ جورج لوفرانك أقنعني بالانتساب إلى SFIO. وهكذا جعل مني كما قال اشتراكياً، لكن بالمعنى «النضالي» للكلمة، كعضو في حزب.

د. إ: أريد بالضبط أن أسالك عن مجموعة «الثورة البناءة». كنتَ عنصراً فعّالاً في هذه المجموعة التي دعت إلى تجديد أيديولوجي للحزب الاشتراكي، وخاصة توجيه اهتمام أكبر بالطبقة العاملة ومنظماتها. وكنت أحد محرري البيان التأسيسي لهذه الحركة.

ك. ل. ش: تجمع أطروحة ستيفان كلويه الضخمة كمية كبيرة من الوقائع والمعلومات عن هذه الحركة لست قادراً على تذكرها كلها. باختصار: لقد ذكرت سابقاً الدور الذي لعبه في تكويني حزب العمال البلجيكي وطموحه عبر نقاباته وبلدياته وتعاونياته إلى خلق مجتمع اشتراكي في قلب العالم الرأسمالي. وقد شرعنا ببضعة أشخاص في

دفع هذه الصيغة إلى نهايتها، لنجعل منها نظرية ونستخلص منها عقيدة: إذا عكفنا يوماً بعد يوم على بناء مؤسسات الفكر الاشتراكي، فإنها ستكبر شيئاً فشيئاً كالخادرة في الشرنقة الرأسمالية، وستنتهي هذه الأخيرة إلى السقوط كغلاف ميت ومتجفف. لقد كان هذا بالتأكيد جهلاً تاماً بالاقتصاد الحديث وتعقيده وديناميته وقوته. لكننا على الأقل بذلنا جهداً للتفكير عبر مصطلحات اقتصادية كما أن هذه المحاولة -رغم سلبيتها مقارنة بهدفها- لم تكن تماماً دون فائدة بدليل الدور المرموق الذي لعبه فيما بعد اثنان من أعضاء المجموعة هما روبير مارجولان وبيير دريفوس، في الحياة الاقتصادية الوطنية والدولية. ومهما كان الأمر، فقد أدركت المجموعة سريعاً سذاجتها وقصورها ولذلك تفككت عفوياً.

د. إ: تحدثنا عن التزامك الاشتراكي وعن «كتابك» الأول: كرّاس حول غراتشوس بابوف. وتوجد أيضاً سلسلة كاملة من المقالات، نُشرت في مجلة الطالب الاشتراكي، نجد منها على سبيل المثال مقالاً عنوانه الاشتراكية والاستعمار، وآخر حول سيلين...

ك. ل. ش: لقد نشرت تلك المقالات بشكل غير منتظم بين عامي 1928، 1933 وكنت أدافع فيها عن طرح مفاده أن كل شكل من أشكال الطليعة ثوري ضمن مجاله بمثل الدرجة التي نعتقد أننا نمتلكها في مجال السياسة. وبذلك كنت أبتعد عن الذين يعتبرون التكعيبية والسريالية...إلخ تمظهرات للانحطاط البرجوازي وعددهم كبير بين مناضلي اليسار آنذاك، لقد أثارني «سفر في آخر الليل». واعتقدت أن من الضروري أن أشرح في مقال طويل أن الأوساط الاشتراكية تشهّر بالكتاب لمجرد أن ليون دوديه هو الذي اكتشفه وامتدحه كتحفة فنية.

د. إ: واليوم، هل ما زلت تحب سيلين؟

ك. ل. ش: لا أعتقد أنني أعدت فتح «سفر» منذ ذلك الحين. أما «موت بالتقسيط» فلم يكن حماسي له صافياً. لكنّ ثمة قطَعاً لامعة للغاية حتى في بعض كتبه الكريهة التي تلتهما.



د. إ: فلنبقَ في ميدان السياسة إذا سمحت. تروي آني كوهين - سولال في كتابها حول سارتر أن المحرضين على «بيان الـ121» (من أجل حق العصيان خلال حرب الجزائر) وكان من بينهم جان بويّون، دهشوا عندما رفضت التوقيع عليه. هل تذكر الأسباب التي أملت عليك هذا الرفض وقد مر عليه الآن ثلاثون عاماً؟

ك. ل. ش: لم أكن الوحيد الذي رفض التوقيع، فقد رفض ميرلو- بونتي وآخرون أيضاً. لقد بدا لي مهيناً أن يحرض المرء الجنود الشباب على العصيان عندما لا يكون هو نفسه قابلاً للتجنيد. بالإضافة إلى أنني لم أشأ الانسياق وراء خلط من واجب الإثنولوجيين أكثر من غيرهم عدم الانخداع به. إننا مشدودون بشغف إلى قضية المجتمعات التقليدية الصغيرة، التي لم يكن لكثير منها حتى عدة عقود خلت أي طموح سوى الاستمرار في العيش على حدة كما كانت تفعل دائماً محمية بذلك من أضرار الحضارة. ولا يمكن الخلط بين هذه الرغبة ورغبة شعوب تريد -على العكس- المشاركة على قدم المساواة في الحياة الدولية، وأن تغدو أعضاء تتمتع بكامل حقوق المجتمع الصناعي التي تشعر فقط أنها متأخرة عنه.

إن مطالبة شعب ما باستقلاله ظاهرة ننحني أمامها جميعاً،

فمنذ قرنين بدا مبدأ القوميات قوة محركة أثبتت التجربة أن ما من دولة مهيمنة أو حتى اتحادية تمتلك قدرة مستمرة على الوقوف ضدها. لكن ليس في هذه المطالبة ما يمكن أن يحمّسنا: فالسيادة الوطنية ليست شيئاً جيداً بحد ذاته، والمهم هو كيفية استخدامها. ويمكن أن نتساءل -وهذا مشروع تماماً- ألم يكن من الأفضل ألا تتراكب الولاءات وأن يبقى بينها مجال ما بدلاً من تكديسها فوق بعضها والإقحام القسري لكل ما يتجاوزها.

د. إ: وقّعتَ عام 1958، حسب ما أورد جان - فرانسوا سيرنيللي، في كتابه «المثقفون والأهواء الفرنسية»[58]، على نداء من أجل السلام في الجزائر. وقد وقّع على هذا النص بشكل خاص فرانسوا مورياك وروجيه مارتان دوفار واندريه بروتون وجان بول سارتر وجان كوكتو وجان روستان...

ك. ل. ش: إنك تذهب إلى حد اتهامي بسوء النية، لكني بصراحة لا أذكر أنني وقعت على مثل هذا النداء. وربما فعلت ذلك راضخاً لضغط ما أو واقعاً تحت تأثير حماس عابر على أية حال. وتدل السرعة التي يشطب فيها لا وعيي مثل هذه الأحداث من ذاكرتي على عدم رضاي عن نفسي من أفعال قمت بها ثم ندمت عليها سريعاً.

د. إ: عندما نشر «عن قرب وعن بعد» قام المعلقون باعتراض غريب على ما قلتَه حول النسبوية الثقافية[59]: «إذا سلّمنا بأن ما من ثقافة يمكنها الحكم على ثقافة أخرى، فهذا سيمنعنا من تفضيل نظام ديمقراطي على نظام شمولي» ما هو مُسَلٍّ أنهم كانوا يكررون حرفياً ودون أن يدروا، الاعتراض الذي وجهه إليك الشيوعيون في

الخمسينات عندما قالوا: «قبول النسبوية الثقافية قد يكون امتناعاً عن النضال من أجل مجتمع أفضل». ويبدو أن الذين أشهروا في وجهك هذه الحجة اليوم يجهلون تماماً، ردّك القاطع جداً على منتقديك الشيوعيين، والذي يمكنك توجيهه لهم دون أن تغير فيه كلمة واحدة[60].

ك. ل. ش: يجب عدم الخلط بين الثقافات والأنظمة السياسية. إن الأنظمة التي تحدثت عنها ولدت من ثقافتنا وفيها. وسواء سرّنا ذلك أم لا، فهي تعبر عن بعض احتمالات هذه الثقافة. ونحن الذين ننتمي إلى هذه الثقافة ونعيشها من داخلها ملزمون بخيارات لا يمكن تجنب القيام بها: لأن تاريخنا ومعتقداتنا ومصالحنا تفرضها. وهذا لا يمتّ بصلة لعدم أهليتنا لتحديد موقع ثقافة ما بين الثقافات الأخرى موضوعياً. فالمعايير التي نريد اللجوء إليها لتمييز إحدى الثقافات إما أن تأتي منها هي نفسها وتكون بالتالي محرومة من الموضوعية، أو أنها تأتي من ثقافة أخرى وهي لهذا السبب مقصاة. ولكي نصل إلى حكم صحيح على ثقافة ما يجب الإفلات من جذب أية ثقافة. ثمة بالتأكيد حالات وسيطة بين هاتين الوضعيتين الطرفيتين. لكننا لا نستطيع الحكم على الأنظمة السياسية لمجتمعات مختلفة عنا (حتى لو كانت ناتجة جزئياً عن عدوى نحن مصدرها) بمثل الثقة التي نمتلكها، عبر المنشأ والمآل، عندما يتعلق الأمر بمجتمعنا.

د. إ: وهنا، سيُعترض عليك بالقول إن الديمقراطية وحقوق الإنسان أمران ترغب فيهما كل المجتمعات. إنك لا تستطيع أن تنكر هذه النقطة.

ك. ل. ش: إذا أخذنا الأمر من منظور الحضارة الغربية فإن ما تقوله صحيح. فالديمقراطية وحقوق الإنسان هما الأكثر ملاءمة لجهازنا العصبي الحسي بل لنقل إنهما الوحيدتان، لكن ما إن نغير المقياس مبتعدين قليلاً أو كثيراً في الزمن أو في المكان حتى تضطرب المفاهيم الأساسية فتفقد محتواها أو تكتسب محتوى يمكن أن يختلف كلياً عن المحتوى الذي تملكه في تقليدنا الخاص.

د. إ: يبدو لي أن النسبوية الثقافية هي أيضاً ما جعل معلقين آخرين ينتقدون ما اعتقدوا أنه رفض للحضارة الغربية من قبلك. بل إن إحدى الصحف كتبت إنك تكره هذه الحضارة[61]، لكني بقراءتي لكتبك وبالتحدث معك يتملكني (على العكس) انطباع أن كل شيء يشدك إلى ثقافة عالمنا.

ك. ل. ش: إنني نتاج هذه الثقافة. كما أن كتّابها ومفكريها وموسيقييها ورساميها ولغاتها -ابتداء باللغة التي أتحدث بها وأقرؤها وأكتب بها- هم النسغ الذي يغذيني. هل يمكن لي أن اذكر لك شيئاً؟ عندما عدت إلى فرنسا عام 1944 على متن زورق للبحرية الأمريكية، رسونا على الشواطئ البريطانية في كارديف على ما أعتقد. وكان عليّ أن أصل إلى لندن بواسطة القطار. وفي طريقي إلى المحطة اجتزت مدينة الليل عبر طرقات ضيقة ومتعرجة محفوفة بمنازل واطئة أغلبها خرب. ولقد خلّف لديّ هذا المسير واحداً من أعمق التأثيرات التي شعرت بها في حياتي: إنها أوروبا، أخيراً ها أنذا في بيتي بعد سنوات عديدة قضيتها في جنوب العالم الجديد وشماله....

لقد كنت شاهداً (منذ أكثر من خمسين عاماً) على احتضار الشعوب الصغيرة الهند - أمريكية التي ترزح تحت انقضاضات

الحضارة الغربية وفكرت أنه يجب الدفاع عنها بشكل عاجل ضد هذه الأخيرة، لكن وبعد كل الكوارث التي انهالت على الحضارة الغربية خلال السنوات المنصرمة فإني أراها اليوم مهددة، وبحاجة كبيرة للدفاع عنها هي نفسها: ضد الأخطار الخارجية بالتأكيد، وضد أخطار أخرى أيضاً تأتي من داخلها وتنخرها. لقد قلت ذلك منذ عشرين عاماً في مؤتمر دعت إليه اليونيسكو وسبق أن تحدثنا عنه: «ألا تتجه البشرية الحديثة برمتها باتجاه خسارة نفسها، ألا تعيد على كوكب صغير جداً وعلى نفقاتها خلق وضع مماثل لما فرضه بعض ممثليها على القبائل الأمريكية أو الأوقيانية البائسة؟»[62]. إن هذا النداء التحذيري ليس بالتأكيد نابعاً من الكراهية، لكنه يدعو الحضارة الغربية إلى وعي أفضل لوضع بدأت فيه القوى الخارجية والداخلية بتدميرها.



د. إ: سبق أن ذكرتَ قبائل أمريكا الجنوبية التي أقمت بينها قبل الحرب. أعتقد أنك حاولت العودة إليها، عند مرورك القصير بالبرازيل عام 1985.

ك. ل. ش: لم أحاول من تلقاء نفسي إنما عرضت علي صحيفة برازيلية كبيرة أن تقودني إليها للقيام بتحقيق فوافقت باندفاع. صعدنا عند الفجر على متن طائرة صغيرة لا يوحي مظهرها بالثقة. وكنا أربعة: زوجتي وزميلة برازيلية وصحفي وأنا إضافة إلى القبطان. في البدء هبطنا في قرية على تخوم بلاد البورورو. لم يكن لدى القبطان أية فكرة عن مكان وجود القرى الهندية فأقلّ أحد السكان المحليين الذي قال إنه قادر على أن يرشده. اتّبعنا سيراً غير

منتظم على ارتفاع منخفض، وأخيراً لمحنا قرية بورورو معروفة بمساكنها المتوضّعة على شكل دائرة، وغير بعيد عنها رأينا أرضاً مستطيلة وهي مكان مثالي لهبوط الطائرة. وبعد عدة تحليقات على ارتفاع منخفض أعلن القبطان أنه يستطيع الهبوط لكنه لن يستطيع الإقلاع لأن الأرض أصغر من أن تسمح له بذلك. وتكررت هذه الحادثة المزعجة قرب قرية أخرى. فتوجب العودة إلى برازيليا ضمن غيوم متلبدة مشحونة بعاصفة لم تبخل بقسوتها على الطائرة.

لقد كنا أقرب إلى الموت من أية مرة سابقة اجتزنا فيها هذه المناطق على الحصان أو بواسطة النقيرة أو على الأقدام... وعند وصولنا لم يكد يبقى لنا من الوقت إلا ما يسمح لزوجتي بارتداء فستان المساء، ولي بارتداء بذلتي للمشاركة في العشاء الرسمي مع رئيس الجمهورية الفرنسية والرئيس البرازيلي.



د. إ: أريد الآن أن أترك السجل السياسي لأسألك عن غرامك بالطبيعة. إنك تمتلك منزلاً على الحدود بين برغونيا والريف، تقيم فيه كثيراً. المنطقة هناك جميلة جداً وقد قلت في «عن قرب وعن بعد» إنك تحب مشاهدة المناظر الريفية. هل تقضي عدة أشهر سنوياً في الريف بدافع المتعة الجمالية الخالصة؟ من أجل متعة العين؟

ك. ل. ش: إن متعة العين مهمة للكثيرين. ثمة لحظات لا يُعلى عليها: الانتقال من الشتاء إلى الربيع (الذي يتأخر عندنا شهراً عن ربيع باريس: فمناخ هضبة اللانغر مناخ قاس)، وفي هذا الانتقال تتغير الطبيعة في يوم، وأحياناً عندما يكون الطقس جميلاً تتغير

الطبيعة من ساعة لأخرى... وتظهر النباتات والأوراق والأزهار كإعجاز فني لعين منتبهة قليلاً.

د. إ: إنه جزء سرّي من حياتك: هذه النزهات الطويلة في الغابة وهذه الظهيرات التي تقضيها في جمع الفطور ودراسة النباتات...

ك. ل. ش: كنا نتحدث عن الأخطار المهددة للحضارة الغربية. ويبدو لي الانفجار السكاني أهمها. وتتم طمأنتنا بالقول إن هذه الزيادة السكانية تتباطأ وستتوقف قريباً وربما ستتعكس. إن عدد السكان في العالم سيتضاعف خلال عقد أو عقدين إذا استمر على هذه المشية وهذه الكارثة ستؤثر على البشرية جمعاء، لكن اليابان والحضارة الغربية ستعانيان منها أيضاً رغم أنهما ليسا من مسبّبيها على أية حال (إلا بشكل غير مباشر عبر نشر الطب).

لقد قلت هذا لكي أجعلك تشعر بالامتياز الذي أتمتع به وزوجتي عبر قضاء عدة أشهر من السنة في مقاطعة تعدادها حوالي (9) أشخاص في الكم2. وهي -بشكل ما- منحدرة من الماضي. فمساحات كبيرة منها سقطت منذ وقت طويل جداً في الإهمال بحيث يمكن أن نتخيل أنها ما تزال برية. وبانطلاقتا إلى المغامرة، نشق فيها طريقاً، أحياناً بمثل الجهد الذي كنا نبذله في الغابة الأمازونية، لكن عبر غطاء نباتي أكثر تواضعاً توحي أسماء النباتات فيه (قرانيا، نبق، كرز الطير، الغبيراء) ببلاد الغال.

من جهة أخرى، يكفي تطويل البعد البؤري لكي نجد في برية طبيعية الغموض والغرائبية التي نجدها في البلدان البعيدة. ويطرح كل نبات بل كل عشبة على النباتي الهاوي لغزاً يمكن أن يقضي

ساعات ممتعة في حله، والأفضل إذا استعان مع ذلك بمراجع قديمة. إنني أحتفظ في الريف بمعجم للعلوم الطبيعية يرجع تاريخه إلى بداية القرن التاسع عشر، وهو بأجزائه الاثنين والسبعين كتابي المفضل! وألجأ إليه غالباً طيلة اليوم.

ذكرت منذ قليل ولعي بجمع الفطور. إن متعتي ليست في أكلها، مثلما أن متعتي عند ترددي على أوتيل دروو ليست في الشراء، ففي الحالتين تكمن متعتي في التعرّف على التحف وفي تحديد هويتها بعد بحث مضن أحياناً، وفي تأملها بشكل خاص. فالفطور تُحَف طبيعية رائعة ولكل نوع منها أسلوبه المميز كما هو الحال في التحف الفنية.

د. إ: إنك تواظب على زيارة قاعة دروو، كما أنك تحب التردد على تجار العاديات والمعارض الفنية...

ك. ل. ش: إنني أزور بسرعة معارض أوتيل دروو مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع. ولقد اشتريت منه كما من السقاطين عدداً لا بأس به من التحف في الماضي.. أما الآن فلم أعد أشتري شيئاً تقريباً. تذكر معي القريب بون. إنه كـ«المصنف العالم شونافار» لم يكن يستمتع بمشاهدة أية لوحة إذا لم يكن ثمنها بخساً... ليس بدافع الشح بالتأكيد، لكن لأن الثمن البخس يضمن أننا نقوم باكتشاف. وبالمناسبة فقد أصبحت فرص الاكتشاف نادرة في عالم يتزايد انغلاقاً وكانت ما تزال توجد مساحات من الحرية له في الأمريكيتين. إن كل هذا لم يعد وارداً اليوم فقد أصبح لكل خمس سنوات من تاريخ الفن من الآن فصاعداً اختصاصي أو اختصاصيون: لكنني أحب التحف بعمق، وخاصة تلك المعروضة بفوضى كما هو الحال إلى اليوم في دروو. وبعضها «أصدقائي»، فمن نظرة واحدة أعرف تاريخها

وأسلوبها، وبعضها الآخر يثير تساؤلي أو يسد ثغرة أعرف أنها موجودة في معارفي وهذا يمنحني متعة هائلة. إن التحف كائنات مستقلة، يجب فهمها لأجلها هي نفسها، وليس لشغل وظيفة نفعية.

إن جمع التحف (الذي شغفت به في طفولتي) يبعث في المجتمع الحديث إحيائية ما animismel. وهو يقدّس حشداً من الأعمال الإنسانية كما تقدّس الشنتو shinto حشداً من الكائنات والأشياء الطبيعية. ألا تلتقي الاثنتان في «خزانات التحف» القديمة حيث كانت تُجمع معادن وقواقع وفراشات وحيوانات محنطة وأعشاب مجففة باعتبارها منتجات طبيعية تساوي أو تفوق بالأهمية أو الجمال ما تنتجه يد الإنسان؟

د. إ: إنك بشكل عام تحب التحف كثيراً، لكني أعتقد أنك تحب المجوهرات بشكل خاص.

ك. ل. ش: أحد الأسباب التي جعلت كايوا يقترب مني (رغم خلافاتنا التي تحدثنا عنها) مقابلة قلت فيها عن فيلم the collector(2) لويلر، وبخلاف الأطروحة التي دافع عنها الفيلم: «إن الانقطاع إلى جمع التحف الواقعية (كالفراشات) أو الجماليات الطبيعية (كالفتيات الجميلات) يبدو أكثر سلامة فكرياً من جمع نسخ اللوحات المعاصرة»[63] لقد بدأ كايوا بجمع الفراشات ثم انتقل إلى الأحجار. فعندما نحب الطبيعة كيف لا نضمر حباً طاهراً خاصاً من جهة لمنتجاتها الأكثر وقتية أي الأوراق والأزهار، ومن جهة أخرى، وبالدرجة نفسها لمنتجاتها الأكثر ديمومة: المعادن؟

ثمة قليل من الأماكن -عدا درور- أحب أن أقضي فيها بعض

لحظات المتعة ومنها قبو اللوفر للعاديات الذي يضم بائعي المجوهرات المستعملة. إنها قد لا تكون غالية الثمن كالتي نراها عند صاغة ساحة الفاندوم، لكن التشكيلة هنا احتمالية: وهذا يسحرني. فكما أن الحصى والقواقع والأخشاب المدورة والطافية يخلفها كيفما اتفق انحسار الموجة عن ساحل رملي، فإن التواريخ الشخصية والجماعية تجرف معها ثم تضع في هذه الواجهات مجوهرات متباينة عمراً ونوعاً، يعود تاريخها إلى الفترة ما بين القرن السابع عشر والقرن العشرين (مع هيمنة للقرن التاسع عشر الذي كان عصراً عرف العمل الحرفي فيه أن يقدم خلاصةً لماضيه) وهي تأتي من كل مناطق العالم: هنا يمكن أن نحلم على مدى ساعات عديدة. إن ما يثيرني ليس الأحجار الأكبر ولا الأكثر نقاءً، لكن بشكل خاص الأحجار التي يقال عنها مهنياً «مشظاة» أو«مشذبة» والمتميزة بشوائب ينعكس فيها تاريخ الأرض، كما أن طريقة تركيبها وتصنيع الذهب والفضة المحيطين بها تعكس طبقة اجتماعية (ثمة مجوهرات ريفية، وأخرى برجوازية، تراثية أو غريبة) أو لحظة من التاريخ الحديث أو المعاصر أو أسلوباً... إن المجوهرات (سهلة الاستخدام والمصنوعة كي تُحمل) تظهر لنا كعالم صغير، موحدةً الطبيعة والإنسان بذكاء لابأس به، وتطلعنا على ما عرفت عبقريتهما على التوالي خلقه من الأحذق والأندر، ومن الأكثر ديمومة إلى الأكثر وقتية: تحف بهية أيضاً بثمنها الذي يدفعها إلى عالم متوج بأسرار أخرى.



د. إ: في الختام، أود أن أسألك عن أخبار الكتاب الذي تكتبه حالياً. عندما تحاورنا في «عن قرب وعن بعد»، سألتك عمّا حلّ

بالجزء الذي كان يجب أن يشكل تتمة لـ«الخزافة الغيور»، وقد أجبتني بأن لا رغبة لك في كتابته. ومنذ ذلك الوقت، عكفت على الكتابة واعتقد أنك قد انتهيت منه تقريباً؟

ك. ل. ش: آه نعم! منذ نهاية لقاءاتنا قررت أن أكتبه. ربما لأن حديثك عنه جعله أكثر حضوراً عندي. وبشكل خاص لأنني كنت أشعر أنني مضطرب دون نظام عمل يومي، وقد شغلني الكتاب بانتظام خلال سنتين تقريباً. وأعتقد أنه سينشر عام 1991. لسوء الحظ إن ضيق الصدر العائد للعمر جعلني أفقد الرغبة والموهبة في التوسع. ومن هنا كان كتاباً صغيراً لكن قراءته ستبدو مربكة وجافة، لأنه يخط سيراً متقلباً لم أعتن بشرح انعطافاته. لقد بدأت بتحليلات تقنية للغاية كان عليها أن توجد في «أسطوريات»، ثم تابعت بتناولٍ لأساطير أمريكية وللفولكلور الفرنسي مترابط مع عبارات حول مونتين، وانتهيت بتأملات مغامرة: ملاقياً دوميزيل السنوات الأخيرة فأنا أيضاً في سنواتي الأخيرة...



الهوامش :

(1): كلود ليڤي - شتراوس، المدارات الحزينة، باريس، بلون، 1955.

(2): برونيسلاف مالينوفسكي، يوميات إثنوغرافي، مترجمة عن الإنكليزية من قبل تينا جولاس، باريس، سوي، 1985.

(3): كلود ليڤي شتراوس، الطوطمية اليوم، باريس، PUF، 1962.

(4): سيمون دو بوفوار، مذكرات شابة مرتبة، باريس، غاليمار فوليو، 1972،ص411.

(5): خطاب كلود ليڤي - شتراوس»، في خطاب استقبال فيرناند بروديل في الأكاديمية الفرنسية وردّ موريس دريون، باريس، أرثو، 1985، ص91-99.

(6): لمعرفة حكاية البعثات عند الهنود يمكن للقارئ العودة إلى «المدارات الحزينة». (الكاديفيو والبورورو: شعبان من هنود البرازيل. - المترجم).

(7): «نيويورك قبل التصويرية وبعدها» في «النظرة البعيدة»، باريس، بلون، 1983.

(8): «الحياة العائلية والاجتماعية لهنود النامبيكوارا» في جريدة مجمع الأمريكويين، باريس، 1948.

(9): جيمي إرنست، الفرق المطلق، باريس، بالاند، 1987.

(10): رومان جاكوبسون، ستة دروس حول الصوت والمعنى، مقدمة كلود ليڤي - شتراوس، باريس، منشورات منتصف الليل، 1976.

(11): كلود ليڤي - شتراوس، البنى الأولية للقرابة، باريس، PUF، 1949، الطبعة الثانية، موتون، 1967.

(12): الأزمنة الحديثة عدد (49)،تشرين الثاني / نوفمبر 1949.

(13): كلود ليڤي - شتراوس، الوعود ، باريس، بلون، 1984، ص(258).

(14): النظرة البعيدة، مرجع مذكور، ص(354).

(15): كلود ليڤي - شتراوس، العرق والتاريخ، باريس، يونيسكو، 1952 (طبعة ثانية، فوليو، 1987).

(16): أندريه - جورج هودريكور وباسكال ديبيه، الأقدام على الأرض، باريس، ميتيليه، 1987.

(17): أندريه لوروا - غوران، جذور العالم، لقاء مع كلود - هنري روكيه، باريس، بيلفون، 1982،ص(109).

(18): كلود ليڤي - شتراوس، الإنثروبولوجيا البنيوية، باريس، بلون، 1958.

(19): الإنثروبولوجيا البنيوية، مرجع مذكور، الفصل (16).

(20): السوسيولوجيا في القرن العشرين، باشراف ج. غورفيتش ومور، باريس، puf، 1947.

(21): ج. غورفيتش، «مفهوم البنية الاجتماعية»، دفاتر دولية في السوسيولوجيا، المجلد(19)، السنة الثانية، 1955.

(22): مارسيل موس، السوسيولوجيا والإنثروبولوجيا. مع مقدمة لكلود ليڤي - شتراوس وتقديم جورج غورفيتش، باريس، puf، 1950.

(23): جان فرانسوا رُفيل، لماذا الفلاسفة؟، باريس، جوليار، 1957.

(24): الطوطمية اليوم، مرجع مذكور.

(25): كلود ليڤي - شتراوس، الفكر البدائي، باريس، بلون، 1962.

(26): في نهاية كتاب عنوانه: كلود ليڤي - شتراوس، ضمن سلسلة أفكار، غاليمار، 1979.

(27): إليزابيت رودينسكو، معركة مئة عام، الجزء الثاني، باريس، سوي، 1986.

(28): وعود، مرجع مذكور، ص(11-12).

(29): ريمون آرون، مذكرات، باريس، جوليار، 1983، ص(494).

(30): نوفيل أوبسيرفاتور عدد(21) تشرين الأول / أوكتوبر 1983، ص(96-97).

(31): خطاب استقبال آلان بيريفيت ورد كلود ليڤي - شتراوس، باريس، غاليمار، 1977، ص(57).

(32): «ديوجين النائم» في الأزمنة الحديثة عدد(195)، باريس، بلون، 1955.

(33): جورج دوميزيل، نوفيل أوبسيرفاتور عدد(7) أيلول / سبتمبر 1984، ص(74-76).

(34): كلود ليڤي - شتراوس، من العسل إلى الرماد، باريس، بلون، 1966، ص(244).

(35): جان بويّون، «عمل كلود ليڤي - شتراوس» في الأزمنة الحديثة، باريس، عدد(126)، تموز / يوليو 1956. أعيد طبعه في كلود ليڤي - شتراوس، العرق والتاريخ، مرجع مذكور(1987).

(36): كلود ليڤي - شتراوس، «انشطار التمثيل في فنون آسيا وأمريكا» في النهضة، نيويورك، المجلد(2-3)، 1944-1945، أعيدت طباعته في الإنثروبولوجيا البنيوية، الفصل(13). لوسيان فيفر «اقتباسات أو أعماق مشتركة للإنسانية؟» في حوليات، باريس 1951، ص(380-381).

(37): فيرناند بروديل، كتابات حول التاريخ، باريس، فلاماريون، سلسلة آفاق، 1969، ص(58).

(38): جورج شاربونييه، لقاء مع كلود ليڤي - شتراوس، باريس، الاتحاد العام للمنشورات، 1961، أعيد نشره في سلسلة 10/18، باريس، بلون - جوليار، 1969.

(39): «الإنثروبولوجيا، التاريخ، الأيديولوجيا» في «الإنسان»، تموز / كانون الثاني 1975، ص(177-188).

(40): كلود ليڤي - شتراوس، طريق الأقنعة، باريس، بلون، 1979، ص(145-148).

(41): كلود ليڤي - شتراوس، «خروج على سفر الخروج»، في «الإنسان»، 28، 106، 1988.

(42): جان بوتيتو، «مقاربة مورفوديناميكية للصيغة القانونية للأسطورة». في «الإنسان»، 18، 106، 1988.

(43): شارل بودلير «ريشار فاغنر وتانهاور في باريس» في الأعمال الكاملة، باريس، بلياد، ص(1211-1214).

(44): العرق والتاريخ، مرجع مذكور، معاد نشره في الإنثروبولوجيا البنيوية(2)، الفصل(18)، باريس، بلون، 1973.

(45): كلود ليڤي - شتراوس، «العرق والثقافة». وأعيد نشره في النظرة البعيدة، الفصل(1)، باريس، بلون، 1983.

(46): ريمون آرون، مذكرات، باريس، جوليار، 1983،ص(520).

(47): فرانسوا جاكوب، الدستور الداخلي، باريس، منشورات أوديل جاكوب، 1987.

(48): برنار - هنري ليڤي، الفيغارو - مدام عدد(13300)، 5 حزيران 1987.

(49): آلان فينكيلكراوت، انهزام الفكر، باريس، غاليمار، 1987.

(50): («القطط» لشارل بودلير)، في «الإنسان»، 2، 1، 1962. رومان جاكوبسون، أسئلة الشعرية، باريس، سوي، 1973، ص(401-419)، مختاراتIII. الهاغ - باريس - نيويورك، موتون، 1981، ص(464-447)،

وص(783–785). دولاكروا وغيرتز، «القطط» لبودلير. مواجهة المناهج، باريس، puf، 1980.

(51): عنوان لمقتطفات من نص، أصبح الفصل (19) من النظرة البعيدة، نشر في نقاش، عدد(15)، آذار / مارس 1981.

(52): ب. سولاج «الصنعة المفقودة المزعومة»، نقاش عدد(15)، 1981.

(53): جورج شاربونييه، مرجع مذكور.

(54): د. أوسموند - سميث، اللعب بالكلمات، دليل إلى سينفونيا لوسيانو بيريو، لندن، الجمعية الموسيقية الملكية، 1985.

(55): أ. بون جيمس، من الرمزية إلى البنيوية. ليڤي - شتراوس في التقليد الأدبي، أوكسفورد، بازيل بلاكويل، 1972.

(56): جان فرانسوا سيرنييللي، الجيل الفكري، طالب في الهيبوكان وإعدادي بين الحربين. باريس، فافار، 1988، ص(390–391).

(57): ستيفان كلويه. الثورة البناءة، مجموعة مثقفين اشتراكيين في سنوات الثلاثينات، أطروحة مقدمة في 3 شباط / فبراير 1989، جامعة نانسي - II. الجزء الثاني ص(39–40).

(58): جان فرانسوا - سيرنييللي، المثقفون والأهواء الفرنسية. باريس، فاريار، 1990، ص(199).

(59): فيري لوك، الإكسبريس، 26 آب / أوت 1988. ص(94–96) وآلان فينكيلكراوت. في الفيغارو الأدبي، 20 أيلول / سبتمبر 1988 ص(3).

(60): الإنثروبولوجيا البنيوية، مرجع مذكور، ص(366-368).

(61): تزفيتان تودوروف. نحن والآخرون، باريس، لوسوي، 1989 وباسكال بروكز، محللاً هذا الكتاب في النوفيل أوبسيرفاتوار، 12 كانون الثاني / يناير 1989، ص(88).

(62): النظرة البعيدة، مرجع مذكور، ص(44).

(63): الإنثروبولوجيا البنيوية، الجزء الثاني، مرجع مذكور، ص(328).



المحتوى

أعمال كلود ليفي - شتراوس

1- الحياة العائلية والاجتماعية للهنود النامبيكوارا، باريس، مجمع الأمريكويين، 1948.

2- البنى الأولية للقرابة، باريس، puf، 1949. طبعة جديدة منقحة، لاهاي - باريس، موتون & سي، 1967.

3- العرق والتاريخ، باريس، يونيسكو، 1952.

4- المدارات الحزينة، باريس، مكتبة بلون، 1955.

5- الإنثروبولوجيا البنيوية، باريس، مكتبة بلون، 1958.

6- الطوطمية اليوم، باريس،puf، 1962.

7- الفكر البدائي، باريس، مكتبة بلون، 1962.

8- أسطوريات:

1- النيّء والمطبوخ، 1964.

2- من العسل إلى الرماد، 1967.

3- أصل آداب المائدة، 1968.

4- الإنسان العاري، باريس، مكتبة بلون، 1971.

9- الإنثروبولوجيا البنيوية - الجزء الثاني، باريس، مكتبة بلون، 1973.

10- طريق الأقنعة، جنيف، منشورات ألبير سكيرا، طبعة مزيدة ومنقحة وموسعة، باريس، بلون، 1979.

11- النظرة البعيدة، باريس، بلون، 1983.

12- الوعود، باريس، بلون، 1984.

13- الخزافة الغيور، باريس، بلون، 1985.

14- تاريخ لانكس، باريس، بلون، 1991.

15- المشاهدة، السمع، القراءة، باريس، بلون، 1993.

16- Saudades do Brasil، باريس، بلون، 1994.

كتب مشتركة

1- جورج شاربونييه، لقاء مع كلود ليفي - شتراوس، باريس، بلون - جوليار، 1961.

2- خطاب استقبال آلان بيريفيت، في الأكاديمية الفرنسية وردّ كلود ليفي - شتراوس، باريس، غاليمار، 1977.

3- خطاب استقبال جورج دوميزيل، في الأكاديمية الفرنسية وردّ كلود ليفي - شتراوس، باريس، غاليمار، 1979.



لطالما انشغل كلود ليفي شتراوس بهاجس البحث عن العمق. فهو لم يكفّ يوماً عن القناعة بأن ما هو مرئي يخفي واقعاً آخر أكثر عمقاً، وأن هدف العلم هو أن يسبر هذا العمق حيث تختفي الحقيقة، أو القانون الأساسي، أو البنية. وباختصار، فقد كان طموح بنيوية شتراوس أن تزيح الستار عن خصائص العقل الكونية اللاواعية. فمنذ تأثره بالألسنية التي تعلمها، والتي انتهت به ليكون أحد أعمدة البنيوية، راح يحدوه حلم الصرامة العلمية، وحاول أن ينقل كل ذلك إلى ميادين الأنثروبولوجيا، والأسطورة، والفكر البرّي، والطوطمية، وأنظمة التواصل والتبادل، والتاريخ، والموسيقى، والأدب.. وباختصار، إلى معظم الميادين التي تطاولها الأنثروبولوجيا ومعظم ما يندرج في إطار التمثلات الذهنية والثقافية، كلُّ ذلك بمنهج بنيوي ربما لم يمثّله أيُّ أحدٍ آخر من القامات البنيوية الرفيعة كما مثّله شتراوس.

إذا كان ثمة مئات من الكتب والدراسات التي تناولت أعمال شتراوس ومنهجه وعوالمه الشاسعة، فلربما كان أفضل من يتحدث عن كل ذلك هو شتراوس نفسه، وهذا الحديث المسهب بالضرورة، والكاشف، والعميق، هو هذا الكتاب.

الدوائر الباردة





دار كنعان
للدراسات والنشر
والخدمات الإعلامية

Design by: JAMAL ABTAH